فاروق منيب

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

آدم الكبير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة

فاروق منيب

المجلد الثالث

- آدم الكبير
- أيام الأمل
- المطرود

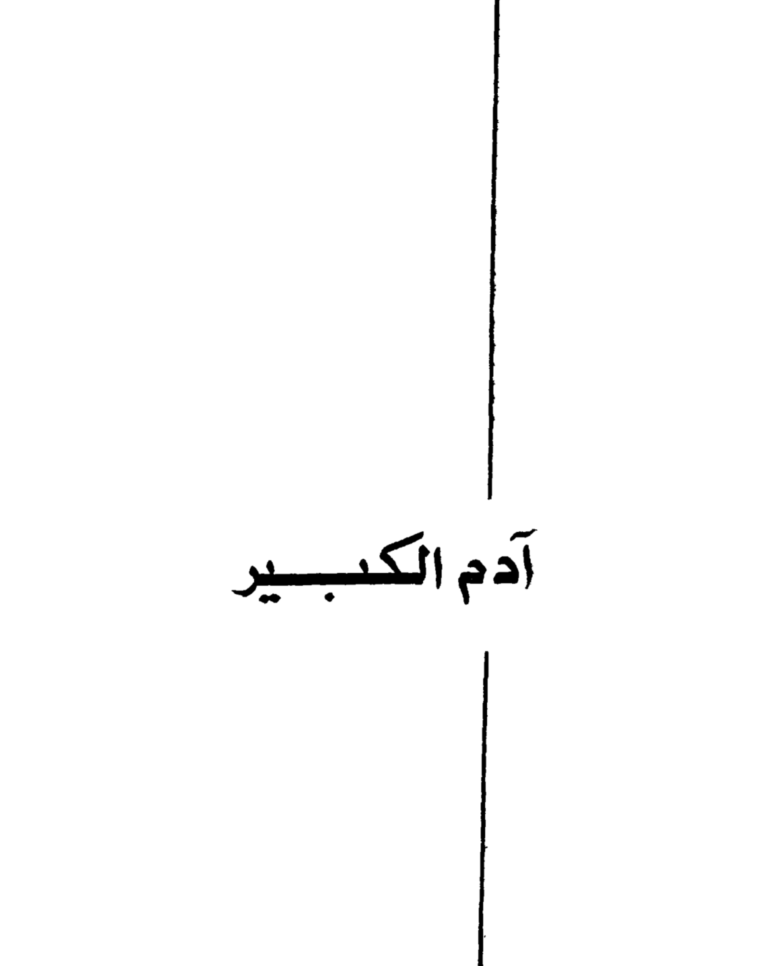


الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

الاخراج الفنى

● ماهــر الشمسى



آدم الكبـــير

- ١ -

حطت شـابورة الصباح على قريتنا فكستها أثوابـا من الحريـر الأبيض المنـدوف ، شـف عن لـون الأرض الأخضر وأشـجار الكازورين والكافور السامقـة .. وعبقت فى الجـو روائح الزرع النديـة وحبات اليوسفى والبرتقـال .. وتبدت وداعة شاملة ، تمتص التعب والارهـاق والمعاناة من الصـدور الى حين .. ألكلاب والقطط والبهـائم والحشرات والطيـور تستكن فى نوم عميق ، الا عشرة من الرجـال الصـالحين كانوا يستعدون لصـلاة الفجر يدعون للبشر بالهدايـة والصـلاح ، أما الآخرون فقد كانوا يغطون فى الأحلام يطردون عن صـدورهم الرؤى الكئيبة المزمنة .. يودون انتزاع أجسادهم من تعب كل يوم ليستريحوا قليلا .

وعلى طول الأكواخ الصغيرة المبنية فى الحقول تتردد الأنفاس يا ربنا قد زرعنا وحصدنا منذ آلاف السنين ، فهب لنا بعض ما حصـدنا ، وهيىء لنا يسرا بعد عسر ، وراحـة بعد شقاء ، وفى مياه الترعة تتقـافز بعض الأسـماك على السطح مذعورة

خائفة .. وعندما بدأ الخيط الأبيض ينفصل عن الخيط الأسود ترامت فى الأفق البعيد وحدة أبدية تريد أن تنفض عن نفسها ظلام الليل تسعى بأقدامها وسواعدها وعيونها فوق الأرض باحثة عن رزقها .. تقنع بما يسد الفم . وترتوى بقول حكيمها بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه .. تحتضن بواكير الأمل ، وتستعجل خطوات الانسان القادمة تقدم الخصب والنماء والعطاء .. تسقى وتحرث وتبذر .. وفى كل صباح يجىء همس الطيور وغناؤها :

ــ صباح الخير أيها المتعبون .. وينعق غراب فيزداد وجيب الفناء عند الأفق : بح صوتك أيها المنكود الأسود ، وتحلق حزم العصافير واليمام ، تتدفق القشدة من أفواهها بأناشيدها القديمة العذبة فتتمخض موجات الهواء المتعاقبة عن موسيقى طازجة ، حبلى بعناقيد السرور والبهجة اللطيفة منقوشة بحبات الرقة والأحزان المتناهية ، الدموع والبسمات والهمسات وتخجل .. الشابورة فترفع أثوابها الحريرية عن وجه الأرض دقائق وفى انتظار خطوات البشر يسبح الكون حائرا قلقا لا يعرف طريقه وينفلج نجم فى السماء يزهو ربما فى آخر لحظات عمره ، ويغطى الندى أوراق البرسيم ، ويكاد الصبح أن ينفلق لولا بقية من عناد الليل السقيم .. وينتفض الكون ينم عن ضيقه غاضبا تفيض عيناه بفرحة منتظرة .. يكسبه الزمن حكمة أزلية خالدة أن لا فرح ولا أبتهاج بسهولة ، فالأحزان تفل روحه من مئات السنين ويخفق نجم السماء عاريا .

ــ لم يعد فى القلب صبر .. لم يعد فى القلب صبر !

ويتردد الصدى على أسطح البيوت الواطئة الصغيرة وفى أحضان الأمهات والأطفال وفى مداخل الدروب والمنعطفات ، وعلى

الأوراق والجذوع وفوق الصخور الملساء وفى مشارف قمم الجبال وفى منحدرات الوديان والأغوار :

ـ لم يعد فى القلب صبر .. لم يعد فى القلب صبر !

ويغرد طير يتعلم الغناء حديثا :

ـ يا ضيعة الأصيل .. يا ضيعة الأصيل !

ويصفق يلتقط الغذاء من فم أمه ثم يسقسق :

ـ فى بلاد الغرباء .. فى بلاد الغرباء !

ـ وفى داخل الدوار القديم كانت نخلتان تتناجيان ، أم وابنتها قالت الابنة : طاب صباحك يا أمى ..

قالت الأم : لم تغفل عيناى طوال الليل ..

ابتسمت الصغيرة : الى متى تحملين الهم والنكد على راسك يا أمى ؟ !

ـ الى ان اطمئن على أولادى فى كل مكان .

ـ طيب أريحى جنبك حتى تواجهى صعاب نهارك القادم .

ـ نهارى كليلى ، لا تغفل عيناى ما داموا يتطاحنون .

قالت الابنة : ما احوال سرور ؟ !

قالت العجوز : كما عودنا دائما طيب ، ومسالم .

ـ الم يحل مشاكله ؟ !

ضحكت العجوز ، وهى مسرورة :

ـ ياريت ..

ـ دائما تسخرين .

ـ أبدا .. أبدا ..

ـ ....

ـ مشاكل مزمنة ، ورثها عن آبائه وأجداده ..

ـ من اى بلد هو ؟

ـ لا اعــرف .

ـ وميــلاده ؟

ـ ربما هنا أو فى الصعيد او فى طنطا .. او فى ..

ـ يقولون انه تدروش بعض السنوات .

ـ ربمـــا ..

ـ واحب من جوار السيد .

ـ جــائز ..

ـ وعصى ربه بعد الهداية ..

ـ أحــوال ...

ـ وتشرد وتعذب ...

تنهدت النخلة العجوز ..

ـ دنيــــا ..

وتردد الصــوت الكئيب داخل الدوار طالبا الحريم .. وقام سرور يجر جسده المنهك الى الحظيرة ، وتوجع الأفق الشرقى يلد الشمس .

واستبشرت الأرض بنور ربها . بدأت الشابورة تتلاشى فى حياء .. وهبت نسمة لذيذة منعشة ، فابتردت وجنتا المضيع الحزين وانهارت الدموع فى عينيه وهو ينعى أيامه المـاضية :

بتهنى ليه يا زمن مكانش م الواجب
اتريك ردى خال ما عندك ذوق ولا واجب
بتهنى ليه يا زمن ونا أصلى من الغاليين
ونار قلبى أشعلت من بعدى عن الغاليين
زى السفينة اذا جاها الطياب حلت
الدنيا ذلت أهالى الذوق والواجب

- ٢ -

غريب أنت يا سرور كأنك مقطوع من شجرة . وحدك امام التعب والشقاء والعذاب .. ضاق عليك الدوار ذو الرائحة العطنة بصوت سيده السخيف .. كلت قدماك من عادة كل يوم كالحمار ، عيناك مغمضتان .. آن لك أن ترفع عنهما الغشاوة السوداء وترى الدنيا امامك بألوانها الحقيقية آن لسؤال كل صباح أن تجيب عليه .. من أين يا سرور .. لا . والى أين يا سرور .. أيضا لا .. لا .. لا .. لولا أن الزمن لم يحن بعد فتحمل وأمرك لله .. كن من الصابرين ، أو من الذين كتبت عليهم الذلة ، ولكن لم وصلت بك الحال الى هذا المنوال .. تركت القرآن والأذان .. وما ذنبك .. كانت أيام شقاء ونكد كذلك ، لم تذق فيها طعم الراحة ..

فى الفجر يوقظك العشرة الصالحون للصلاة يطيرون النوم اللذيذ من عينيك ، فتقوم تفرك جفونك الممتلئة بالألم ، لم تشبع من النعاس بعد .. وفى أعلى مكان فى البلد يتهدج صوتك الحنون الوفى — الله اكبر .. الله اكبر .. فى الشتاء يهتز بدنك

فى قشعريرة البرد وندى الفجر ، اما فى الصيف فانك تستمتع بالنسمات اللطيفة ودغدغة الهواء .. ثم تعود الى ركنك المهجور تحت السلم لتكمل النوم .. « بلغتك » تحت راسـك وبعض الخرق على جسـدك .. وعندما يشقشق النهار ، تسرح فى الدروب ، تقرأ آية هنا وآية هنـاك ، تعرف أسرار النسـاء والرجال والأطفال ، وان رزقك الله بليلة طيبة ، ختمـة أو مأتم أو حفلة طهور أو حج مبرور ، فان الله يرضى عليك برزقك من حيث لا تحتسب .. وترتل فى سرك « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » تقبل كفيك من بطنهما وظهرهما على نعمائه ولكن الصوت .. بح الصوت . يا سرور فى ساعة محزنة كئيبة ، لا تدرى كيف ؟ !

استيقظت ذات صباح لتؤذن ، فخارت حنجرتك عاليـة النغمات ، وانبسط فى صـدرك يأس قاتل مرير .. ضاعت منك الدنيا والآخرة وظللت تصلى صامتا داعيا ، غير شاك ولا متبرم ولا ساخط .. الى أن التقطك السـيد الفرماوى من أمام باب الجامع فى الضحى :

ـ مالك يا سرور ؟ !

ـ لا شىء يا سيدى .

قال : لا تحمل هما !

قلت : قدر أخف من قدر .. من كان يدرى ؟ !

ـ هذا عهدنا فيك يا سرور .

ـ شـكرا ..

ـ لا شكر على واجب .. تعال معى الآن .

وسحبك من يدك كالبقرة المطيعة .. قدم لك غـذاء كثيرا ثم كساك دمورا ثقيلا .. وفى المســاء صنع لك بيديه كوبا من المـاء والسكر ، فشكرت الله فى سرك .. فرجت يا صاحب الفرج، وقال وهو من فم مجرب خبير !

ــ سبحان من لا ينسى عبيده ..

وعرفت معالم الطريق .. وبالانسانيــة أدركت مكانك عند السيد الفرماوى .. تأكل وتشرب وربما يمنحك فى الشهر شيئا ثم تنضم الى الحقل تزرع وتحرث أياما يا سرور .. سبحان من يغير الأحوال ..

وفى مرة شمله العطف عليك ، فناداك مرحا فخورا .

ــ أريد أن ازوجك يا سرور ..

ــ انى زاهد يا سيدى ..

ــ لا زهد فى شريعة الله يا ولد ..

ــ كفانى عطفك يا مولاى .

ــ يا خبيث .. ألم تحب فى حياتك !

ــ مرة واحدة وانتهت ..

ــ اين .. ؟

بجوار السيد البدوى ..

ــ ومتى ؟ !

ــ أيام طيش الشباب ..

ــ كانت جميلة ..

ـ وجهها كالقمر ..

ـ كالخيزران ..

ـ ولم لم تكتب عليها ؟ !

ـ أمره هو ..

ـ لا أفهم ..

ـ رحلت قبل الأوان ..

لم يكن يعلم ما عانيت في الحيـاة يا سرورة .. اين أيـام الحكيم مملوك ، كيف هداك الى رحيق الوجود ، سـقاك الصبر وترياق النقاء والحب والصفاء .. أضـاء النور أمام عينيك .. قطر لك الحكمة فى عقلك .. وصـاحبك فى السراء والضراء ، فى الليالى الحلوة والمرة .. فى قيظ الظهر وتحت النجوم ، فى القاعـة المسـحورة الضيقة ، وعلى بسـاط الخـلاء المترامى الأطراف .. كان قلبـا ينبض ، فمه ينقط الشهد المكرر .. ويده حنون تعطى ولا تأخذ .. فأين انت يا مملوك يا حبيبى لتعيننى على بلواى ، وتفتح لى الدروب المسـدودة كم مرة عشـقت فيك العزاء والسلوى تقدمها للناس دون مقابل .. وكم مرة ارتميت فى حضنك باكيا حزينـا من أثر الآلام فتلقيتنى بين ذراعيك كما يتلقى الأب المشتاق وليده سـاعة ولادته .. وفى كل مرة كنت أولد من جديد .. تولد فى قشعريرة الوصـول ودفقة الملائـكة والسعداء المخلصين .. فأين انت يا حبيبى ... أين أنت ؟

- ٣ -

فى ساعة الضحى كانت قدما سرور تخوضـــان فى الطين على غير هــدى .. يقف على راسه السيد الفرماوى مغيظا محنقــا تتطاير عيناه بنظرات الغضب ، والسبب سرور الملعون ، اعتمد عليه فى رى البرسيم فترك المياه تغرقــه .. انه ليس الحــادث الأول من نوعه .. فى صيف العام المــاضى حدثت نفس الحكاية.. زحفت المياه على البطيخ والطماطم فى عز نضجها ، واخذت فى طريقها قمح العيال .. وضـــاع جهد العام كله .. فلاح خائب لم يتعود على الفلاحة بعد .. يحسب انهــا اذان ســهل فوق المئذنة ، يردده كل يوم وهو شبه نائم كســول .. لا .. انهــا الأرض العفية تحتــاج الى الأقوياء ولكن .. فليصبر عليــه .. فما زالت يداه غضتين .. ولا فائدة من الشدة .

ناداه ..

ــ تعال يا سرور ..

اقترب منه ، ورعشة مفاجئة تهز صدره الضعيف :

ــ نعــم ..

قــال :

ـ لا تخف ...

ـ تحت أمرك ..

ـ اريدك أن تنسى أيام الجامع .. فهمت ؟ ! .

سرور ..

ـ حــاضر ..

الســيد :

ـ وترعى الأرض ...

ـ حــاضر ..

ـ ولا تغادر الزرع ...

ـ ما تشــاء ...

ـ سوف ابنى لك عشا ..

ـ حــاضر ..

ـ وحظيرة للبهائم حتى تكون بجوارك ..

ـ امــرك ..

ـ وتترك اللعب الذى لا يفيد !

وأمره بالانصراف . فشكر سرور ربه ان عفــا عنه السيد ، وهمس فى خاطره .. قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا . وشمر عن ساعديه مخلصا ، راح يصفى الميــاه الفائضة فى المصــارف الجانبية وربط الجاموسة والبقرة قريبــا من البرسيم فأخذتا

تأكلان بنهم . تجتران كلما احستا بالشبع . وفى النهاية انتقى سرور مكانا جافا ثم قعد يستريح . فك عقدة ثيابه عند بطنه ، وفرد اكمامه وأزاح بعض قلاقل الطوب من جواره وأمسك بزلطة مشطوفة بين اصابعه .. تذكر جده وأباه قبل أن يموتا . اطلت عليه الذكرى من فوق نوار البرسيم الأصفر .. كان جده اجيرا عند احد الأعيان رآه وهو يضرب ويجلد ويبصقون على وجهه أمامه . كان يتزوج من احدى الفقيرات فالفقراء للفقيرات والأغنياء للغنيات . أنجب منها سبعة أولاد وبنتين ، انتشروا فى شعاب البلاد .. الغربية والمنوفية والقليوبية .. و .. أما ابوه فقد استقر به المطاف فى الشرقية ، كان الخديو يصلح الصحراء ، يحتاج الى الفلاحين والعبيد والمساجين ، حطوا رحالهم وسط البرك والمستنقعات يحملون الرمال على اكتافهم من الجبل ليردموها . آلاف السواعد والأقدام طالعة نازلة طوال النهار كخلايا النحل والخديو فى مقصورته يطل من أعلى نقطة فى المكان ، يرتب وينسق ويقضى على التمرد كلما شم رائحته من بعيد ، ومات ابوه . ودفن وسط أشجار البرتقال واليوسفى والمانجو بعد أن طلعت ثمارها واشتد عودها . وكان سعيدا رغم كل شىء فهذه الأشجار من غرسه وهى الآن تحتضن رفاته ، وانا من الأرض واليها راجعون . وذات أمسية وهو يشعل سيجارته من زناده .. حدثته عيناه : هذه الأشجار ارتوت من دمنا ونثرنا حولها ادمعنا فهل اذا اكلنا واحدة نصبح من العاقين ؟ !

وافاق من الذكريات القديمة على انتشار دفء لذيذ بعد ان غابت الشبورة تماما . وجفت أوراق البرسيم من ندى الصباح، وعبق الضحى باريج شتائى حلو حلمت معه الموجودات أن تتنفس حرة طليقة . وحلقت الطيور فى السماء الحمام واليمام

والعصافير والغربان فيما عدا أبو قردان الذى كان يقفز قريبا على سطح الأرض مهموما بالبحث عن رزقه فى باطن التربة وضمخت رائحة روث البهائم أنف سرور فشعر بالقرف . فقد رائحة المصلين العطرة ومسك اهل الصلاح والقى بالزلطة من يده الى آخر المدى . وترامى الى سمعه صوت جاره آدم أبو عطيفة :

ـ صباح الخير يا سرور ..

ـ صباح الخير ياعم آدم ...

واقترب منه العم آدم فى خطوتين كبيرتين وكفه العريضة تلوح فى الهواء :

ـ ايه .. مالك .. شايل الدنيا على قرنك ليه ؟ !

سكت سرور . فاستحثه العم آدم مشجعا !

ـ قول يا أخى .. انا زى ابوك ...

تمتم سرور :

ـ الغرق ياعم آدم .. الغرق ...

هتف بصوت يشق الفضاء :

ـ وزعلان عشان كده ؟ !

ـ آه ...

وانفجرت منه ضحكة عالية ، دشدشت الصمت من حوله تجاوب صداها بين الأشجار دافقا حيا ، يحمل طعم الحياة صحبها العم آدم فى سخرية :

ـ خليها تغرق .. وانت خسران ايه ؟ !

قال سرور فى وجل :

ـ السيد ياعم آدم ..

ونحى العم آدم بعض الطوب جانبا وقعد نصف قعدة فى مواجهة سرور وركز عينيه فى عينيه ، ثم مد يده الى كتفه وكان لايزال فى فمه بقايا الضحكة التى تحولت على شفتيه الى ابتسامة رائقة حلوة ، قال :

ـ الأرض لله يا سرور .. لا تغتم .

وصمت فجأة .. كأنه يكتم سرا كبيرا فى داخله .. تلون وجهه المستبشر بغلالة من المرارة الشفافة .. ترقرقت عيناه بدموع تعف عن الانسياب السهل .. تعجب سرور من أمر جاره. لم يلتفت اليه سوى اليوم .. كان يراه فى قلب الحقل طويلا عريضا لا يكف عن الحركة فى كل اتجاه تبدو حوله الكائنات كأنها أقزام ضئيلة ، يبدو له من النظرة الأولى أنه متعجرف يحتقر الناس ، كثيرا ما كان فظا غليظا معه ، فانفض من حوله .. ظل ينفر منه الى أن جاءت اللحظة التى رآه فيها وجها لوجه ، كأنه ملاك نزل اليه من السماء ليزيح عن نفسه الكآبة والضيق ، وليفتح له طريق السعادة عن آخره ، كلماته تخيفه . لا يعرف الى أين تتجه ، وتحول يسأله عن صمته ، لكنه تردد لبعض الوقت فما الذى يخبئه هذا المارد فى نفسه ؟ ! لم تنتابه هذه الحالات الغريبة ؟ !

ليته يدرك سره ..

- ٤ -

عند منعطف الطريق الموصل الى القرية شوهد رجل عجوز يتعكز على عصاه ، شبه ضرير ، نحيف الجسد ، رقيق التقاطيع ، يمشى خطوة ويتراجع خطوات . يومىء ببصره الشحيح ليرى الأشباح أمامه ، ثم يبحلق بصعوبة ، فلا يكاد يرى سوى غبش المساء الباهت ، وخيالات ممزقة فى دوائر سوداء راعشة .

كان الحنين قد لعب به طويلا ، فاشتاق للزيارة ، لكن من يعرفه الآن ؟ ! . لقد تنقل فى بلاد كثيرة . طاف وساح . اختبر النفوس والقلوب والعقول فلم يجد خيرا من المهد الأول الذى احتضنه وهو صغير ، لهفيه تلاميذ ومريدون وأحباء . طبقات فوق طبقات ، كل ميسر لما خلق له . وكان فى دعائه التوفيق دائما وفى رضاه السداد والطمأنينة . أرضى الله فرضى عنه . على جبهته علامة السجود ، وفى أنامله الطهر ، خلال مفرق راسه الشعر الأبيض ، وعند محياه يرقد الم واسى عتيقان ، مازالا يقاومان الزمن فى تحد واصرار .

حملته الأرض سبعين عاما فانشـق له باطنهـا يطلعه على اسراره عن طيب خاطر . أن الجـاه لا يدوم ، والهوان لا يبقى وان الغنى الى زوال .. والفقر يمكن ان نسمو فوقه .. والنبات والجماد يتغيران من حال الى حال والخير والسـلام والعدل تضمر فى صـدور الناس ثم سرعان ما ينمو من جديد .. كل دائرة تدور دورتها المحتومة دون خلل أو كلل .. ونحن البشر فى هذا الخضم القاسىلا نعرف المصير ولا المرقد الأخير ولا لواعج الطيور. فأولى بنا الا تضـل أقدامنا عبر عثرات الطريق ، فالقلب يحن الى الملكوت ، والنفس الواهن مثلى يسـعى الى الوصـول . والرحلة طويلة عسيرة تحتـاج الى الصبر والمعاناة والعمل . فلييسر لنا الله سبل النجاة !!. واختمرت فى ذهنه فكرة الاقامة عند تلميذه القديم . ترى كيف فعلت به حوادث الأيام ؟! . كان رقيق المعشر ، حلو اللسان مرهف الحس والوجدان . فى ملامحه الهدوء وعلى محيـاه سيماء الذكاء والنجابة .. من يوصله اليه وسط هـذه الظلال السوداء ؟ ! وكان يصطدم بجـذع أشجار الكافور ، لولا ستر الله . وطرد بعض الحشرات الهائمة فى الجو ، كانت تضايق أنفاسه . وسار فى طريقه ينقب عن مشتهاه .

انه الحـكيم مملوك ، يعود الى القرية بعد رحـلة مقهورة لم تتم .

وفى آخر الليل قعد العم آدم أمام رماد النار الخـامدة فى قاعة بيته يفكر فى سرور . لم يعرف الطعام الطريق الى جوفـه بالأمس كان زاده القهوة والشاى وقليـلا من الحليب . بدأ الخيط الأبيض الدقيق يتضح فى رأسه : النبى أوصى على سابع جار .. وسرور جارى .. حده فى حدى .. لا تفصلنا الا قناة ضيقة .. عرضها شبران .. عودته الأيام أن يمد كفيه الملهوفتين .. يواسى

جراح المنكوبين .. يداوى المصـــابين .. يقدم الشبع للجائعين .. يتمنى أن يكشط الخوف من على جبين الخائفين .. له فى كل بيت علامة خير ومودة .. وعند كل انسان دليل محبة . رغم انه فقير محتـــاج يعرق ويتعذب كل يوم من أجل الا يجوع ويظمأ ويتعرى هو والعيال . وله عادة لم يتخل عنهــا من ســـنوات ، اذا تكاســـل أو أهمل فيهـــا ، فان أهـــل قريته يدقون بابه ، أو يبحثون عنه فى كل مكان ، فعندما يفارقهم ميت من الأموات فلابد أن يحضر مشـــهده فى الوداع الأخـــير ، يلقى اليه ببعض الأسرار حتى اذا انتهت ســـاعة اللحد كانت يده أول يد تهيـــل التراب ، وايضا فان أهل القرية تعودوا ان يضعوا فى حجره اى مولود جديد ، فهم يستبشرون بطلعته ويتفاءلون بنورانيته .

حومت حوله زوجته وقالت :

ـ اراك مهموما اليوم على غير العادة .

قـــال آدم :

ـ آه ..

قالت :

ـ ما الحكاية ؟

ـ انسان يناضل .

ـ وماذا نستطيع أن نفعل له ؟ !

ـ الكثير .. لكن المسألة تحتاج الى جهد .

همست مشفقة :

ـ تتعب نفسك كثيرا .. فمتى تستريح ؟ !

اعتدل فى قعدته وهو يبحث عن بصيص من رماد النـار الخـامدة :

ـ عندما يستريح معظم الناس .

أضافت مستفسرة :

ـ وهل يحدث ذلك فى القريب ؟ !

غمغم فى فتور وضيق :

ـ فى البعيد أو القريب .. علينـا أن ننجز مهمتنـا .. وما على الله يكون .

وأخذته سنة من النوم ، فأرخى جسده قليلا ، ثم انتفض مذعورا وجهته الخارج .

- ٥ -

وسرور ينكمش فى حجره قرب العشـــاء دق الباب ، هتف وهو ساخط :

ـ مـــين ؟ !

قـــال الطارق :

أنا يا سرور .. هل نسيتنى ؟ !

واهتز لسماع النغمة الواثقة ، هو يعرف الحنين الدافــق فى قلبه اليها ، ولكنــه لم يصــدق . هل صحيح انه الحــكيم مـمـلوك ؟ !

قفز من مرقده فرحا :

ـ مــولاى ؟ !

وجاءه الجواب راقصا :

ـ افتح يا عكروت ! ..

وتعانقا عناقا أبديا كأنهما لم يفترقا لحظة .

وتهدج الحكيم مملوك :

ـ كيف الأحوال ؟

ـ رضا يا مولاى .. لم يكن ينقصنا سوى رؤياك .

ـ واحوال الجـامع ؟

سكت سرور على مضض ، ثم أجاب بنرفزة :

ـ رحمها الله ..

قال الحكيم مملوك :

ـ فليرحمنا الله جميعا .. هل تحاورنى يا ولد ؟ !

ـ لا .. أبدا .. تركت الجامع .

قال الحكيم :

ـ خير ان شاء الله .

وتردد سرور فى الافصـاح عن همومه فهمس فى خذلان :

ـ تشرب قرفه أم ينسون ؟ !

وشملتهما لحظة صمت ، غرقـا فيهـا الى اعماقهما ، قلب سرور يفيض بالشكوى والحيرة والتخليط ، والحكيم يسن عقله ليفهم صفيه بعد الغيـاب . ورمقه سرور من طرف خفى ، وهو يريد أن يلقى بجسـده بين أحضـانه ، يبكى وينهنه كالطفـل الصغير ، يحكى له عن كل ما يجرى ، راى المسبحة الطويلة حول كتفه فدمعت عيناه من الهجران . كان صـدره يلتحف بفروة ماعز أو خروف صغير لا يدرى ! وراء ظهره المخلة الأليفة واخرج

زناده ليشعل سيجارة ، فعاودت سرور ذكرى أبيه وجده والعبودية ، فازداد الحنين الى الماضى وسأل وهو محير :

ـ لم تكن تدخن يا مولاى ؟

قال الحكيم :

ـ ظروف .. كفاك الله شرها .

وقال سرور قبل أن تفلت الفرصة :

ـ واين كانت رحلة السنوات السبع ؟ !

قال مملوك وهو مشتت السريرة :

ـ السيدة والحسين والدسوقى .. وفى بلاد أخرى عديدة أتريد كشف الغطاء ؟ !

وهو يرتشف جرعة « القرفه » امسك دفة الحديث :

ـ قل لى انت يا حظ ؟ !

ـ نعم ..

ـ لم تركت الجامع ؟ !

خطف سرور صوته وهو حسير :

ـ لأنى فقدت الصوت ..

ـ هل ارتكبت اثما ؟ !

ـ أبدا والله !!

ـ ولا معصية ؟ !

ـ ابدا .. ابدا .

ـ غريبة .. اذن هو امتحان عسير .

تبرم سرور متضايقا :

ـ امتحان او غير امتحان .. هذا هو الذى حدث .

ـ والمقدمـــات ؟ !

ـ لم يكن هناك مقدمات .

قـــال الحكيم :

ـ قدر عجيب ..

واراد سرور ان يفضفض عن نفسه :

ـ كان يوما عاديا لم أشـــعر فيه بأى الم . اذنت لخمس صلوات ، ثم اشعلت الموقد انا وبعض الأصـــدقاء ، وجلســـنا نتسامر ، ثم نمت مجهدا بعض الشيء . وكان القلب يشف عن رؤى جميلة .

وفى الفجر قمت فتوضـــأت وطلعت الى المئذنة لأكبر ، فاذا بالصوت يضيع منى فأبحث عنه بجهد جهيد ، اضرب صـــدرى وبما اصابنى ضيق تنفس أتحسس رقبتى ، أخبط راسى ، لكن المحاولات كلها تضيع عبثا .

قال الحكيم مملوك :

ـ وبعـــد ؟ .

ـ ومرت أيام وليال تعيسة ، كانت كل الطرق مســـدودة فى وجهى . فكرت أن أرحل .. لكن الذكريات سمرت قدمى الى

الأرض ، تاقت نفسى الى الوجد القديم الذى كنت قد تركته ، فحننت للعودة اليه وجعلت أفكر فى خيوط النجـاة أينما حللت .

وأومأ الحكيم فى رقة :

ــ وفى النهاية ؟

قـال سرور :

ــ والتقطنى السـيد الفرماوى وانا على شـفا الانهيـار الكامـل .. فقبلت كفى وجهـا لظهر .. حمـدت الله . لكنى يا مولاى ! وأشار الحكيم بكفه العريضة يمنعه من الحديث :

ــ اعرف كل شىء ! ..

وأبرقت السماء فى الخارج . ارعدت أركان الدنيا السبعة فدعا الحكيم .. اللهم ارفع غضبك يا كريم ..

واختلطت أصوات الضفادع الللحوحة المكرورة مع نبـاح الكلاب وصفير الريح . فساد لغط سقيم وقال الحكيم :

ــ قدر أخف من قدر ..

قـال سرور :

ــ صحيح ! ..

وارتشف الحكيم جرعة قرفـة حارة ، فلسـعت لسـانه فتملكه الغيظ ، بصق فى ضيق ثم سأل :

ــ من مات ومن ولد ؟ !

قـال سرور :

ــ كثيرون .. لكن الذين ماتوا استراحوا ..

ـ والذين ولدوا ؟

فزفر سرور محنقا :

ـ اشقيــاء ! .

ورفع الحكيم وجهه الى سقف القاعة متأملا :

ـ بدات تفكر فى السعادة والشقاء .. هــذا شىء لطيف .. دوختنى معك طويلا ..

وشعر بفرصة طيبة للحديث فاستطرد !

ـ طريق السعادة معروف .. وطريق الشقاء معروف .. فالى ايهما المسعى ؟ .

وسقطت ذرات من التراب فى فنجان القرفة . وعلا صفير الريح المندفع من الخــارج ، وتململ فى قعدتــه . ففهم سرور غرضه الخفى على الفور :

ـ لنأكل يا مولاى .. ماذا تشتهى ؟ !

ضحك قائلا :

ـ هل بيننا غير العيش والملح يا ولد .. غذاء المحبين ..

وأومأ سرور موافقا . قام واحضر لقما كثيرة قديمة ، ثم وضع الملح فى كفه وقعد بجواره .

ومد الحكيم يده ، فوجد العيش صلدا كالحجر ، فعبرت ملامحه عن ضيق ، فنهر سرور فى ظرف :

ـ بلل الخبز يا شقى .. أتعرف ان لى أسنانا ؟ !

وبعد فترة ناما على حصير واحدة فى أول ليلة يصــل فيها الحكيم الى القرية .. علا شخيرهما فغطى على لغط الموســيقى وأصبح منسجما معها .

- ٦ -

بعد الحب الأول بجوار السيد البدوى لم يكن سرور قد ذاق طعمه ، لكنه ذات صباح فتح عينيه على وجه حنون يرمقه من بعيد ناداه بنظرة فاستجاب على استحياء قال :

ـ ازيك يا زهر .

ـ صباح الخير يا سرور ..

ولم تسعفه الكلمات من حلاوة المفاجأة فتلعثم لسانه . زهر النفوس بنت بيضة كالبطة ، مثله تعمل عند السيد الفرماوى ، هادئة .. جسدها كقطعة الزبدة البيضاء يشتهيها الصوفى المعذب قبل العاق صاحب الخطيئة ، التفت اليها فجأة . كلاهما كان قريبا من الآخر ، لكنه كان يعرض عنها ، وانزاحت غشاوة عينيه ، فترسم طريق الصواب ؟ ! الحكيم مملوك يدله عليه بوضوح ونقاء وعذوبة وهو يشعر بالرجفة تجتاح كيانه .. لكن من يمنعه عن زهر النفوس ؟ !

ـ ازيك يا زهر ..

ـ ازيك أنت يا سرور ..

وظهر فالج أسنانها الأبيض كشمع عسـل فقال مداعبا :

ـ رزقك كثير ..

ضحكت فى صـدرها من الخجل . بانت شعيرات مفرقها الأسود الفـاحم ، فانتعش داخل سرور تيار اعجـاب وتقـدير للراس الصغيرة . وخـاف من الهوى ، فدارى انطلاقـة روحه الخفيـة الريانة ، حول نظراته . تذكر حبيبه السيد البدوى الأولى ، فعزى نفسه بنفسه ، كان وقتها طيبا ومغمض العينين ولكن يبدو أن الدنيا تحتـاج الى المعاندين فأى عناد يسير على دربه يا ترى فقدان صـوته قطع عليه الجهـاد الأكبر ، منعه من استشراف العالم النورانى ، وها هى قدماه كانتا تغوصان فى الطين فى صراع دنيوى رخيص لا يجد بديلا عنه الا فى الأحلام الضائعة . صـورة السـيد الفرماوى لا تغيب عن خاطره أبدا قفطانه الشاهى يمـلأ الجو ظلالا وخيالات راعشة .. نظراتـه تتراشق عبر الأوقات والأمكنة التى يوجد بها . وصوته البائس.. المغضن الكئيب .. فحيح الافـاعى أرحم منه بكثير .. لا يكف عن صلفه السخيف .. حتى فى اشـد حالات الود الانسانى .

قـال سرور :

ـ لك عندى عقد لولى يازهر ..

همست فرحانـة :

ـ صحبح يا سرور ؟

فح الظل الثقيل :

ـ عال .. عال .. نظرة فابتسامة .. فعقد لولى ..

وحومت بومة فوق راسيهما ، فداخله الغم والهم ، وساورته الوساوس والشكوك ، وأشاح بوجهه عن السماء .

ثم ألقى بحمله فى هدوء :

ـ نفسى ارتاح يا زهر ! ..

مطت رقبتها وهى تشهق :

ـ وانى كمان يا سرور ..

قـال راضيا :

ـ واحط تعبى على تعبك ..

ـ آه ..

وفرحى على فرحك ..

ـ آه ..

ـ واملى على أملك ..

ـ ياريت ! .

وزعق الظل فى الفضاء :

ـ يستحيل .. يستحيل .. يستحيل .. !

قـال سرور :

ـ ونأكل سـوا ..

ـ آه ..

ـ عيش وملح ..

ـ عـين المنى ..

فى الظل ساخرا قرض اسنانه بحقد وريبة :

ـ فى المشمش .

واهتز جسده فى غيظ . كان يريد أن يطرد الأشـباح من حوله . يستدر النجاة خشية الأكدار المحدقة به ، لوح فى الهواء بقبضتيه الواهنتين . ود لو يزعق من أعماقه المنهارة البائسة .. لن أخاف .. لن أخاف .. ولكن الصدى يعاود أذنيه :

ـ لا .. لا .. لا .. !

وانكمش يكتم هياجه وضاعت لحظات الفرحة الصبوح من قلبه . لم يستطع أن يشـكو لزهر أو تشكو له فى اللقـاء الانسانى الطازج ، وكظم حسرته لبعض الوقت ، وفى النهاية صـاح محاولا الخلاص من ضياعه :

بتهنى ليه يا زمن مكنش م الواجب ..

جرت زهر النفوس الى الحظيرة ملهوفة . لو استيقظ احد فى الدوار دون أن تكون قد حلبت الجاموسة ، فنهارها قطران . قعدت تحت الضرع وبين ركبتيها المترد الفخار ، وراحت تحنن الحلمات بأصابعها الحنون شيئا فشيئا ، ثم ضغطت فانشخب اللبن بغزارة ، وتكونت فقاقيـع الزبد الأبيض على السـطح ، ففرحت زهر النفوس كعادة كل صباح ، وتدفقت أحلامهـا مع تدفق اللبن من ضرع الجاموسـة .. حنت أنوثتها مع تحنينهـا للحلمات السمراء ، استوى نهداها هى الأخرى ، يستطيعان أن يدرا اللبن ، وأسبلت عينيها فى اغفاءة لذيذة .. سوف أتزوج .. انجب .. ولد أم بنت ؟ ! لا .. ولد . اسمه محمد .. على . حسين . آه . اسميه شحتة .. شحتة من الله ، وراودها سرور

عن نفسها ، فغطت ساقيها بجلبابها خجلة سعيدة ، كان يريد أن يشكو لها متاعبه وأحزانه . وهى أيضـا كانت تتمنى أن تحكى له عن حياتها لكنـه الغم دائما .. ارتعش أمامها خائفا .. خيرا اللهم اجعله خيرا . وهبت على وجنتيها نسمة لطيفة ، فترددت فى خواطرها امنيات عذبة ، مشحونة بالفرح متى تقطف ثمارها ؟! وقامت تحمل مترد اللبن الحليب ، ووجه سرور يفرش صفحته البيضاء بابتسامة رائقة . شفتاه الرقيقتان تنمان عن كلمـات هامسة لا يريد الافصاح عنها :

ــ بكرة تفرج ..

- ٧ -

في ساعة تجل ، فكر سرور في الهرب . الى أين ؟ ! . . أرض الله واسعة .. المهم الا يخضع للنفس الدنسة . نكد واحتقار وهم كل يوم .. واشراق الله فى كل مكان .. فلم يبعد عنه ؟ ! سيده الروحي يأسره بالرحيل ، ومستعبده الأرضى يضغط على أنفاسه حتى يقضى على رحيقه ، فأيهما يتبع ؟ ! . تغور الدنيا بمالها وبما عليها . السلام .. السلام .. السلام على الأرض . والرحمة .. فى السماء . وليكن لنا فى أنفسنا عبرة ، وفى السابقين موعظة حسنة ، ومنى الروح بأشياء ، فشعت سريرته عن رضى . وتدفقت الآمال فى صدره . كل شيء الى زوال .. ولا يبقى الا وجه ربك ذى الجلال والاكرام ، ووجد الكلمة على لسانه عالية خفاقه .. حى .. حى . الى الجبل يا سرور حيث الفضاء الرائق والأديم الربانى الواسع ، والطيور التى تناجى ، وأيام وليالى الحصاد الغنية .

نحن منها واليها ، فلماذا نؤجل المسألة ؟ ! واحمرت اطرافه بالدماء ، فأخذته قشعريرة المنى والاشتياق ، وطاف بالحصى

والأحجار والسهول ، فاذا البصر لا يجد المدى ، والتمائم السحرية ترقد عند الأفق : أن اقتربوا الى يابنى البشر ، ولا تخافوا ، فعندى بلسم الجراح ، وأمل المنكوبين ، وعزاء المحزونين ، ولتجربوا جرعة أو جرعتين فمياهى رائقة ، ورمالى ناعمة . وأشجارى خضراء يانعة . وشمسى طالعة .

وعاد الى قرف الواقع يجدف فى الأرض دون جدوى ، البقرتان المتعبتان تجران جسديهما فى ملل تضيقان بالذباب الذى يطاردهما ، والتربة تنفلق عن طوب بنى ملحى المذاق وثمة لسان من الهواء البارد يلفح وجهه ، والحشرات تنكمش فى باطن جحورها ، وسط الدفء ، وتظل دوامة المياه فى راس الترعة تدور وتدور فتدوخ العيون فى اللف معها . ويصدح بلبل من بعيد فيتذكر سرور صوته القديم المفقود ، ويجيئه صوت آدم أبو عطيفة هادرا من قريب :

ـ غنى يا ولد غنى .. آه كده .

يقول سرور :

ـ دا مش غنا ياعم آدم ..

ـ أمال ايه يا سرور ؟ !

ـ دا حزن يابا آدم .

ـ وايه الفرق بين الفرح والحزن ؟

ـ فرق كبير طبعا ..

ـ أبدا .. كله بيستوى فى النهاية .

ـ يعنى الضحك زى البكا ؟ ! .

ويضحك آدم من كل قلبه ــ آه ..

وفجأة يتغير لون وجهــه المشرق . تكسوه ظــلال اكتئاب حائرة .. يهمس فى خفوت :

ــ انى كنت بضحك من لحظة مش كده ؟ !

ــ آه صحيح ..

ــ دلوقتى نفسى ابكى .. ابكى من قلبى .

ــ غريبــة !

ــ لا غريبــة ولا حاجــه .. انت لســه صغير .. يابنى لا الضحك دائم والا البكا دائم !

وتنحدر دمعتان كبيرتان على خديه فى هدوء ، ثم يقعد صامتا يغرق فى الذكريات . ويقول سرور :

ــ مالك ياعم آدم ؟

ــ مفيش .. شوية ضيق بس .

ــ اضحك يا عم آدم .. والنبى تضحك .

ويضحك العم آدم كالطفــل . كانت الدموع ما تزال فى عينيه ، والضحك على صفحة وجهه ، ويحاول سرور أن ينتزعه من عالمــه :

ــ صحيح مالك ياعم آدم ؟ !

ــ أحوال يا سرور ..

مشــاكل .. هه ؟ !

يزفر من أعماقه :

ــ لا احــوال ..

ـ أنعس منى ؟ !

ـ أهبـل ! .

ـ أكاد أهرب .

ـ الى أين ؟

ـ الى أن يحط بى المقام .

ـ مشكلتك بسيطة .. حلها فى ايدك ..

ويشرق وجه سرور بفضول : ازاى ؟ !

العم آدم : تعاهدنى على الصدق ؟ !

سرور : اقسم لك .

العم آدم : أكره القسم .

سرور : بشرفى ..

ـ العم آدم : اخلع قفطانك ! .

سرور : لم ؟ !

العم آدم : اخلع ولا تعذبنى ..

وأمسك بدفة المحراث بيده اليسرى ، والفرقلة بيده اليمنى ثم ضغط على السلاح بقدمه ، وأمر البقرتين بالسير .

ـ عا يا بقر .

ومشت الصابرتان تقاومان التعب .. وخرج دود الأرض يسعى فوقهـا ، واشتد لســان الهواء البارد يلفح وجـه العم آدم ، فانتعش يغنى مع اتجاه الريح :

ـ حبيبى عمل سرته مركب وعـداني .. وجه في وسـط البحر وميل ورماني .. ورماني .. ورماني .

وبالقرب منه وقف سرور يرتعش بعد أن خلع قفطانـه الشاهي القديم . كان العجب لا يزال يلعب بعقله ، ففي بعض الأحيـان يشرق وجهه بفرح طفولي حتى يظن من يراه انه لم يعرف النكد ابدا ، وفي أحيـان أخرى يشف وجهـه عن حزن بلوري رقيق . وكثيرا ما يختلط حزنه بفرحة فيملأ النفس حيرة وقلقا . يوصيه العم آدم بخلع القفطان وان الأرض لله وحده ، وأن لا يفتم ، ويتهمه بالسذاجة ، ثم يجده في أروع لحظاته الآن حين يمسك بيد المحراث ويغني ويحلق في الخيال . قدماه في طين الأرض ، وروحه في السـماء . لقد علمه سيده الحكيم الصبر والتفكير والهرب من الدنيا . اما هـذا العملاق الذى خرج له من باطن الأرض ذات صباح ، فهو يحـاول أن يدرب يديه وذراعيه وقدميه ، يحثه على الاقدام واليقظة والمجازفة . يرى في عينيه بريق الشجاعة والوفـاء ، وفي راحتيه الخير والراحة بعد العناء، فما حكايتك معه يا سرور ؟ !

وانتفض من تأملاته على صـوته الحاسم يسلمه يد المحراث هاتفـا :

ـ امسك يا سرور .. هذه شغلتك .. لا تفرط فيها ابدا .

- ٨ -

وفى صباح اليوم التالى كانت النشوة تملأ الكون ، أجنحة السعادة المرتقبة ترفرف حول سرور . لقد رأى فى منامه حلما مطمئنا ظل طعمه فى صـــدره فترة طويلة ، لا يتذكر تفاصيله كلها لكنه يشعر بالرضا عما بقى فى خواطره من ذكراه . سيده الحكيم مملوك والعملاق آدم يباركان خطواته يقران بطيبته ونقاء نفسه ، احتضنه الحكيم وهو يقرأ بعض الأسرار ، بارك الله فى الدنيـــا والآخرة . واحتضنه العملاق .. نصرك الله على عدوك ، وشـــد من صلبك ومتعك بالصحة والعافيـــة تعيش الحياة حلوها ومرها على السواء . وقبلاه معا قبلة الوداع ونفض الغطـــاء من على جسده فاستيقظ سعيدا ، طعم السكر فى فمه . انه الآن يداعب الحيوانات ، يشعر بالجوع الشـــديد فماذا يعمل فلابد ان يأكل. لم يقتنع بما تيسر ، فنزل الى البرسيم وجمع حزمة كبيرة من السريس ثم عرج على البسلة المبكرة فملأ حجره من قرونها ، واخرج منديل عيشه وقطعة الجبن القديمـــة شعر بمرارة .. كيف كان يقتنع به كل يوم ؟ ! وتذوق طعم الخلطة التى صنعها بيديه فخيل اليه انه لم يذق مثلهـــا فى حياته . بقايا الحلم السعيد

فى صـــدره والطعام فى معدته . فماذا يتمنى ؟ ! آه .. لو يذهب السيد الفرماوى وأمثاله الى الجحيم لاستراحت منهم الدنيــا الى الأبد يملئونها بالحقد والظلم ومد بصره الى احد الدروب الموصلة الى الحقل ، فاذا روائح الحلم تهرب من خــاطره .. وتيار النشوة يودع للرحيل ، فثقيل الظل قادم يخب فى ملابسه، يحاول سرور مقاومة ضعفه واستسلامه . فى أعماقه أطياف تحد ، وعلى وجهه استياء واضح ، ويقف السيد الفرماوى على الترعة، فيجرى اليه سرور كالعادة ، يقول السيد : انتهيت من الحرث ؟!

ـ باقى مساحة صغيرة ..

ـ كسول .. ثلاثة أيام و .. البهائم متعبة .

ـ امامها البرسيم .. فلم لا تأكل ؟ ! ..

ـ كبرت فى السن ..

ـ لمـاضة ..

تجاهل وجوده بعض الوقت . قعد على أحد الأحجار واشعل سيجارة ، ثم وضــع فى فمه شــيئا يمضغه ورمى ببصره الى مساحة الأرض أمامه راضيا .. هــذه الأرض لنا . يحسدوننا هــل يعرفون الشــقاء الذى تحملنــاه فى سبيلهــا ؟ ! . كان جــدى عصــاميا حقــا : ريس أنفــار بسيط أحبــه الخــديو أيام كان يســوق الآلاف ليصــلح هــذه الصحراء الجافــة ، فليرحمـــه الله ، كان يحب النشــاط والاخـــلاص والجــد . اضحــكه جدى فى مرة فانسر منــه ، ثم انفتحت أمامــه أبواب الرزق . كانت فى يد الخــديو عصــا ابنوســية نادرة ورثهــا عن أبيه ، فوقعت منه على الأرض فأسرع جدى يلتقطها ، وقلد حركة الكلب فى التقاطها ، عضها بأسنانه ، ونهنه بضعف كالجوعان، فأشفق عليه الخديو ، ثم أحبه وأمره أن يصاحبه فى رحــلاته

حاملا المظلة ، على أن يكون له من الأرض ما يشاء . ومات جدى من ضربة شمس حامية فورثه أبى ، وبمرور السنوات كانت الأرض الخضراء تزداد اتساعا ، واشجار الفاكهة تنمو وتزدهر ، والفلاحون يهاجرون من القرى والبلاد المجاورة الى الأرض الجديدة . وكان أبى أسعد حظا من جدى كما انى اسعد حظا من أبى ، فقد استقر فى دوار كبير فيه البهائم والخدم والحريم . ومات الخديو ومات أبى وفرشت الخضرة الصحراء..نمت أشجار البرتقال واليوسفى والمانجو والعنب.. وزرع البطيخ والفراولة وبقية الفواكه .. وهأنذا اجاور الأمير الصغير متحابين متفاهمين . لا شىء يعكر صفونا الا هؤلاء المعاندون لا يكفون عن الشكوى والأنين ، يشكون ، لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب .. يسوفون فى الايجار .. وعلى آخر الزمن يجىء القزم المنكود سرور ليتمرد ، ويتخابث فهل أستكين له ؟ ! .

ــ انه صلف يحتاج الى الترويض ، مرة بالشدة ، ومرة باللقمة واخرى بالخداع .

وافاق قائلا :

ــ ضيعتنى يا سرور ..

ســاكت ؟ ..

قال سرور وجلا :

ــ قضاء وقدر لا نستطيع أن نرده ..

قـال السيد :

ــ بل هبل ودروشة .. فمتى تفيق لحالك ؟ ! .

ـ قريبا ان شاء الله ..

وفى سره :

ـ خلعت القفطان ! ..

ـ السيد :

ـ وتصبح فلاحا اصيلا ..

ـ حاضر ..

وبينه وبين نفسه :

ـ وعرفت طريق آدم ..

السيد :

ـ الأرض تحتاج للرجال ..

ـ حاضر ..

وفى أعماقه :

ـ لم اعد أستطيع الصبر ! ..

ـ شبعت .. لا اقوى عليك ! ..

وفجأة :

ـ اياك وآدم أبو عطيفة ..

سرور :

ـ رجل طيب ! ..

السيد :

ـ قرفته وحشة .. كلمة منه تعكر بحر ..

سرور :

ـ انى فى حالى وهو فى حاله ..

وفى سره :

ـ احسن جار ..

وقفز على فرسه متوعدا :

ـ على العموم انى نصحتك .. والأيام بيننا ! ..

ووقف سرور ضائعا .. لو يضرب الهواء بذراعيه حتى تضيع دوامة الكدر والوجوم التى خلفها السيد الفرماوى .. كليب النفس .. نحس الخطوات .. ليته لم يره فى هذه الساعة.. طار الحلم من رأسه ..

وسحت السماء بعض الرذاذ فتفاءل خيرا . شعر بتباشير الشتاء اللذيذة ، وهو صغير كان يحس الدفء فى ماء المطر يجرى هو وأصحابه فى القرية يلعبون . يتفرجون على قوس قزح ذى الألوان الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء يعرضون أجسادهم للشمس بعد المطر ، ليت الطفولة تعود ، وضعوه فى قالب قبل أن ينضج تحمل المتاعب وهو صغير ، وتطلع ناحية الشرق فرأى آدم يعزق أرضه ، وهفت نفسه اليه فخطا اليه باشتياق ..

كانت قطرات العرق تلمع على جبين آدم ووجهه الغض العجوز ، يداه الصلبتان الرقيقتان تهويان بالفأس فتنشق التربة تحت الضربات فى بعض الأحيان يضرب بقوة ، وفى أحيان أخرى بلين ، فهو يعرف خبايا الطوب والرمال ، وليس بالقوة وحدها

يستطيع ان ينتصر على الأرض وتنفس بعمق من صدره هواء نقيا لطيفا مشحونا بأفراح مجهولة ، تطلع الى سرور وهو يبتسم من بين اسنانه المتكسرة الســوداء ، وخفق قلبــه راضيا . جاءه سرور ساعيا .. وذلك مراده فمنذ أن التقى به وهو مشــغول بأمره .. ترى ماذا يخبىء له من انباء ؟ ! .

وضرب الأرض بعنف فانفلق الطوب بين يديه مستسلما .

وقال وهو يجفف حبات العرق على جبهته :

ـ خير يا سرور ..

ـ خير يابا آدم ..

ـ خطوة عزيزة ..

ـ فى نفسى من زمان ..

ســأل آدم :

ـ ماشــيه ؟

قــال سرور :

ـ بأنفاسك ياعم آدم ..

- ٩ -

واشتد الرذاذ ، فتحول الى مطر ، ينذر بشتاء قارس مرير. وحومت بعض الغربان فى السماء تبحث عن مكان تحط عليه ، وعصفت ريح غريبة . فجعل العم آدم متشائما ، ريح ومطر وبرد دفعة واحدة ، وسرور يبحث عن حل لمشاكله . اذن لا فائدة ، فليستكن فى بيته . ودخلا معا الى القاعة . أشعل النار بعد أن وضع براد الشاى فى وسط الحطب ، وتصاعد اللهب يبعث الدفء فى قلب الشتاء البارد ، فانتشى سرور من الدفء والمودة.. صمم أن يفضفض عن نفسه من غير خوف ، ولكنه لا يدرى من اين يبدأ ؟ ! .. وكيف ؟ ! .

قال سرور وهو يرتشف جرعة من فنجان الشاى :

ـ ازيك يا عم آدم .

قال آدم وهو يمتص اصبعه من اثر لسعة النار المحرقة :

ـ الله يسلمك يا سرور ..

واضاف ..

ـ عامل ايه مع الفرماوى ؟ !

قال سرور وقد شعر بأن جرحا بداخله يكاد ينفجر :

ـ آهـه . ماشيه .

ـ يعنى مرتاح ؟ ! .

ـ يعنى .

ـ يا سرور .. ادينى سرك .. اديك سرى ! .

هتف سرور بصوت عال ، مشحون بالانفعال :

ـ نفسى يابا آدم ..

قـال آدم :

ـ امال ايه اللى حايشك ؟ ! .

قال سرور والدموع تكاد تطفر من عينيه ..

ـ تعبان يابا آدم .. تعبان .. تعبان ! .

قـال آدم :

ومين فى الدنيا مستريح يابنى ! .

سرور :

ـ لكن انى خلاص .. خلاص .. خلاص .

ضحك العم آدم بسخرية وهو يخبطه على كتفه :

ـ خلاص يا سرور . هو أنت شفت حاجة ..

وقال وهو يمتص أصبعه المحروقة :

ـ طيب فيه كلمتين اثنين بس .. تسمعهم .. والا بلاش.

همس سرور مشتاقا :

ـ يا سلام يابا آدم .. هو انى أشبع من كلامك ابدا ..

قال العم آدم ، وعيناه مصــوبتان الى عينيه :

ـ الطريق قدامك طويل ..

قـــال سرور :

ـ انى خلعت القفطان ..

قـــال آدم :

ـ مش كفايه ..

ـ ايه كمـــان ؟ ! .

قال آدم :

ـ تشد حيلك .. وتفتح عينيك كويس .

وسقطت بعض ذرات الرمل من سقف القاعة ، وعلا صفير الريح بالخـــارج ، وانفجر الرعــد والبرق فازداد التشـــاؤم فى قلب آدم .

فى البداية كان يستبشر بالمطر الخفيف الذى يفيد الزرع ، وينعش الروح الراكدة ، أما الآن فان الدنيا تقلب بغم . حقـا انه يقول فى سره ، اشتدى يا أزمة تنفرجى .. ولكنــه يدرك بحاسته الغريزية ما بعد المطر والبرق والرعــد من أحوال . المرض يزداد وجيبه فى جسده ، والرقاد الأبدى ينتظره .. ولكن يستحيل أن يستسلم .. فما زال فى العمر بقية .. ولن ترى

يا عينى أكثر مما رأيت .. لن تتحمل يا آدم أكثر مما تحملت فاشتدى يا أزمة تنفرجى !

وصفق بيديه فى مرح دافق وهو يقول :

ـ قـوم ..

قـال سرور :

ـ نروح فـين ؟ !

قال آدم بعصبية واصرار :

ـ قـوم بقولك .

وطلعا الى الخارج يرتجفان .

وهلل آدم بصوته الجهورى الفياض :

ـ ولا يهمك الدنيا للرجالة .. للجدعان ! .

وانحنى يلتقط الفأس ليواصـل العمل . وعادت حبـات العرق تلمع فى جبهته .. دب .. دب .. دب .. ووقف سرور بعيداً يرتعش من البرد ، لا يدرى ماذا يفعل ! .

وقرب الظهر كانت الشمس تشرق من جديد تنشر دفئهـا اللذيذ وعاودت الطيور التحليق فى السماء الصافية . وتطاولت البقرتان تمضغان البرسيم بنهم . وكان سرور لايزال يفـكر فى العم آدم . ماذا ينوى معه ؟ ! رحب به ، عمل له الشاى ، وأبدى المودة . فلما حان موعد العمل انتفض لا يعبأ بالمطر والبرد . ليته مثله لا يتأمل فى كل شىء ، ويحوم ببصره حول الأرض . وتمتم فى خاطره .. انها تحتاج الى الذراعين القويتين والنفس

الطويل . وشعر بعطف نحوها لأول مرة .. من يحنو عليها غيره . تحملت عشرات السنين منذ ان كانت صحراء تنجب كل يوم ثمرة أو زهرة أو ساقا جديدة ، غذاء للفم او رؤيا جميلة للعين ، أو تذكرة طيبة للخالق .. وانكر على نفسه الكسل الضيق والترفع وشمر جلبابه ، وبصق فى كفيه كالعم آدم وبسمل واجتاحه حماس كبير .. وصمم أن يستغرق فى العمل .

وعن بعد لمح زهر النفوس قادمة اليه تحمل له الطعام على راسها . فرح فى أعماقه ، فسوف ينفرد بها هذه المرة بعيدا عن الأعين . وكان قلبها هو الآخر يجهش من الخوف السعيد ، وضعت المشنة قريبا منه ، ثم قالت :

ـ الأكل اهه .

قال :

ـ ربنا يخليك يا زهر ..

ـ ويخليك يا سرور ..

ـ آنى مش عارف أودى جميلك فين .

ـ لا جميل ولا حاجة .. ربنا .. ربنا يطمنى عليك على طول .. وأسرعت تلف طرحتها على وجهها وهى تقول :

ـ آنى ماشيه بقى ..

ـ ماشيه فين ؟ !

ـ مروحه ..

قال وطيف العم آدم يغازله :

ـ اقعدى يابت ..

هزت راسها بدلال :

ـ لا .. أصلهم زى ما انت عارف ! .

خطا اليها حتى لا تفلت منه الفرصة :

ـ لا أصلهم ولا فصلهم .. احنا .. لازم .. لازم ..

قالت زهر النفوس :

ـ مش وقته .. بعدين ..

قــال سرور :

ـ يابت اقعدى .. ضرورى نأكل سوا ..

قــالت :

ـ ماقدرش .. يالهوى ..

الح فى الرجاء حتى يشبع دلعها :

ـ والنبى يا زهر تقعدى ..

قــالت :

ـ وبعــدين ؟ !

قــال :

ـ ولا قبلين .. حناكل لقمة عيش سوا ..

واذا كنت شبعانة ؟ !

قـال :

ـ عشان خاطرى لقمة واحدة بس .. لقمة واحدة ..

خطت الى الوراء ، عازمة على العودة ، ثم قالت :

ـ مقدرش استنى .. والنبى ما اقدر ..

تقدم سرور منها خطوات .. تمنى أن يلوى ذراعهـا حتى تستكين له . سرى الدم فى عروقه . اعترته نشـوة داخليـة حارة . تلعثمت الكلمات فى فمه ، قال :

ـ طب بلاش تاكلى .. اقعدى بس .. اقعدى ..

قالت زهر النفوس :

ـ شوية صغنططة ..

قـال سرور :

ـ صغنططة خالص .. خالص ..

وافسحت لها مكانا خاليا من الطوب والقـلاقل ، وأحكمت طرحتها على نصف وجهها ، مختلسة النظرة اليه بين الآونـة والأخـرى ..

وفجأة قال سرور :

ـ أنت جايبه بصل برضه يا زهر ؟ !

ـ آه .. ماله البصل .. شين ؟ !

ـ لا أبدا .. دانى بحبه ..

همست بدلع خفى :

ـ بالذمة تقول .. مش عاجبك البصل ؟ !

هتف فرحـا :

ـ لا والنبى .. كل حاجة تجيبيها تبقه حلوة من ايدك !.

قـالت :

ـ لا .. انت عاوز لحمة .. مش كده برضه ..

صمت بعد أن تحلب ريقه قليلا ، ثم همس بيأس :

ـ يعنى ..

قـالت :

ـ مش كده برضه ! .

قـال :

ـ انت كلتى لحمة النهاردة ؟ !

قـالت :

ـ لا ..

قـال :

ـ خـلاص .. ما دام مكلتيش أنت مش عـاوز آكـل انـا راخر !

قـالت :

ـ يا عفريت ! .

ـ يا عفريتـة ! .

وظللتهما سحابة بيضاء رائقة ، كالقطن المندوف . وحطت

بالقرب منهما يمامتان تتلاغيان ، واشتاقت نفساهما الى البوح، فتبدد القلق من قلبيهما . وانشقت السماء عن طاقة من الأمل المفتوح . ودنا طير يقبل المياه بجوارهما . خفضت زهر النفوس نظراتها الى الأرض ، وقالت :

ـ دابره تأكل كل حاجة .. بس ! .

قـال سرور :

ـ واقفين لنا زى العقلة فى الزور .

قالت زهر النفوس :

ـ دانى خلصت منهم بالعافيه ! .

ـ ازاى ؟ !

ـ ماكنتش جايه ! .

ـ وبعـدين ؟ !

ـ قلت لهم لابد أطلع ..

ـ وأبو لسان فرقله .. قال ايه ؟ !

قـالت زهر :

ـ برطم وشـتم !

والسـت ؟ !

ـ هى اللى حنت !

ـ كان ضرورى تيجى يا زهر .. مش كده ؟ !

ـ ضرورى يا سرور ..

قـال سرور :

ـ طب ناكل لقمة واحدة بس مع بعض ! .

ـ قالت زهر النفوس .

ـ يعنى ده يرضيك .

قـال سرور :

ـ يرضينى ويفرحنى .. ويسعدنى ! .

واقتربت بجواره . قطعت لقمة من الرغيف ، ثم غمستها بالملح وقالت وهى تضعها فى فمها :

ـ هه .. مبسوط بقى .. اهة ..

وزقزق قلب سرور طربا . غنى منتشيا سعيدا ، لا يسعه شىء فى الدنيا . احس بأنانيته الضائعة على غير توقع . لقمـة واحدة كفيلة بأن تملأ صـدره بالثقة والاطمئنان وبشرى المستقبل وشجعه وجود طيف آدم محلقا فوقه ، فازداد تفاؤله واصراره على لحظات المودة . تملى وجهها ، فأشاحت بخجل ، فمالت نظراته معها كالطفل الجوعان حين يبحث عن ثدى أمه سـاعة الرضاعة ، يريد أن يشرب من ظرفهـا وعسلها حتى يشبع .. لكنها لم تمهله طويلا .

قامت ملهوفة .. « خائفة » قالت :

ـ خلاص يا سرور .. كفاية كده !

وارخت طرحتها على وجهها ، ووضعت المشنة على راسـها وهمست :

ـ اقولك مع السلامة بقى .. مع السلامة !

وتتبعها سرور بعينيه الى آخر الطريق حتى اختفت تماما ، ثم خفق قلبه مبتئسا ومشتاقا ، ورائحتها لاتزال تعطر روحه .. يأخذ شهيقا عميقا ليسترجعها .. وهمس لنفسه مرتاحا :

ـ آه يا زهر ..

قبيل الغروب كان قلب سرور مشحونا ببقايا لقاء زهر النفوس يطويه موج اثر موج من الأحلام المزدهرة يسبح بينها فخورا راضيا .. لكن أرجوحة الخطر لاتزال تتجاذبه .. متردد .. خائف .. كلما تقدم خطوة تراجع خطوات .. حتى ذلك اللقاء مع زهر النفوس الذى شع فى لحظة ما ، لم يدم طويلا .

اختطفوا منه اشراقة الهناء . خنقوا المنى . والحكيم مملوك يستحثه على التحليق واجتياز الهموم الصغيرة . والعم آدم يريد أن يثبت قدميه فى الأرض ، يرفع راسه الى السماء ، يطرد عنه الأشباح والوساوس والظنون .. ينفخ فيه من روحه المقدامة الجسور . اما صاحب السحنة العجفاء فمن تقاليده أن يطحن الآخرين ، ومن مزاجه أن يذل الناس .. ولا فائدة فلابد من العودة اليها .. سوف تضغط على أنفاسه وروحه السقيم .. ولابد له من القوة والصبر والعناد حتى يزيح كابوسه السخيف .. فياسرور ، أيامك القادمة تحتاج الى الجهاد والمعاناة .. لا تدرى ما تخبئه لك من مفاجآت .. عليك وحدك يتوقف نضالك .. بيدك وعقلك تتغلب على الصعاب . فى الماضى كان صوتك يساعد على حل المشكلات ، يفتح لك الأبواب بمجرد سماع خطواتك فى الطريق ، ففى صدرك كانت ترقد آيات العفو والثواب ، وعلى لسانك ينساب نهر العطف

والمغفرة .. شفت نفسك فشف جسدك ، فأصبح وزنك كريش النعام .. خفيفا .. معطرا ، لك رائحة المسك . أما الآن فانك تجدف عبر بحر من الظلمات ، تلطمه بكفيك وقدميك دون جدوى ، ترنو الى خيوط النجاة .. حتى اذا اقتربت منها وكدت تمسكها .. فرت محلقة الى ملكوت آخر .. الآن تغشى عينيك خيوط العنكبوت السخيف . لا تدرى أين شفاء النفس بين تراكم وشقاء الجسد المتعب . وكنت فى غنى عن كل المآزق أيام كنت فى ركنك الصغير بالجامع ؟

وسار مثقل الروح والجسد الى غير اتجاه .

- ١٠ -

فى جوف الليل ندت آهة عميقة عن قريتنا .. فجأة اتشحت بغلالة الموت الكئيبة مرة أخرى .

فمنذ أيام ودع الدنيا شـاب لم يستمتع بالحيـاة بعد ، وبعده مات مريض ظل فى فراشـه سنوات .. أما الليلة ، فان الشرخ الذى أصابها يهزها من الأعمـاق . هو العجوز الذى يعرف أسرارها منذ أن كانت طفلة تحبو على كفيهـا ، لا تعرف من أمورها شيئا . صـديق آدم أبو عطيفة الوحيد .. عاشـا معا ، حزنا معا ، فرحا معا ، كسرا الأحجار فى الجبل للبناء . حملا الرمال على كتفيهما لردم المستنقعات ، اقتسـما الرغيف الواحد .. شربا من كوب واحد .

استيقظ الرجال والنساء والأطفـال ، يساهمون فى الحزن، طلع اثنان الى الجبـل يحفران القبر ، وذهب آخران يجهزان الكفن . لم يكن الحزن زاعقا ولا ملولا ، بل رقيقا وهادئـا مثل الميت فى أيامه الأخيرة . أخذ نصيبه وانتهى .. وكان فى صدره أمنيات لم تتحقق ، فأودعها أبناءه وأحفاده .. وترك وصية عمره

مكتوبة على الجدران والأسقف والأشجار وفى جبين السماء .. كافحنا يا أولادنا بشرف واخلاص .. ونرجو ان تواصلوا الرحلة بعدنا .. أقوياء واطهارا ولا تغرنكم المظاهر والكذب الأجوف .. عشنا فى زمن كله ضجيج وقهر .. فلم نخدع ولم نقهر .. ورغم ضيق ذات اليد .. وقلة .. العافية .. ولا اريد أن أعظكم .. فما أسخف الحكم والمواعظ فى وقت يعتمد كل انسان على حل مشاكله بذراعيه ! .

وفى الصباح مددوا جسده على الفراش .. سقطت عليه أشعة الموت ، فأضاءت جبهته بنور أبيض شفاف . وكان آدم يقعد عند راسه صامتا .. الموت يسفر عن وجهه بصفاقة .. يتحدى ، قال لنفسه .. هل من مهلة وجيزة .. سرور يخوض فى الوحل .. وزهر النفوس تحقق سعادتها .. الناس الفقراء لم ينالوا حظهم بعد .. وانا نفسى لم أشبع من الدنيا الجديدة.. أريد يوما كقطعة القشدة .. لا مشاكل فيه ولا عذاب .. صاحب العمر الوفى مات .. فمن يعوضنى غيره ؟ ! وأمسك يده ، فشعر ببرودة الموت فخفق قلبه من الخوف . كان يدعى أن الموت لا يخيفه .. ولكنه الآن قطعة حية من نفسه وقلبه وعقله .. يعجز عن عمل شيء لاستردادها . يحاول أن يقاوم اليأس والمرارة والضياع ، ليس له حيلة الا الصبر .. وتطلع الى الوجه الأصفر المتغضن أشاح سريعا .. ثم هتف بضيق :

ـ خلاص يا رجاله ؟ !

قال الرجال :

ـ خلاص ياعم آدم ! .

حملوا الميت الى الداخل ، ثم اخرجوه بعد فترة يلبس ثيابه

البيضاء الأخيرة ، ثم أراحوه فى النعش بعد أن صلوا عليه وساروا ..

وعند الضحى خرج آدم أبو عطيفة من باطن التربة ، مغبر الوجه ، يحبس كمده فى صدره ، لم يفق من الصدمة بعد ..

وفى لحظة الوداع الأخيرة عجزت مقاومته فانفجر يجهش بين أيدى الفلاحين .. كان الميت آخر أصدقاء العمر .. وطوال النهار ، والسماء تكتظ بالسحب السوداء تشرق وتغرب ، حبلى بالمياه ، وهو يتمنى أن تفيض معه غضبى حزينة ..

وفى الليل التقى سرور مع العم آدم . كان الفلاحون يجلسون القرفصاء أمام بيت الميت . قعد صامتا يراقب حزنه من بعيد . لكنه عندما التقت عيونهما .. شعر بأنه يناديه ، فقام الى جواره ، وقال :

ـ البقية فى حياتك ياعم آدم .

ـ وحياتك الباقية ياسرور .

وقال قريب للميت :

ـ شكر الله سعيكم يا رجال .

قال الجميع :

ـ غفر الله ذنبك .

وتحولت الآذان الى المقرىء الفقير الذى جاء يقرأ متطوعا . كان صوته « أجش » يسحب حباله بصعوبة ، يتحشرج ويضمر ، ويكاد يفلت من ارادته ، فيطلب القرفة واليانسون والكراوية ، ثم يعود الي المحاولة من جديد .. يمد ويغن على طريقته الخاصة،

فتخرج المقاطع مبتئسة مكسرة تعبر عن حاله .. تنعى وتستعطف .. والحاضرون يسبحون معه فى نهر المرارة الضائعــة .. وبرد الشتاء وظلامه والليــالى القديمة الكابيــة تخيم فوق أفقهم ، فيزدادون رغبة فى اجترار الصوت الحزين وترنيماته .

وجاشت الذكرى فى صــدر سرور .. فى المــاضى كان نجم هذه الليــالى .. ينساب صوته الذهبى .. يتركه على طبيعته ؛ تتخلله عروق الأسى والتمنى والخلاص .. لا ينسى الذرى التى كان يصل اليها فى تحليقه .. يرتقى ويســمو فى مدارج الرضى والوجد والحب .. لكنــه الآن مكبل اللسان ، مغلول الروح ، محبط النفس يتوه فى الصراع ، وعلى عادته اشتاق الى مملوك الحكيم . هو الذى يفهم سره ، يعطيه البلسم والترياق ، ولكن مملوك فى الخلوة لا يفيق ، يظهر ســاعة الأكل والشرب فقط .. يمد يده من خــلال الكوة .. ثم يعود للاحتجاب بالأيام . وتطلع الى وجه آدم بجواره . كانت الندوب السوداء تغطى صفحتــه البرونزية .. وعيناه الضيقتان تبرقان فى الظــلام كعينى الصقر العجوز .. رقد انفه فى طيبة واستسلام ، واختلست أذنــه صوت انفاسه الصــاعدة الهابطة المتعبة ، فشعر نحوه بالحب العميق . وكان صــوت المقرىء الفقير قد اشرف على النهايــة ، فتململ الجالسون ، وأومأ العم آدم فى اذنه :

ــ تقرأ شوية يا سرور ؟ !

تعجب سرور وهو يقول :

ــ ازاى ؟ !

قال العم آدم :

ــ زى الناس !

ـ يستحيل !

ـ صلى على النبى بس .

قـال سرور :

ـ مقدرش ابدا .. ابدا .

ـ جرب ..

وعندما ساد الصمت ، قال العم آدم :

ـ سرور حايقرأ ربع يا رجالة .

تمتمت الشفاه باستغراب .. كيف يقرأ سرور .. حنت قلوبهم الى الصـوت القديم العذب الذى أشجاهم وأبكاهم .. انساهم همومهم ومتاعبهم الصغيرة .. حلقوا معه فى عالمـه المشع الرحيم ، كانوا يرفعون أكفهم الى السـماء داعين أن يفتح الله عليه . ومن تلك الأيام لم يتألقوا فى مجالسهم . أصبحوا يذهبون الى المـأتم من باب الواجب ، ويقيمون ليـالى النذور من باب الوفاء . شحت متعة النفوس ونشوة القلب ، وراحه الضمير .. بخروه ورقوه مرات ومرات قبل أن يفقدوا الأمل من عودة صوته. فلماذا يثير آدم عواطفهم الدفينـة بطلبه . قد تتحقق المعجزة رغم أن زمن المعجزات قد مضى . وتيقظت سرائرهم لاستقبال الأمل . وسكت سرور منكس الرأس .. يحبس كدره فى داخله لا يستطيع أن يعصى لآدم أمرا ، ولكنـه يخشى عواقب المغامرة الطائشة ، وبسمل فى سره ثلاث مرات ، ثم قرأ الفاتحـة وبعض آيات من سورة يس ورفع جبهته المضيئة اليهم فى شبه سؤال صامت وجل :

ـ اقرأ يا رجالة ؟ !

وغمرته العيون بالحنان .. شجعته الألسنة .. حركوا فيه دفائن المـاضى . فانتفضت حبـال صـوته مشتاقة . شـعر بجسده كله ساخنا كأن به حمى . أحضروا له القرفة فارتشف عن غير وعى جرعتين . واصابته شرارة الحياة المفقودة للحظات . راح يجدف فى عالمـه ضد التيار ، تخونه قواه وعزيمته والسر الالهى العظيم .. ضاعت الانتفاضـة كنجمة ارتعشت فى السماء للحظة ، ثم خبت فجأة .. خمد الصـوت مرة أخرى .. وعاد كدر الفلاحين بظلام الليل بمنـابع الألم والجراح القديمـة تشمل الكون ، تلفه بسكون غريب ، وعندما شارفت ليلة المـأتم على النهاية ، كانت ذراع العم آدم تحتضن ذراع سرور ، وهمس له فى أذنه بحنان :

ـ لا تفتم .. كله يهون .

- ١١ -

وفى قاعته لم يغمض له جفن ، شعر بالهزيمـة تسرى فى دمائه كالشياط ، حرضه العم آدم ولم ينفعه .. تركه يواجـه نفسه بنفسه حتى تتحطم روحه وكأنه يسعى الى اذلاله وتعريته أمام الناس . واعتزم أمرا فى خاطره . لابد أن يفر من سلطانه . فهو يريد أن يغرقه فى بحره . وتجسد الشـك فى راسه كالجيفة ، فبصق متضايقا .. وهبت نسـمة هواء ، فأطفأت مصباحه ، فلعن الليل والحزن والشتاء . وسمع طرقا على الباب ، فهب مذعـورا .

ـ مـين ؟ !

قـال الطارق :

ـ أنا يا سرور .. هل نسيتنى ؟ !

وتدفقت حزم البهجة الى قلبه كقطع السـكر . وهتفت سريرته .. يارب لا تنس عبـدك . ارتمى فى أحضـانه يبـكى كالأطفال .. وبمجرد أن فتح الباب . بللت دموعه شـعيرات ذقنه البيضاء . وتهدج الحكيم من التأثر والانفعـال ، فأشرق

وجهه بالطيبة والألفة والصفاء ، ونمت تقاطيعه عن رضى ما بعده رضى .. قال :

ــ ما الحكاية يا سرور ؟ !

لكن سرور ظل ينهنه ليفرج عن كربته وهمومه .. شبع من الحضن الدافىء الحنون ، منذ سنوات وهو بعيد عنه ، يشتاق اليه كلما ضاقت به الأحوال .. هو سلواه واساه وعذابه وقلقه فى آن واحد . يتذكره حين تمسه لفحة برد أو نسمة صيف .. وعند منعطف أحد الدروب الموحشة .. فى تأملاته الصغيرة وهواجسه وظنونه ، فى أحلامه الحزينة والمفرحة .. فى مياه الترعة .. وعلى فروع الأشجار .. فى سقف قاعته المعتمة . وعلى صفحة الحقول . الممتدة الخضراء . ومع هذا فيستحيل أن ينسى آدم أبو عطيفة .. فجر فى رأسه طاقة عنيفة أشبه بالبركان الذى ينحت من باطن الأرض اللآلىء والأحجار والأسرار والأفراح المزمنة العتيقة .. لا يعرف المواربة والتدليس ولا الخداع . ما فى قلبه على لسانه ، ما على لسانه يحوله الى يده ، ويده لا تعرف المن والأذى .. يا شقاءك يا سرور بين طاقة آدم وحنين الحكيم مملوك .. وكفكف عبراته فشفت عيناه عن كنوز من الوفاء لأيامه كلها . الحكيم مملوك ينتظر ويفكر ، يضرب أخماسه فى أسداسه . ترى ما الذى جرى للولد ؟ هل حدد الطريق ، أم انه لايزال تائها عبر دروبه ومسالكه ؟ يعانى أزمة مؤقتة سرعان ما يجتازها عندما يعود الى حالته الطبيعية .. ولكن لا بأس على كل حال ، على الا أضغط عليه .. يستحب ان يحكى لى هو بلسانه ، وقال يعبر عن نفسه :

ــ لا فائدة من التعب يا سرور !

همس سرور :

ـ اريد ان اشعل المصباح !

ـ اشعل كما تريد .. ولكن ما الفائدة . ؟ !

ـ حتى نعمل الشاى .

قــال الحكيم :

ـ احدثك عن نور القلب ..

قــال سرور :

ـ نور القلب وحده يا سرور .. وكل شيء بعده هباء .

واضاء القاعة شعاع باهت ، لم يره الحكيم الا كالأشــباح الراقصــة .

واحضر سرور بعض اعواد الحطب ، ثم اشعل النار ، ووضع براد الشــاى بين الجمرات الملتهبــة ، وصفرت ريح شــديدة بالخارج ، فازداد الاشتياق الى الدفء . ومد الحكيم كفيه الى النار ، ثم عاد السؤال :

ـ يا ولد .. افصح عن نفسك ؟

ـ لا شيء يا مولاى .

قــال الحكيم :

ـ هل تخفى على شيئا ؟ !

قــال سرور :

ـ لا ..

ـ اذن ..

قدر ولطف ..

ـ أفصح عن نفسك !

قـال سرور :

ـ ورطنى آدم يا مولاى .

قـال الحكيم :

ـ كيـف ؟ !

قـال سرور :

ـ لم أرك الليلة فى المـأتم .

ـ لأن المسألة مظاهر .

ـ ولكنها واجب ومواساة لابد منها .

قـال الحكيم :

ـ وفر كلامك .. قل ما حدث ؟ !

تنهد سرور من أعماقه :

فقدت آخر أمل ..

ـ فى اى شيء ؟ !

ـ .. صوتى .. صوتى يا مولاى .

قـال الحكيم :

ـ مسألة قديمة .. لمـاذا تعود اليها الآن ؟ !

ـ ورطنى آدم أمام الناس .

ضحك الحكيم بذكاء قائلا :

ــ آه .. طلب منك القراءة .. فلم توفق .. اليس كذلك؟!

ــ قسمتي ..

قــال الحكيم :

ــ تغالط نفسك .. هل ضاقت الدنيا بما رحبت ؟ !

قــال سرور :

ــ والحــــل ؟

قــال الحكيم ؟

ــ ارحــــل .

ــ الى أين ؟ !

ــ بلاد الله واسعة ..

ــ جربت منذ سنوات .

قــال الحكيم :

ــ لم تكن سريرتك مخلصة .. اعزم أمرك ولا تتردد .

قــال الحكيم :

ــ لا تفكير فيما امرت به .. نفذ فورا .

ــ الدنيا شتاء .

ــ لا تحسبها بالشتاء أو الصيف .

ــ غدا يحلها الحــلال .

ـ أعطنى كلمـة وعد .

وشهق سرور مرتاحا :

ـ اعدك يا مولاى .

وقرب الفجر سمع نقرا خفيفا على الباب .. قال :

ـ مـن ؟ !

قالت زهر النفوس خائفة :

ـ انا يا سرور .. افتح !

وهمس وهو يستقبلها :

ـ طلة غريبـة ؟ !

ـ لا غريبة ولا حاجة .

ووضعت أمامه مترد اللبن الحليب .. فتطـلع اليه سرور وهو عطشان .

وقالت زهر النفوس بحنان :

ـ عطشان يا سرور ؟

ـ لا .. ابدا ..

ـ باين عليك عطشان .. اشرب .

وحمـلت اليه المترد بين يديهـا .. فراح يعب منه بنهم شـديد .

وقـالت زهر : ...

ـ عينى يا سرور .. اشرب يا ...

قــال سرور :

ـ عينى يا زهر ..

قــالت :

ـ حلو يا سرور ..

قــال سرور ..

ـ حلو يا زهر .. حلو قوى من ايديك .

وتعجب من نفسه .. لقد أعطى وعدا للحكيم . ولكنــه الآن يفط فى الدنيا الى أذنيــه ، حظ طيب . يصحو على الوجــه الصبوح واللبن الحليب .. لو يستمر الحــال على هــذا المنوال.

قالت زهر النفوس :

ـ انى ماشيه بقى ..

ـ فــين ؟

ـ اطلع اللبن .

اقعدى شوية .. اقعدى .

ـ لا والنبى ..

ـ اصلى .. اصلى ..

وكاد يفصح عما يجيش بصدره نحوها . تطلع الى وجهها الأبيض كعســل النحل ، يريد أن يشربه كله . ابتســمت فى رقة ، فانفرط عقد أسراره على لسانه :

ـ اعمل ايه يا زهر ؟ !

ـ خير يا سرور .

ـ مش عارف ؟ !

قالت زهر النفوس :

ـ اكتر منى ..

قـــال سرور :

ـ آه .. إكتر منك .

قـــالت :

ـ اصبر ...

ـ لغاية وقتيه ؟ !

ـ علمى علمك .

ـ تعبان يا زهر ..

ـ وانى تعبانه يا سرور ..

وخرجا معـــا الى الفضاء .. كانت الطيور تصفق بأجنحتها فرحة سعيدة ، وخيوط الصباح البيضـــاء تجاهد بقايا ظـلام الليل السوداء .

ووقفا يرمقان آخر النجمات تشق السماء ، كان جبينهـــا مرصعا بحروف مضيئة .

ـ ليتنى أسعد العشاق والمحبين والأزواج .

وتسربلت بعض السحابات فى حضن الجبل ، فنزل المطر وتكهربت الســـماء .. بالبرق .. وخافت زهر النفوس ، فحملت المترد بسرعة مودعة .

وفى الطـريق الآخر كان الســيد الفرمـاوى يجتر شره بمفرده ، يقضمه على أســنانه وبين لعابه الأصفر .. صمم ان ينتقم ، عاودته مرارته القديمة للأذى من هو الضحية ؟ لا يهم !

أقرب انسان لديه وركبت راسه العاصفة .. سرور يريد ان يتمرد . المح بوادر اليقظــة على سحنته وفى ثنايا كلماتــه وايماءاته .. لابد أن أكتم الشعلة الصغيرة قبل أن تكبر . وتكتسح فى طريقها الأخضر واليابس .. أنا أعرف الطبــائع البشرية .. الطم عدوك قبل أن يلطمك ، وفاجئه قبل أن يفاجئك .. سدد اليه الضربة الأولى والثانيــة والثالثة قبل أن يتحرك تجـاهك .. سايس وناور وتمسكن واعمل خدك مداس .. وخبىء هدفك .. علمتنى سوق القطن المغامرة .. وعلمتنى عشرة الفلاحين الدهاء والمكر .. وعلمنى زرع النبات الصبر وطول البال . وعلمنى أبى وجدى .. ان الأرض لنا .. تعبنــا فيها وعرقنــا .. ذلت فى سبيلها نفوس ، وجرحت كبرياء .. ولكن المهم النتيجة . ان يرتاح الانسان فى النهاية .. يضمن البقاء والغاية والنفوذ ..

ولوح الفرماوى بكرباجه فى الهواء ، ثم اخفــاه بين ثيابه الفضفاضة ، وانتفض تغلى الدماء فى عروقه ، تدفعــه موجة شر لتلقفه موجة أخرى . يسبح فى بحر احقــاده العكر .. تهرب الطيور من وقع أقدامه .. تسود السماء من أنفاســه .. !

ووجها لوجه ، كانت الضحيــة تقف متعبة فى قلب الحقل أمام مفترسها .

ــ وقال الفرماوى :

ــ هه .. خلصت يا سرور :

ــ ....

ـ ما تتكلم !

ـ لســـه !

ـ ما أنت واقف زى خيال المآته اهه .. كيف يتجنبها بعرى ؟ ! تيقظ سرور لنغمــة الشر فى أعماقه . كيف يتجنبها أو يردها ، هل رآه فى الصباح مع زهر النفوس ؟؟ من يعمى بصره عنه ؟؟ لمح الكرباج فى يده ، فزاغت عيناه خائفتين . هوت كتلة من الطوب الهش تحت قدميه . كز الفرماوى على اسنانه بغيظ :

ـ البسلة طرحت يا سرور ؟ !

قـال سرور :

ـ من بدرى !

ـ طب مجمعتهاش ليه .. عاوزها تغرق ؟

ـ ربنا ما يجيب غرق !

ـ ما أنت خلاص عقلك كلح .

ـ ....

ـ مفدش ينفع معلك الا الضرب !

ـ ....

ـ ساكت ليه يا حمار ..

قال سرور وادبه يتحول فى داخله الى ثورة مكبوتة ..

ـ انا مش حمار .. انا مش حمار !

ـ طب بغل يا سيدى متزعلش ..

هب سرور ودماؤه تنتفض فى صدره :

ـ عيب يا .. يا ..

ـ انت تعرف العيب ؟ !

ـ اعرف العيب .. طبعا أعرف العيب مش بنى آدم ؟ !

ـ اللا .. اللا .. دانت بتتكلم افرنجى .. أهه ..

ـ لا افرنجى ولا حاجة .. هو اللى يقول طبعا كفر ..

ـ عال .. عال .. المغمضين عاوزين يفتحوا يا ولد !!

ـ نفتح .. هو انته من طينة .. وانا من طينة .

ـ آدم خسرك يا سرور ..

قال سرور باصرار :

آدم راجل طيب ..

ـ رزل ويشاكل دبان وشـــه .. !

ـ ....

ـ اركز يا سرور .. أحسن لك !

ـ مانى راكز أهه .. أنت اللى ..

ـ خليك عاقل يعنى .. انت مش فاكر ..

ـ فـــاكر ..

ـ امال بتجحش معاى ليه ؟ !

ـ عشان شغلتنى تقوم تذلنى !

ـ مش بتاكل وتشرب وتتكسى ؟ !

ـ وهو كفاية آكل واشرب واتكسى ؟ !

ـ أمال عاوز ايه يا ناصح ؟ !

ـ يبقى فين الفرق بينى وبين البهيم بقى ؟ !

ـ انت حصلك خلل فى مخك .. ما هو طول عمرك كده والله حصل لك خلل !

قال سرور بحنق :

ـ صحيح طول عمرى كده ؟ !

ـ وكنت ساكت ليه طيب ؟ !

ـ عمرى ما كنت ساكت ..

ـ طول عمرك قطة « مغمضة » يا سرور ..

ـ القطة قربت تفتح ..

ـ عجيبة .. مين اللى علمك الكلام ده .. ؟ !

ـ محدش .. أنا فهمته من نفسى ..

واخرج الفرماوى كرباجه من تحت ثيابه مهددا :

ـ يا سرور .. اعقل احسن لك ..

ووقف سرور مذهولا ، تنسحب الأرض من تحت قدميه ، يزوم بالحقد .. يعوى بالغيظ والخذلان .. يطفو العرق على جسده .. تختنق انفاسه فى لحظة .. ثم تشمله قشعريرة

راجفة لحظــات .. هل ينقض عليــه فى قفزة واحــدة وينتهى بصفعة على وجهه .. يركله بقدمه .. يبصق فى وجهه .

.. لكن الكرباج فى يده .. ســوف يهوى به عليه .. لن يترك له الفرصة حتى ينتصر .. اكرم له أن ينسحب فى هدوء .. واعتزم فى نفسه أمرا يستريح اليه منذ أمد طويل .. لابد أن ينفذه حتى يستجلى كرامتــه .. ربما استراح واراح الى حين .. وقال وهو يطوى مرارته فى صدره :

ـ عاوز تضربنى ؟ !

قال السيد الفرماوى :

ـ ذنبك على جنبك ..

قــال سرور :

ـ اضرب ..

ـ ....

ـ اضرب مستنى ايه ؟ !

وتداعى الكرباج من يده ، ثم قال :

ـ بتحرجنى يعنى .. بتحرجنى ؟ !

قــال سرور :

ـ تحرج من ايه ..

قــال السيد :

ـ عيب يا سرور ..

قــال سرور :

ـ عزمنا عليها ..

قــال السيد :

ـ مش فاهم .. عزمت على ايه ؟ !

قــال سرور :

ـ انى فى طريق وأنت فى طريق .

قــال السيد '

ـ ماشى يعنى .. ؟ !

قال سرور :

ـ انشاء الله ..

فــين ؟

قال سرور والدموع تكاد تطفر من عينيه :

ـ بلاد الله واسعة ..

- ١٢ -

وفى الليل اعتكف ينوى على الرحلة . كان يجب أن يفعلها من زمان حين اختلطت الأمور عليه أو بعد فقد صوته ، لكن لا فائدة فالمكتوب هو المكتوب ، والاجترار لن يغير من الأمر شيئا . المهم الآن أن يخلص القلب وينقى الضمير . وشعر بالجوع .. لم يأكل منذ الصباح .. قام وأحضر بعض اللقيمات المقددة .. وقليلا من حصوات الملح .. وكوب الماء وبدأ بسم الله ، ثم انتهى بمسح شاربه شاكرا . وتمدد على فراشه مفتح العينين ، قلق الفؤاد ، مسهد الروح . منهوك الجسد . يبحلق فى سقف القاعة باحثا عن عزاء ، فلا يرى سوى الندوب والشروخ ينشق عنها الرماد !

وقرب الفجر قام فتوضأ ، ثم صلى ، ودعا الله أن يلهمه طريق الهداية وبدأ اولى خطواته مودعا القرية على درب الجبل وكان الظلام ما يزال يظلل الأفق وآخر النجمات تزهو فرحة قبل اختفائها ، ونباح الكلاب يسمع من بعيد . وبلورات الندى البيضاء النقية تكسو الزروع ، وأوراق وجذوع اشجار

البرتقال واليوسفى والمانجو تشكل لوحة جميلة .[6] وشىء عتيق يربط المخلوقات والأشياء بعضها بالبعض الآخر لا يتغير منذ آلاف السنين . كثيرون يدعون انهم يعرفون سره ، يظلون عشرات ومئات السنين يبحثون ويشقون ويتعذبون .. يتعاركون ويتطاحنون ويتنافسون حتى يحظوا ولو بلمحة ضوء يكشف غطاء .. لكن الآمال تضيع .. تذوى وتضمحل .. عندما يطوى الزمن الأيام تحت فكيه .. وتعود الحياة سيرتها الأولى .. يرضى الناس بما قسم لهم .. ولم يعودوا يطمعون الا فيما بين اكفهم .. حفنة حب .. حصوة ملح .. أو ثمرة فاكهة .. او أمل موعود لم يحن بعد ، صابرون طيبون راضون وادعون .. والأفق يضيق ويتسع على عالمهم المحدود .. والأرض تفيض بالمحصول او تشح .. المطر يفيض .. البقر والجاموس والحمير تأكل .. ثم اذا تعبت تجتر . وأجيال وراء أجيال وقريتنا تتحمل .. بطون النساء تلد الرجال .. والأرض تنشق عن الخضرة والثمر والخصب !

ومع اشراقة الشمس كان سرور يصعد آخر المنحدرات الى قلب الجبل . كثيرا ما تمنى وهو صغير أن يقف على أعلى قمة فيه ليؤذن فى الناس ، ولكن أحلامه ضاعت فوق مئذنة الجامع الصغير بالقرية ، وعلى سطحه المتداعى القديم . يستطيع الآن أن يحقق حلم الطفولة ، ولكن ما يشغله ليس الأذان أو الصلاة ، فالناس يصلون فى كل مكان . الوسواس الجديد يأخذ عليه لبه ، يتلاعب بصدره .. آدم أبو عطيفة يقتحم أيامه .. يحدث بها ثغرة .. يستحيل أن يملأها بسهولة . دق له دربا يبدو انه مهما هرب منه ، فسوف يعود اليه فى النهاية والحكيم مملوك ينصحه بالحسنى أن يهاجر ويسعى للرؤية الصحيحة . وهو

ينفذ حكمتــه دون أن يناقشها ، فنفســه تنعطف نحوها دون عنــاء الظروف تدفعــه اليها . فهل قدر له أن يعيش محيرا مشتتا أبدا ! ؟ . رفع كفيه الى السماء مستلهما الرشاد ــ ثم عاد وتخلص من ضعفه وخذلانه . فالى متى يظل نهبــا للظنون والمخاوف والرجاء ؟ وقد ضرب الأرض مرة ، فأخرجت له خيرها ، تلك هى الحقيقة التى يسعد بها دائمــا كلمــا ألمت به الهموم . فمن عرقه طلعت البذرة ثمرة ومن الثمرة أكل وشبع . تمدد على الحصى والطوب ونام . ألقى نظرة الى المدى .. فاصفرت الدنيا فى عينيه ، فأسرع الخطى بطلب الضياء .. ولكن عبثا حــاول العثور عليــه . فهنا عالم آخر ، الشمس فيه صفراء ، والهواء أصفر .. والأرض صفراء .. والرمال صفراء .. صفراء ، حتى الطيور السابحة فى السماء .. والحشرات الراقــدة فى جوف الأرض صفراء ، صفراء وشــعر بالغيظ من السيد الفرماوى .. هو السبب فى هروبه من القرية .. تركه ينعم ويمرح وحده .. وحميت أشــعة الشمس ، فسخنت الرمــال تحت قدميــه ، وحومت أسراب الذباب الكبير الصفيقة حوله . وقال فى نفسه : انه ليس بذباب .. انه نقمة . وشرب جرعة ماء من ابريق يحمله فوق كتفه ، فشــعر بحلاوة المــاء وطراوته وســط الجدب ، فارتشف جرعة أخرى ، وارتسمت له صــورة زهر النفوس فى الفراغ المقيم . يداها البضتان تربتــان عليــه وفمها الدقيــق يناجيه .. ان قلبى معك يا سرور فى الجبل .. فشد حيلك .. وعتاب رقيق من أعماقها .. فقد تركها بمفردها دون أن يودعها ، وقامتها المديدة كالنخلة المسحورة ترتقى جنــاح الجبــل .. قال لطيفها فى خاطره :

ــ متزعليش يا زهر .. الظروف كده .. والنبى ما تزعلى !

زمت شفتيها الدقيقتين وقالت :

ـ المهم توعى لنفسك .

قال بصوت مسموع :

ـ بتحبينى يا زهر ؟ !

قالت ووجهها يضىء صفحة السماء أمامه :

ـ ايوه .. ضرورى تكسفنى يعنى يا سرور .. ضرورى ؟ !

همس مترددا :

ـ والنبى .. والنبى يا زهر .. قوليلى والنبى ؟

ومرقت من تحت ذراعه اليمنى كالطير ..

ـ مش وقته .. مش وقته .. بعدين .. بعدين ..

وتوغل وسط الصخور والمنحدرات لا يدرى الى اين تقوده قدماه . كل همه أن يفرغ احزانه ومتاعبه . لم يحسب حساب عودته . قعد على احد الأحجار الجيرية الذى تتخلله شعب ورسوم عجيبة ، بعضها يبين كأنه قطـة صغيرة ذات رأس كبير تشرب اللبن والأخرى حية رقطاء تتلوى على السطح ، ثم تبخ سـمها فى الرمال . وجمل أو هجين صغير ، يحمل على ظهره حملا من قش الحطب ، ورجل وامرأة يقفان وجها لوجـه يتناجيان .. واطفال يلعبون صبيان وبنات .. ينصبون فرحا او مأتما .. لا يدرى .. فكلهم يتجمعون فى سـاحة بيضـاء .. يدقـون الأكف .. او يلطمون الخدود .. ووجه آدم أبو عطيفـة يبرز له ضاحـكا :

ـ عملتها يا سرور .. ؟ !

ـ لا والله ياعم آدم ..

ـ تهرب منى ؟ !

ـ ابدا ياعم ..

ـ امال مشيت ليه ؟ !

ـ زهقان ياعم آدم ..

ـ كلنا زهقانين يا سرور ..

ـ حملى فاض ياعم آدم ..

ـ طب قول سلامو عليكم ..

ـ كان نفسى والله .. كان نفسى ..

ـ لا .. دى حجة بس ..

ـ والنبى كان نفسى .. كان نفسى ! .

وفر آدم ابو عطيفة كما فرت زهر النفوس . فقام من الجحر مذعورا يشعر بقشعريرة . ن دله على هـذا الطريق ، ليته لم يستجب له بسهولة . أين الحكيم مملوك ليرى حيرتى وأسـاى وضياعى ؟ ! هل يقدر هو أن يخوض فى الرمـال مثلمـا أفعل الآن ؟ ! وكاد النفور يطفح على صدره لولا حبـه ، المتمكن من قلبه ، فهو على كل حال يريد له الخير وفجأة أدرك سرور المـأزق الذى تورط فيه ، دار حول نفسه عدة دورات ليرى طريقا يسلكه للعودة ، ففشيت عيناه غمامات كثيفة تنتشر على طول صفحـة السماء ، تهبط حتى تتطـاول مدار المنخفضات . واذ بصـوت من بعيد فانجذبت أذنه اليه ، يريد أن يلتقطـه كان خليطـا من صوت الانسان والحيوان وضع أذنه على الرمال عله يسمع أكثر ، ولكن الصـوت كان قـد اختفى . ومن باب الحرص ظل حذرا

متيقظا لأى بدرة صوت جديدة وعلقت فى سمعه صيحة رعب لا يعرف مصدرها . وانتابه الذهول الذى انفجر بعد لحظات الى نداءات استغاثة .. يا ناس .. يا هوه يا خلق .. وسقط من طوله لا يشعر بشىء من حوله .

راى فيما يرى النائم قوما من المردة يدقون الطبول ، يزعقون ويغنون ، يضربون الأرض بأقدامهم ، يلبسون الملابس الزاهية المجلاة بالصدف واللؤلؤ والمرجان والياقوت ، ثم سرعان ما قصرت هاماتهم وكستهم الصفرة ، فانقلبوا أمام عينيه الى مجموعة من الأقزام ، طول الواحد منهم شبر واحد أو شبر ونصف ، شفاههم غليظة .. وصدورهم عريضة وكانوا ايضا يرددون أغانيهم الشعبية .. مر عليهم وصافح الواحد منهم بعد الآخر ، ثم توقف عند زعيمهم .. وبمجرد أن وضع كفه فى كفه استطالت قامته أضعاف ما كانت ، ونحل عوده ، واتسعت صفحة وجهه وجبهته ، وتضخمت قدماه المفلطحتان ، وكان يصحبه تشريفاتى يقدمهم اليه واحدا .. واحدا ، ولما جاء دور الزعيم، قال له التشريفاتى وهو يبتسم :

ـ ألم تعرفه !

قال سرور :

ـ لا .. والله ..

قال التشريفاتى :

ـ رايته الف مرة .. كيف لا تعرفه ؟ !

قال سرور :

ـ وشرفى لا أعرفه ..

همس التشريفاتى ضاحكا :

ـ انه آدم أبو عطيفة ..

وتقدم منه يدارى خجله ، يعلن أسفه . احتضنه بين ذراعيه وهو يعتذر له ارق الاعتذارات .

قـال :

ـ آسف ياعم آدم .. آسف !

قـال آدم :

ـ ترحل لوحدك ..

قـال سرور :

ـ لم أقصد شيئا ..

ـ المهـم ..

ـ خير اللهم اجعله خير ..

قـال آدم :

ـ ترجع حالا ..

قال سرور :

ـ والسـبب ؟ !

قال آدم :

ـ البلد بتضحى .. ضرورى ترجع .. فاهم ؟

ـ والسيد الفرماوى ؟؟

ــ أمره يهون ..

ــ نشوف الحكاية كلها .. نشوف حل يعنى للمشكلة !

قــال سرور :

ــ خايف يا عم آدم .

ــ يا سيدى كلنا خايفين ..

ــ تعبت كثير ..

ــ كلنا تعبنا يا سرور ..

ــ جعت وتعربت ..

ــ كله يتصــلح ..

ــ اتفزع على بالكرباج .

ــ كله بحســابه ..

ــ ويقهرنى تانى ؟

هتف آدم بغضب :

ــ قوم بلاش جبن !

وتململ سرور يفتح عينيه بصعوبــة .. دار ببصره دورة فيما حوله ، وجد نفسه وحيدا فى حضن الجبل ، يرقد تحت جناح من أجنحته الأبدية الخالدة .

ارتشف جرعة ماء ليبل ريقــه الجاف .. تطلع نحو الأفق مكروبا . ضم يديه فى توسل متوجهــا نحو الســماء .. ارتقت روحه حتى شفت ، اتضح له خيط وردى رفيع لا يعرف مداه

بين نتف السحاب البيضاء اللطيفة .. حاول الخلاص فى شهقة عميقة ، ولهج مصفقا ، منغما الكلام ، مستطعما معناه ، محبا لحروفه ، عابدا صداه : هـ .. هـ .. هبطت عليك من المحل الأرفع .. ورقاء .. ور .. قاء .. ذات تدلل وتمنع .. وحجل حجلتين ، ثم أكمل بفرح يملأ صدره : يارب بهم وبآلهم .. عجل بـ ، ثم سكن لحظات ينتظر .. تعلقت عيناه بالخيط الوردى بين ثنايا السحب .. لكنه بدأ يتلاشى فى غمرة اللون الأبيض الناصع ، وعبثا حاول أن يمسك ببقاياه المنسحبة الذائبة .. لطم أذنه صوت الريح .. ضاعت فرصتك يا سرور فى لمح البصر ، وكاد زمن الكرب يحل به من جديد لولا أن أشرق له وجه الحكيم على جناح احدى الغيمات .. ابتسم بعد أن حياه .. عاوده الأمل بعد لحظة يأس قاتلة ، قال وأبواب النجاة تتفتح له :

ـ مولاى ..

ـ نعم يا سرور ..

ـ مساء الخيرات ..

قال الحكيم :

ـ مساء الجمال ..

قال سرور :

ـ نفذت أوامرك ..

ـ عال .. ولكن ؟ !

ـ ولكن ايه ؟ !

ـ تتعجل الأمور ..

قـال سرور :

ـ ان لم يكن اللحظة فمتى ؟ !

الحـكيم :

ـ تحسبها باللحظات ؟ !

ســرور :

ـ اذن ..

الحـكيم :

ـ ربما سنوات وسنوات .. فاصبر ..

ســرور :

ـ مـولاى ..

الحـكيم :

ـ لا ينفع رجاء .. لا ينفع رجاء ..

ســرور :

ـ دلنى على طريق العودة ..

الحـكيم :

ـ مرة اخرى ..

ســرور :

ـ يكاد مائى أن ينفد ..

الحـكيم :

ـ لكن روحك لابد أن تكون ريانة على الدوام ..

قـال سرور :

ـ لا روح بدون ماء يا مولاى ..

قـال الحكيم :

ـ انى هائم مثلك ..

قـال سرور :

ـ ولكن الجبل جبار ..

قـال الحكيم :

ـ يفرجها الكريم ..

هب سرور مشتاقا للمساعدة .

ـ اريد ان أعود يا عم .. ارجوك دلنى على طريق العودة .

واختفى الطيف دون نتيجة .. ورفع سرور ابريق مائه الى فمه عطشان .. فلم يخرج منه غير الحصى . لطمه مستاء فى البداية ، ثم طبطب عليه ربما يحن عليه ببعض القطـرات .. وانتشر الظـلام حوله ، فـذاب الجبـل فى كتلة السـواد .. واستوى كل شيء فى عينيه .. صفع جبهته متحسرا على حظه.. تمتم ببعض الشتائم والسباب .. ندم على الثقة التى منحهـا للحكيم دون اختيار .. رفع بصره الى السـماء ، فرأى النجوم ، شعر ببعض العزاء .. هى الأنيسة التى تزيح الهم .. وعند نجمة بعينها نبض قلبـه بشـدة ، ربما تحمل له الأمل والخلاص ، تبتسم له ؛ تكاد تنزل لتواسيه .. وعلى الأرض كانت النخـلة

تعطف عليه ، وفى السماء النجمة تدغدغ همومه .. اختان حميمتان .. لكما السلامة وطول العمر .. حفر لنفسه حفرة وتكور فيها .. شد عليه ثيابه الثقيلة .. أغفى هاربا من الأرض والعذاب .. لكنه انتفض مولولا من الخوف .. لا يدرى الوقت الذى غاب فيه .. أهى تعسيلة قصيرة ، أم ردح من الزمن .. وحبس صوته من الخوف أيضا فربما تعرف الذئاب طريقه .. وكنقر سقسقة العصافير فى قلوب الحزانى .. سمع نقرا من بعيد .. هه .. يا الهى انه صوت يعرفه جيدا .. وانتابه شعور طاغ بالاطمئنان المفاجىء . وضع أذنه على الرمال .. فازداد وجيب الصوت فى أذنه .. كالفرحة .. كالأمل الميئوس منه حين يأتينا فجأة واستدار عدة دورات ليتأكد من اتجاه النغم الموقع .. انه يأتى من ناحية الشمال ، لابد أن يسير نحو الشمال .. لا وقت للتردد .. قام متوسلا ، كرات الصوت الذهبية يلتقطها فى صدره لتهديه الى العودة .. وأسرع الخطى ثم جرى .. ثم انطلق كالمخبول .. ظل يجرى ويجرى الى ان عثرت قدماه .. فسقط على الأرض ينزف .. شعر بلزوجة الدم .. بكى بأعلى صوته من القهر .. نسى دقات الصوت لحظات .. ثم سرعان ما عادت اليه ضعيفة واهنة هذه المرة كفلول الأسرى العائدين من الحرب .. ابتعد وقعها وبطأت ترنيماتها ، وجف ريقه من العطش ، من يعطيه جرعة ماء ليروى غليله ، داست قدماه على بعض نبات العنزة الطرى فاعتصره بين قدميه بلذة ، وابتلع عصيره المر . أين انت ياعم آدم : مشتاق اليك كما اشتاق الى جرعة الماء .. اعدك بأن أكون عند حسن ظنك .. لكنى اخلص من ورطتى أولا .. ولفحته ريح شديدة ، فانكمش مذعورا ، تصطك منه الأسنان والعظام والنخاع ، تمنى الموت السريع حتى لا يتعذب طويلا .. توهمه

قريبا منه ، فنطق الشهادتين وهو مستسلم وعوى ذئب من بعيد فالتصق بالأرض .. والتقط الصـوت القادم من الشمال يستميت به الأمل الباقى وسط المحنة .. ليته يظل على ضعفه لا يصمت أبدا .. يعرفه فى ليالى القرية السابقة ، انه صوت ماكينة الطحين القبليـة .. خالتى خضرة تبيع الترمس والفول السـوداني بجوارها .. ونساء البلد وبناتها يطحن بالبيض وكيزان الأذرة .. من ينقله اليها الآن .. يدفع عمره فى سبيل لحظـة واحدة ليرى الأرض والعيال والبنات والنساء والرجال ، ثم يموت هنـاك بين أهله وأصدقائه .. لو لفظ أنفاسـه هنا فسوف يموت غريبـا كئيبا لا يدرى به أحد .. حتى لو عثروا على جثته فلن يعرفوها بسهولة .. فليحفر قبره بيديه قبل أن يصبح جيفـه تلتقطها الذئاب .. ونبش الأرض بأظافره كالمجنون .. وهمدت دقـات الصوت فى النهاية فانخلع قلبه من الخوف . زعق فى الفضـاء المظلم .. يا خلق .. يا هوه .. يا ناس .. الحقونى .. وسمع صـدى صوته .. فسر سرورا عظيما وعاود النداء والندب فى الفراغ .. ثم سكنت منه الحـركة تماما . راح يتنفس بصعوبة ، تحسس صدره حتى يتأكد من نبضه المفقود فى السماء علّه يرى النجوم والقمر ونتف الضوء المتناثر ، فلم تصـادف عينـاه غير الظلام والوحشة والرعب . تقلب على جنبه . فطن فى راسـه جرحه ينبض بالألم ، سـال الدم على جبهته وعينيه فاختلطت دموعه بدمائه بخيبة رجائه .. ساورته الأزمة منذ بدايتهـا ، وآدم يلقى اليد بحبال النجـاة بين الآونة والأخرى .. يعلمه ضربة الفأس والثقة .. والحكيم يتأمل كثيرا .. لن استكين له بعد هـذه الليلة الغبراء .. وجرت فى مخيلتـه أحـلام الأقزام والعمالقـة .. وانفرط عقد آلامـه الى التشبث بكف آدم ..

قـال له :

ـ أعطنى يدك لأنهض ..

قــال آدم :

ـ تحت أمرك يا سرور . .

ـ آخر مرة أعصى لك أمرا ..

قــام آدم :

ـ المسألة ليست اوامر ..

قــال سرور :

ـ أقسم لن أعصى لك كلمة ..

قــال آدم :

ـ لا أحب ان تكون تابعا لأحد ..

قــال سرور :

ـ امــرك ..

قــال آدم :

ـ وبالخصوص السيد الفرماوى !

قــال سرور :

ـ ياريت ..

قــال آدم :

ـ قلت لك الف مرة ..

قــال سرور :

ـ وسمعت نصائحك ..

قـال آدم :

ـ يا حبيبى النصائح لا تفيد ..

ـ المهـم ..

واخذه من يده فانتفض معافى لا اثر للهم على وجهه . طاف به بساتين للفاكهة .. راح يجمع من خيراتهـا ما يريد .. ذاق عنقودا من العنب .. فلم يعجبه طعمه .. فعرج على الكمثرى والمـانجو والتفاح .. وكان لا يكمل ثمرة حتى يرميها شـبعان منها ، والعجيب انه رأى السيد الفرماوى فى زى خفير لأحـد البساتين وبمجرد ان رآه قدم له التحيـة الرسـمية للضـيوف الكبار .. قبل الأرض تحت قدميه .. ثم ظل يقفز حوله يتمنى أن يلبى طلباته .. أمره بالانصراف اكثر من مرة ولكنـه تشبث بمصاحبته .. استمات ليقدم له ما يشتهى .. ركله بقدمـه مرة حين طافت بنفسه المرارة القديمة .. فعاد يقبل يده وثوبه يرجوه طلب السماح والمغفرة .. الزمن قد تغير وعفا الله عما سلف .. وانى تحت أمرك يا سيدى .. فاطلب ما تشاء .. وامعانا فى التأكيد نظر فى سحنته غير مصدق فاذا الشك ينقلب الى يقين.. قـال له :

ـ يا سيد يا فرماوى ..

جرى اليه محنى الظهر :

ـ نعم يا سيدى !

قـال سرور :

ـ هل تذكر ايام زمان ؟

قال الفرماوى :

ـ كانت أيـام .

قـال سرور :

ـ أهنتنى كثيرا ..

ـ هذه حال الدنيا ..

وركله بقدمه محنقا :

ـ ماذا تقصد يا جحش ؟

ـ يوم لك ويوم عليك ..

قـال سرور :

ـ ازحـف ..

أطاع الفرماوى :

ـ امـرك ..

قال سرور بغل :

ـ ازحف يا كلب .. ازحف .

- ١٣ -

فى الصباح كانت بقايا الأحلام تعيش فى وجدانه يفتش فى تفاصيلها اللذيذة . اين ذهب الناس الذين قابلهم .. الفاكهة التى أكل منها .. تضيع منه الأشياء البسيطة الحلوة .. ولا تبقى الا المرارة ، ويجر ساقه الثقيلة يظلل عينيه بكفيه حتى يرى ما حوله .. وتجيئة الأفكار دون عبء .. لابد أن افتح عقلى دون تعصب .. الفلاحون أهلى وعشيرتى .. ماضى وحاضرى ومستقبلى .. فلماذا أبتعد عنهم ؟ ! .. اتمسك بخيوط من الأوهام لن تتحقق .. آدم ابو عطية مفتاح الحب والأمل .. فى غضونه نضال سنين . وفى عينيه ذبول الأيام الضائعة المظلمة .. وفى كفه الراحة والخير .. ابن الأرض منذ آلاف السنين دون ضجر أو كلل او ملل ؟ ! وتنهد مرتاحا . العطش سوف يزول .. والجوع أيضا سوف يزول .. والدنيا تمتلىء بالخصوبة .. فقط نريد من يكشف عنها .. لكن الظل الثقيل لابد أن يختفى الى الابد .. كل الظلال السخيفة .. من بلدنا .. وكل بلاد الدنيا .. كم شربوا من دمنا وعرقنا .. دموعنا وحزننا ومرارتنا .. فليغربوا عن وجوهنا .. وصاح من أعماقه وضوء

الشمس يغمر وجهه .. اغرب يا سيد يا فرماوى .. وصمم بكل عزمه أن يعبر طريقه ، ولكن المهم الآن أن يعود .. وكان الصوت يتراءى اليه من جديد ، وبعض الطيور الشـاردة تحلق فى السماء ، ودفء الصباح يمتص برودة الليل . وتصلبت عيناه على الرمال فجـأة . شاهد آثار اقدام بشريـة . اذن لقد مر انسان من هنـا ذات يوم . تأمل الأصـابع فشعر بفرح غامر . ونهض يتتبع الاكتشاف المذهل سار مع الأثر مزهو النفس والروح والجسد ، ممتن الخاطر . يستعيد كبرياءه التى كادت تضيع .. طالمـا اعتزل الناس والحياة .. زهدت روحه فى معاشرتهم .. كان يعتكف فى ركنه بالجـامع أيام الوصل الأولى .. ثم صـد عن جيرانه ومعارفه حينما انتوى الرحلة .. الآن يشتاق لقدمى انسان لا يعرفه ، ربما كان اعرابيـا من مئات الأعراب الرحل .. ربما كان أحد التائهين مثله .. وكف الأثر عند منحدر منبسط.. فتوقف مكتئبا بائسا .. كأنه افتقد كنز العمر الذى ظل يبحث عنه طويلا .

وانحنى يقبل القدم الوحيدة الباقيـة .. ودمعت عينـاه بالحنان .. وشفت أساريره عن عطف وحب للوجود كله .. فمهما كان الضيق الذى يعيش فيه .. فليس وحده .. معه آثار الأقدام الغالية .. وشعر بسحر غريب للمكان رغم جفافه وهدوئه المريب .. هنا مشى الانسـان ذات يوم .. تنفس على هذه الأرض المقفرة .. دق قلبـه فى صدره .. التحفت عيناه بالضوء .. فكر ودبر .. ثم رحل الى أرض جديدة يبحث عن رزقه وأمانيـه .. وقعد يطبب جروحه بذرات الرمل الناعمة.. يشتاق قطرة ماء .. ينتظر دقـات الصـوت الغائبة .. ورفع بصره الى السماء .. فرأى السحب الدكناء فوق رأسـه ..

فاستبشرت نفسه .. سوف يسترد روحه المفقودة .. هل كان يدرى أن قطرة ماء واحدة تساوى العمر كله فى بعض الأحيان ؟ ! واستلقى على ظهره نحو الغيث المنتظر .. تعلقت عيناه بالسحب الدكناء تنقش السماء .. وكلما ازدادت سوادا وكثافة ، امتلأ صدره بالأمل ، ونزلت قطرات متفرقة . فارتعش جسده بالفرح .. لحظات وتنفجر القربة الكبيرة الفياضة .. اطمأن .. جرفته البهجة .. تمنى أن يقوم ليرقص ويغنى .. لكن اللحظات تمر .. والرذاذ كما هو .. لا يزيد ولا ينقص .. فينقلب اطمئنانه غيظا .. وفرحته نكدا .. من يضمن الوعود .. ان لم يكن الآن .. فمتى ؟ ! وحاول التقاط بعض القطرات .. وبالمصادفة سقط بعضها فى فمه .. فشهق من الغرابة .. كان لها طعم الملح ونمت أحلامه عن استعطاف أكثر..واحدة لا تكفى.. ولا ثلاث .. ولا أربع .. وكان يزعق فى السحب الراكدة السخيفة .. أريد أن أشرب يابنت اللئيمة . هاتى الميه ! وانبثق فى أذنه صوت ماكينة الطحين مرة أخرى .. عاد كنقر الكتاكيت جدر البيض عندما تسعى للخروج الى الحياة بصمت قليلا .. تضيع معالمه فى الفضاء .. ثم سرعان ما ينبض بقوة وتدفق .. ونسى جروحه وآلام الليلة المعذبة .. ففى السماء ترقد السحب على كنز مياهها الغزير .. وعلى الأرض .. تتمدد أقدام الانسان النبيلة .. وبين الحين والآخر تطفو الدقات الواهنة . تكسو صفحة أذنيه بتيار النشوة والارتواء .. وزهت فى خواطره صور عديدة لناس كثيرين .. ربما لم يرهم منذ سنين .. كان يتذكر نتفا من أحاديثهم أو سحنهم أو مواقفهم .. حتى امتد به الشوق الى أيام الطفولة .. الكتاب والشيخ والعريف وطريق القطار الطويل .. وساعات الحبس المقيتة .. ثم الافراج اللطيف .. وصيد السمك .. وتنقية « الدودة » .. وجمع

القطن واول ميت فى حياته .. ثم أبو العلا وامرأته سكينة حين استفقلاه فى وضح النهار وكان ذاهبـا يبحث عن اللبن أو الجبن لا يتذكر فرآهما تحت الفراش يلعبان .. لم يفهم الا بعد سنوات كيف يلعب الرجل والمراة لعبتهما المفضـلة تحت الفراش .. وخطرت زهر النفوس فى قلبه .. فقال لها :

ـ حنجوز وقتيه يا زهر ؟ !

قالت مبتسـمة :

ـ زى مانت عاوز ..

ـ تطاوعينى يا زهر ؟ ..

ـ آه .. أطاوعك ..

ـ بعد العيد كويس ؟ !

أومأت بلطف :

ـ لا .. خليها شوية ..

تململ بظرف :

ـ يا عبيطة .. عشان ناكل اللحمة .. و ..

ضربته ضاحكة :

ـ اخصى عليك .. ماكنتش اعرف انك كده ..

زغدها مسرورا :

ـ يعنى أمال عايزه جواز من غير ؟

وزاغت من أمامه . فتصلبت عيناه على السحب كالمشدوه.

تركزت حواســه على المجهول الذى يعذبه وغطى جســده عرق غزير وأفعمت روحه بالسخط والغيظ والمراوغة لم يفرض عليــه هذا الضنى ؟ ! الأنه نفذ كلام الحكيم مملوك ؟ وعافت نفســه الشكوى لأول مرة ، لم يعد ينفع غير عراك الشــدائد وجهــا لوجه ، فلتكشــف له عن نفسها دون لف أو دوران . ســوف يشحذ عزيمتــه للتغلب عليها . وشملتــه اختلاجــة هزته من الأعماق .. لابد أن يقاوم لابد ان يقاوم .. ثم شعر براحــة كبيرة تسرى فى كيانه كأنه خرج من قمقم ، وازدادت كثافة الرذاذ ففتح فمه على الآخر يستطعم قطرات المــاء كالطفل الذى يتلهف على ثدى امه لأول مرة . احس بامتنان عظيم للنعمة الغالية . واختطف سمعه هاتف يهمس له :

ـ هل رايت فيض السماء ؟

قــال سرور :

ـ الحمد لله .. الحمدلله ! ..

قــال الهاتف :

ـ حتى لا تكذب الحكيم مملوك ؟ !

قــال سرور :

ـ عجيبــة ..

قــال الهاتف :

ـ يا سرور .. لا تشطح ..

قــال سرور :

ـ فهمنا اللعبة ..

قــال الطيف :

ـ لعبة ايــه ؟ !

قــال سرور :

ـ أنت عارف وأنا عارف ..

وقرب العصر . كانت الأمطـار قد كفت تماما . وظهرت الشمس على استحياء ، فنضحت الأرض بالرواء والمودة . شربت وشبعت . فارتاح جســدها العطشــان . واغتسلت الأشــواك ونباتات بنت العنزة والأحجار والحصى والرمال . ووصلت دقات ماكينة الطحين واضحة مقتربة .. وخيل الى سرور أن القدم الانسانية قد غاصت قليلا فى الأرض . فمسح الأرض من حولها وتمتم بالأدعيــة .. راجيا مستعطفا أن تبقى له وسط الضياع .. وعاد يقبلها مرة أخرى .. قدم مثل قدم زهر النفوس أو آدم أو الحــكيم مملوك .. وشرد هائمــا فى الليلة القادمة .. كيف يتحمل برد الليل الفظيع ؟ !

من ينقذه من الهواجس والظنون المحدقة ؟ !

لم تعد النجوم تكفى لأنسه وطرد غربتــه . يستحيل أن ينسى أصوات الفلاحين المشروخة العالية . كان ينفر منهــا فى بعض الأحيان .. واجتاحت روحه مرارة طاغية .. شعر بوخز الضمير .. لم يفعلوا له شــيئا حتى ينفر منهم .. ليتــه أدرك المسألة منذ وقت بعيد .. وصمم الا يتخاذل بعد الآن .. وأن يتخلص من بقايا المــاضى فى نفسه .. يفتح صــدره للافراح القادمة .. بفك أغلال روحه المختفية .. لا فائدة من الرحلات .. جربتهــا وأنا صغير .. ففشلت .. وأعانى منهــا الآن الخوف

والمذلة والعطش . وندت فى اذنيه أصوات غناء بعيدة ، فأرهف السمع يستجلى النغم .. وتدفقت الأمواج الشجية على الأفق. تملؤه بالآمال المرتقبة .. ربما تنزاح الغمة .. ويأتى الفرح .. تحملت كثيرا يا سرور .. آن لك أن تعرف طريقك .. لست وحدك .. الجميع يقع عليهم الضيم والقهر .. خطوات وتصل الى بر الأمان .. فالهمة . الهمة . أيها المجنون .. اقتربوا وغنوا . فأنا أحتاج اليكم .. المعروف لا يضيع .. اريد ان ارى عيونكم وايديكم واقدامكم وطلعتكم المستبشرة . آثار قدم واحدة لا تكفى .. خاف عليها من لطم الرياح .. وقطرات المطر .. وهبوب العواصف .. اندثار الرمال .. ودبيب النمل .. فاقتربوا تفكوا ازمتى .. تنشلونى من الهم والغم .. وازداد الغناء قريبا منه .. فأخذته الدهشة .. لم يعد يصدق اذنيه تطلع الى بعض القمم الصغيرة .. وشحذ حدقتى عينيه .. يلتمس خيوط الفرح . وخمدت انفاسه من المفاجأة السارة .. خاف ان يفلت منه الزمام .. فيزعق .. أو يقوم فيجرى .. ففضل التربص فى مكانه .. يستعد للحظة المناسبة . وبانت رؤوس الرجال وعممهم البيضاء فوق ظهور الجمال ، واندلعت القافلة البشرية فوق السهل المنبسط تخب فى ردائها الرمادى الفضفاض .. ورأى سرور أخف الجمال .. ففاضت السعادة فى دمه .. ونفد صبره فى السكون .. فزعق بعزيمة منتشية :

ـ يا رجال .. يا رجال ..

وانحرفت القافلة نحوه . نخت الجمال ، واندفع الاعراب حوله مندهشين .

وقال أحدهم :

ـ ما الحكاية ؟ !

قــال سرور :

ـ اشرب أولا ..

قال واحد من القافلة وعيناه تنفذان الى عينه :

ـ لص ابق من وجه العدالة ..

قــال سرور :

ـ بل محب لله .. ضل الطريق ! .

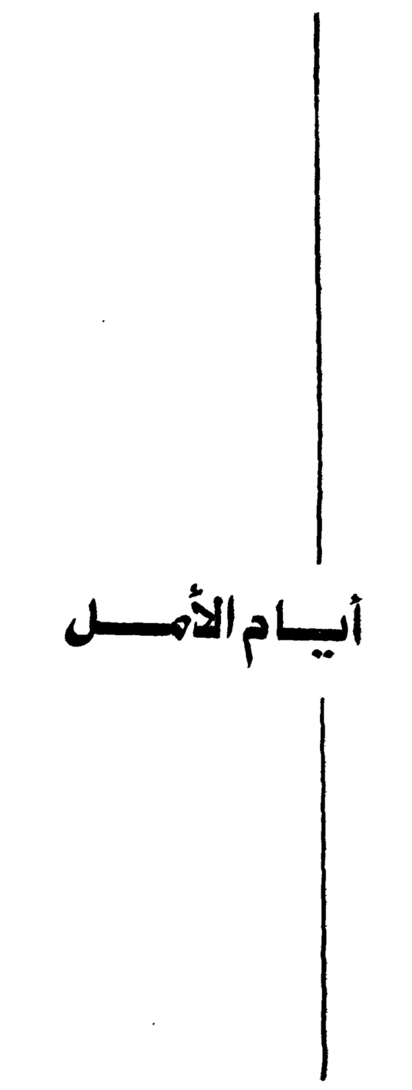
وقــال آخر :

ـ مضلل كبير .. يبين فى ملامحه الشر ..

وقال كبير القافلة :

ـ لا تغلطوا يا رجال .. أعطوه المــاء .. ثم ..

« تمــت »



أيام الأمل

- ١ -

فى تلك اللحظات حدث لى ارتباك . أدخلنى الدكتور « ز » الى معمله . كنت توا قادما اليه من ميدان « باب اللوق » ، حيث زحمة الناس وضجيجهم . أفكر فى بقايا النقــاش الســياسى الذى أثرته مع زميلى الذى تركته فى الميدان . جلست أمام الطبيب . قــال لى :

ــ ما عملك ؟

اجبت :

ــ كاتب وصحفى ..

قــال :

ــ هل هذا هو لون وجهك الطبيعى ؟

قــلت :

ــ لم أتعود أن أنظــر الى وجهى فى المرآة ، حتى الاحظ لونــه !

أضـاف :

ـ هل هناك أحد فى عائلتك كان مريضـا بالكلى ؟

ـ لا أذكـر !

ـ وبأى مرض مات أبوك ؟

ـ لا أذكـر ..

أشار الى أن أقف على الميزان . سجل وزنى ، ثم طولى .. ضغط الدم .. ثم جلس الى مكتبـه وهو يشد ورقـة صغيرة كتب عليها .. تحليل دم .. بولينا .. كرياتنين .. فحص بول أربعا وعشرين ساعة .. مزرعة بول وحساسـية ميكروبيـة .. ثم همس :

ـ عال .. أريد هـذه التحاليل .. ثم عد الى بعد ذلك .

وبمجرد أن رأيت كلمـة بولينـا مكتوبـة على الورقـة ذعرت . أسمع عنها منذ سنوات ، لا شـفاء منها . عدت الى بيتى أكتم غيظى . ولا أريد أن أفصح عما قاله الطبيب . فأنـا أعرف وقع الأنبـاء السيئة على المحبين . وكان كل من فى البيت وما فيه محببا الى قلبى . هـذا العش الجميل الهـادىء الأليف بنيناه بأنفسنا .. طوبة فوق طوبة .. أدوات المطبخ الصغيرة .. الأركان المختلفة .. حجرة مكتبى .. حجرة نومنا .. لعب ابنتى وابنى .. « كنكة » القهوة الفخـار التى أهداها لنا أحد الأصدقاء الفنانين .. السجادة التى اشتريناها بالتقسيط المريح .. مكانى المفضـل للقراءة .. المكان الذى ولدت فيه ابنتى .. جلستنـا المحببة أمام التليفزيون .. مدخل الشقة الفسيح .. أعمدتهـا الرخامية الدائرية الداخليـة .. وأهم شىء .. هـذه الأرواح

التى تنتظرنى بعد العمل .. تقلق اذا غبت .. تشعر بالدفء عندما أخلع ملابسى ، ثم اسألهم واحدا بعد الآخر .. ماذا فعلوا فى يومهم .. وأيضا هم يسألوننى عن يومى ! . من أجل هـذا كله ، لم أرد أن ألقى بالنبـأ بينهم .. لابد من مقدمات .. لكن العلاقات بيننا مفتوحة .. واذا أردت أن أخبىء نبأ ، فوجهى يفصح عنه ، بل ويفضحنى .. خلعت حذائى وجوربى .. وتمددت على مقعدى المحبب .. جلست صامتا دون كلمـة واحدة .. لبست هـذه عادتى .. اقتربت منى محبوبتى وهى تقول :

ـ لمـاذا لا تخفف من ملابسـك .. مـاذا قـال لك الطبيب ؟ !

قلت مسرعا :

ـ خير .. كله خير ..

قـالت :

ـ ما رأيه فى ارتفاع ضغط الدم ؟ .

قـلت :

ـ كتب لى حبوب « الدوميت » ثلاث مرات فى اليوم .. أنت تعرفين الأطباء .. لا يفصحون عن خططهم دفعة واحدة ..

قـالت :

ـ هل استرحت اليه من الناحية النفسية ؟

قـلت :

ـ استرحت .. سألنى .. هـل كنت تستحم فى الترعة وأنت صغير ؟ أجبته بالايجـاب .. ابتسم قائلا .. مثلى ! .

هــذا التعليق أعطــانى شــعورا بالراحــة .. لكنى لم اتبين قصــده ! .

قالت المحبوبة :

ــ والدوخة .. ماذا قال عنها ؟ .

فى هذه اللحظة تبينت أن الأســئلة لن تنتهى . قررت أن القى اليها بأهم تفصيلة فى النبأ .. فقلت وانا واجف :

ــ كتب لى أن أحــلل الدم والبول .. وســـوف نرى بعد ذلك ..

وقعت كلمــة تحليل الدم هــذه على سمعها موقعا غريبا .. فهذه اول مرة يطلب الطبيب تحليل الدم .. فهو غالبا ما يبتسم فى وجوهنا ليعطينا الشعور بالأمان .. لكن الدكتور « ز » أدخلنى الى صميم المشــكلة . تذكرت وانــا أســترخى على مقعــدى الأستاذ الجامعى ، الطبيب المشــهور ، الذى ذهبت اليه بنفس الأعراض منذ ســنوات ، وصفت له ما يصيبنى .. لكنه أرضانى بالحديث عن الأدب والشعر .. وأعطــانى الأدوية التقليدية لسوء الهضم .. وابتسم فى وجهى مطمئنا .. وضحك وهو يقول .. انت حديد .. !

خلعت معطفى ، كومته بجوارى . جاءت زوجتى . حملتــه الى الداخل . طلبت منها فنجانا من القهوة . أشعلت سيجارة دخلت فى تمثيلية مع ابنى الصغير .. امتطى ظهرى .. مشيت على أربع كالحصــان .. ضحك الولد من قلبــه .. الجمنى بسرج فى يده .. أمرنى بالوقوف .. وقفت .. قــال لى : ارجع الى الخلف .. رجعت .. كل .. أكلت .. اذهب الى ماما .. ذهبت .

بردت قهوتى .. اخذت منه الأذن لأشربها .. لم يسمح لى .. كنت فى هـذه اللحظات القلقة أريد أن أغمس ذهنى فى اهتمامات أخرى .. هذه اللعبة العبها مع ابنى كل يوم خميس.. فى الساعة السادسة مساء .. هو يعرف هـذا الموعد تماما .. يجيئنى رابتا على كتفى ، ومعه اللجـام .. يلبسه اياى فى عنقى .. اشعر بسعادة بالغة حتى اسمعه يضحك .. ويلقى الى بالأوامر فأنفذها .. اليوم الثلاثاء ، على غير الميعاد .. ناديتـه وبدأت معه اللعب .. لاحظت زوجتى ذلك ، وكان قلبهـا لم يطمئن بعد على لقاء الطبيب .

فقـالت :

ـ وبعد .. أين تحلل الدم ؟ ! .

قلت ، وأنا أسرع الخطى على ركبتى وكفى :

ـ فى اى معمل .. دعينى الآن ، فأنا حصان ! .

❊ ❊ ❊

- ٢ -

فى الليل خلوت الى نفسى . أواجـه ما حدث مبـاشرة . أتأمل كلمات الطبيب .. يتسلل ضـوء الكهرباء من الخارج .. أبحلق فى سقف الحجرة .. ارى اشكالا متعددة الألوان متعددة الرؤى .. حيوانات .. وجوها كئيبة .. أشجار نخيل وتوت .. ثعابين سـامة .. تملؤنى رعبا .. لا أتبين ملامح اى شىء .. صور مختلطة .. لا أعرف تقاطيع وملامح الناس والأشياء التى تتأرجح فى الضوء .. سرحت فى الأيام الخوالى ..

منذ أعوام ، توقف قطار الأحزان عند نافـذتى .. ترك لى حزمـة من الحزن المقيم .. رجوته أن يكف عن اهـدائى مثل هذه الباقات الحزينة دون استئذان .. !

كنت اريد ان يمهلنى .. هل عـاد السخيف يحمل لى مفاجـأة أخرى ؟ ! . لا اسـتبعد ذلك رغم انى مازلت أشـم رائحة باقة الحزن القديم .. انتهت روايته ، وبدأت روايتى .. مات شـقيقى الطيب بمستشفى الأمراض العقليـة بعد أن سجن فيهـا خمســة وعشرين عاما .. كتبوا تقريرا يقولون فيه ..

الوفاة طبيعية .. شيخوخة مبكرة .. شربت حزنى وحدى حتى ارتويت ! . ما هـذه الأشباح السخيفة التى تطاردنى الآن ؟ ! .. أريد أن أنـام .. لكن هـذه الثعابين ترقد فى سقف الغرفة ، تتلوى متحدية .. تتحفز الى بخ سمومها القاتلة فى جسدى ! . وأنا صغير لدغنى ثعبـان ريفى طيب .. عصـبوا مكان اللدغ أسألوا دمائى بغزارة .. الآن تعاود الثعابين زيارتى .. هـل يسيل دمى بغزارة مرة أخرى .. قمت وفتحت نور الحجرة .. ذهبت الى المطبخ ، وضعت براد الشاى فوق « البوتاجاز » .. تعثرت قدماى فى صـالة الشقة .. سقطت ، فقمت مسرعا ، حتى لا يشعر بى أحد ! . نظرت الى صفوف الكتب .. كتب لها تاريخ .. بعضها قادنى الى طريقى السـليم .. وبعضـها نفاية ! . تتراءى الصـور أمامى ، حتى فى الضـوء المشع ، ثم تختفى ، ولا تبقى الا صـورة الطبيب « ز » ، وهو يومىء برأسه ، يدفعنى شكى وفضـولى الى أنه يخبىء عنى شيئا ما .. صـوته الهامس يتخلل أعصـابى ، بل يخترقها بلهب محرق .. قمت ونظرت الى وجهى فى المرآة .. كان وجهى ضـامرا ومذعورا .. وعيناى زائغتين . تحسست جبهتى ، ذراعى ، معدتى ، وفخذى، لأتأكد من وجودى وحضورى .. كدت أضحك مما أصابنى ، ثم عدت وابتسمت فى مرارة .. فى العادة عندما أقلق ، أفتح كتابا أحبه ، أعيش معه ، ينزاح القلق عن نفسى .

فى هذه الليلة كانت روحى وعقلى يصـدانني عن القراءة . خرجت الى شرفـة البيت أشـم الهواء .. كنا فى أوائل شـهر مارس .. الربيع على الأبواب ، وروائح الزهور والورود تتسـلل الى أنفى عطرة شذية .. وكانت علاقتى قد ازدادت عمقا برائحة الزهور .. عدت الى نشأتى فى بساتين الاسماعيلية بالشرقية ..

كانت شجرة الفل تفرش على كل نوافـذ غرفتى .. انـام على رائحتها اللطيفة .. وأصحو على ظلال فروعها الممتدة .. باعدت الأيام بينى وبين شجرتى ، لكن ذكراهـا لا تفارق مخيلتى .. الآن اصـاحب يمامة يملأ سـمعى صـوتها الشـجى الحنون ، أراقبهـا كيف تطعم صغارها .. تجيئنى رائحـة من حديقتى الصغيرة .. عدت الى سرير ولدى .. وجدته ازاح الغطـاء عن جسده .. غطيته ، ثم طبعت قبلة على خده .. تململ يريد أن يشرب .. شعرت بسعادة ورضى وأنا أسند ظهره الى يدى ، وكوب المـاء فى فمـه .. أطفأت النور .. عدت الى قوقعتى أطلب النجاة ! . من أى شىء ؟ ! . لا أعرف بالتحديد . تمددت على سريرى متعبا .. استغرقت فى نوم عميق .



- ٣ -

في الحادية عشرة من يوم الثلاثاء كنت أقف فى الطابور الطويل أنتظر دورى لأرى نتيجة التحليل .. كنت قد انتظرت نتائج كثيرة ، لكنى لم أشعر برهبة مثل التى شعرت بها فى تلك اللحظات . كادت الأرض تلف بى ، دق رأسى بصداع عصبى سريع .. كنت أريد أن أخترق الطابور لأعرف أى شىء .. جلست على احدى الأرائك متهالكا .. رائحة البدروم تزكم انفى .. زملاء من عمال المطبعة يروحون ويجيئون .. هذه الوحدة الطبية جامعة لكل التخصصات .. عيون وامراض بطن ، وصدر ، وتحليلات دم وبول ، واشعة .

لمحت صرصارا يجرى على بلاط الأرض .. تشاءمت من الوهلة الأولى .. دخنت خمس سجائر واحدة وراء الأخرى .. أصابنى نوع من الغثيان .. طفحت معدتى بالقىء المفاجىء .. فوضعت منديلى على فمى . هرولت الى دورة المياه .. كانت مشغولة .. وبجوار الجدار لم استطع أن اتحكم فى ارادتى ، فأفرغت ما فى جوفى .. عدت الى موقعى فى الطابور ، وانا مهزوم .. خانتنى عزيمتى !

دخلت على استحياء امام رجل المعمل .. سألنى عن اسمى .. نكس راسه فى الأرض .. وهو يقول : هذه هى النتيجة .. اخذتها ملهوفا الى الخارج .. تداعيت على احد المقاعد الهشة .. نظرت فى الورقة .. وجدت بعض العلامات الحمراء .. جريان البولينا فى الدم ١٢٥ البروتين ٨ جرام فى كل لتر .. عدد كرات الدم الحمراء من ٧ الى ٩ .. كمية البول فى الأربع والعشرين ساعة ١٨٠٠ .. السكر سلبى .. الكرياتنين ٩ مللجرام .. وتحولت الرؤيا فى عينى الى لون أحمر .. الورقة نفسها أصبحت حمراء بلون الدم .. لم أكن أفهم بالتحديد ماذا تعنى نسبة ارتفاع البولينا ؟ ! . لكنى مشحون بأفكار مثيرة .. أفكار كالاشاعات التى تلقى الرعب فى القلوب .. وهى صحيحة فى نفس الوقت ! .

كنت أهرب متحاشيا زميلى المريض بالبولينا .. اعرف انه سوف يموت .. القى اليه التحية بسرعة ومن بعيد ، كمن يريد أن يتخلص من واجب ثقيل ! . أشفق عليه ، لكنى لا احب أن أدخل عالمه .. اتطلع الى وجهه ، المح على تقاطيعه النهاية الفظيعة .. أشعر بالعجز تجاهه ، لكنى اريد فى الوقت نفسه أن افلت بمصيرى .. ولم تكن تربطنى به صلة حميمة .. مجرد زميل من عشرات الزملاء .. المهم كانت قصص البولينا تتجسد فى عقلى .. واحدة وراء الأخرى .. تحطم روحى .. وتساءلت بينى وبين نفسى ، هل أنا قادم على معركة جديدة ؟ ! أن فى بعض الأحيان تظل حياة الانسان تسير على وتيرة واحدة ، حتى اذا اتيحت له فرصة الدخول الى معركة ما ، فان جوهره الأصيل يفصح عن نفسه .. تتفجر فى داخله طاقات من المقاومة لا مثيل لها .. تتفتت فيه القوة .. كما تتفجر الذرة .. كنت اجر

خطواتى الى الطبيب مباشرة .. لم أنتظر الأتوبيس ، فالمسافة بين جاردن سيتى وميدان باب اللوق قصيرة .. دسست ورقة النتيجة فى جيبى .. وفى دقائق كنت أصعد السلم الى عيادة الطبيب « ز » .. شعرت بنوع من الطمأنينة فى حضرته .. ليست هناك فرصة لتأمل اى شىء .. اخذ منى ورقة التحليل ، ثم أومأ هامسا :

ـ مثلما قلنا .

اريد أن أعرف ، وفى الوقت نفسه لا أريد أن أعرف رغم تلهفى قبل دقائق لأستوعب ما حدث ! . بدأت فى لحظة واحدة أسلم نفسى اليه ، لكن الفضول عاودنى ، فسألت :

ـ ماذا ترى يا دكتور ؟ ! .

قال والابتسامة على شفتيه :

ـ خير ان شاء الله ..

وسحب روشته وقال :

ـ يهمنى الأكل بدون ملح ، ٣ وحدات بروتين فى اليوم ، واهم انواع الطعام التى يوجد بها البروتين مركزا هى ، البيض ، اللحوم ، ليس كل أنواع اللحوم ، السمك ، واللبن ، كوب لبن فى اليوم ، أرز ، بطاطس ، يعنى نشويات .. أى كمية تريدها .. أيضا اى كمية دهون .. سكريات كما تريد .. عسل نحل مثلا .. الأدوية كما اتفقنا ، مع حبات « الدوميت » ، ٣ حبات « لاسكس » ، ثم سحب ورقة صغيرة أخرى وهو يقول : اريد تحليلا بالأشعة الملونة على الكليتين .. ووضع القلم ، ثم قال : هذا كل شىء .

ولم أعلق بكلمـــة .. ماذا أستطيع أن أقول ؟ ! . المهم أن أطيع الأمر .. وضعت قدمى على أول طريق الشفاء .. هنــاك احساس داخلى يجعلنى أرتاح الى هــذا الطبيب .. أليس فى يده طوق النجــاة ؟ ! .. لم يمهلنى أن أجـوس فى هواجسى وظنونى . دق على الجرس فى استدعاء حالة أخرى .. رفعت قامتى ، وهى تقاومنى الى الانهيــار ! . تحــاملت متظــاهرا بالرضى .. خرجت الى الشــارع .. رأسى « يوش » بأفكار مبهمة عديدة .. لا أقدر أن أسيطر على واحدة منها .. أحاول أن أفرش لها أرضية صالحة حتى تستقر وتتضح ، تضرب بعضها بعضا فى معركة قاسـية مريرة وطيعة .. غشيت عينــاى فى الطريق ، فانزلقت قدماى .. سقطت على الأرض .. وجــدت ذراعا لا أعرفها تسندنى .. قمت أحمل عرفانى بجميل هــذه الذراع شــاكرا ، ودامع العينين ! . كنت أريد أن أبــكى . ارتحت لهــذه الدموع .. شفت الرؤيا فى ذهنى .. اللهم انى لا أسألك رد القضــاء ، ولكن أسألك اللطف فيه يارب العالمين . كانت الدنيــا تدور فى عينى .. والأشــباح تطــاردنى .. هم كئيب صــلد يركز على قلبى .. لا منفذ لهواجسى وظنونى .. وتداعيت على أول مقعد عند أول مقهى ! . كان هــذا المقهى له طبيعة خاصــة ، يدخل فى قلب سوق باب اللوق .. الرواد من الحمالين والباعــة الصغــار .. وكان أكثرهم يمســك غــاب « الجــوزة » بيده ، يشفط المعســل بلذة ونهم .. ورائحــة الحشيش تتخلل أنفى ! . تذكرت قريتى هنــاك ، مكانى المفضل وسط الفــلاحين .. أعرف جيــدا الطريق اليهــا .. تحملنى الأزمــات الى حضنها .. أشرب من لبنهــا ، وآكل من فولهــا وعدسها .. كانت آخر زيارة مع مجموعة من الأصدقاء .. طبيب شاعر ، بحبوح ، لا يحسب حسابا للنقود فى يده .. عقيد فى

الجيش ، بحبوح هو الآخر ، يهوى الفروسية ومصاحبة البنات الصغيرات ، وزوجتى وابنتى وابنى الصغير .. جلسنا وسط الحقل الأخضر ، يسمعنا الطبيب الشاعر آخر قصيدة كتبها .. وكنا نقطع الاستماع بين كل مقطع وآخر برشفات عصير عيدان القصب الأحمر اللذيذ .. شمس الشتاء حامية ، مددنا سوقنا فى الحقل .. أخذنا الصور التذكارية .. قطفت وردة قانية من احدى شجرات الورد القريب .. وطابت قرون الفول السودانى النيئة داخل راكية النار التى أشعلناها كركرة الجوزة لا تكف بيننا .. الشاعر الطبيب أكثرنا انسجاما واشراقا .. قفز ابنى فوق ظهر حمار .. هنا التحمنا بالأرض والأشجار والتراب والهواء والنار والحيوان .. وتدفقت الينا أصوات الطيور عن قرب .. فاكتملت لوحة الخالق المبدع العظيم ! . ونحن فى داخلها شموسه وأقماره التى تخفق قلوبها بتسبيحه والتبتل له ! .

أحن الآن الى هذه القعدة من جديد .. انه حنين ممزوج بالخوف .. سوف أذهب الى قريتى ، وقلق جديد يزحم نفسى .. تتراءى أمامى صور أصدقاء الطفولة ، منتفخى البطون ، متورمى الأعضاء .. كانوا يموتون خلال مدة وجيزة .. يتخطفهم الموت بسرعة غريبة وقاسية ! . أتعجب الآن ، لماذا نسيت هؤلاء الرفاق طوال هذه السنين ، ثم أتذكرهم الآن ؟ ! . ولماذا أدخل الهم الى صدرى فى هذه اللحظات ؟ ! . فلأستمتع بالشاى وسيجارتى .. اخترقت نظراتى بعض وجوه الجالسين بجوارى .. عيونهم ذابلة ، أجسادهم هزيلة ، وشىء مرير وحزين فى أعماق أرواحهم ، يناضلون للتخلص منه دون جدوى ! . هؤلاء الناس يستطيعون أن ينتزعوا الحياة من

بين كل عوامل الفناء والقهر . هذه ميزتهم منذ الفراعنة القدماء الى اليوم ! . كلنـا فى الهم مصر .. أبناء المدينـة مع أبنـاء القرية .. قعدة الفلاحين وسط « زرعة » البطيخ ، مثل قعدة هؤلاء الباعة فى هذا المقهى بباب اللوق ! .

كنت اتردد فى فتح باب الأحزان .. كثيرا ما أتذكر حدثا حزينا ، حتى يتسلل الى قلبى طابور من الأحـداث الحزينـة ، الحزن يجر وراءه حزنا آخر ! . وحزن المـاضى يلتحم مع أحزان الحـاضر .. درقة صلدة ، لا أستطيع أن أتحملها .. أحـاول أن أهرب منها بجلدى .. انه ليس حزن أحداث معينة ، بل حزن السـنين المكتوب على الجبين ، من الداخل والخـارج معا .. يطعننى فى الصميم ، كما يطعن الآخرين . اذا غاب شبحه قليلا ، فانه يتجسـد من جديد ، وبتنفيذ محكم سخيف ! . لا أعرف الى أين يقودنى ، حزن اليوم المرير ؟ ! . وأرجو أن تتلطف بى الأقدار ، فلا تحملنى ما لا أقدر عليـه . هل هى معركة ضارية أنا مقبل عليها ، أم أنه نوع من العسر الذى يتبعـه انفراج ؟ ! . أم بلاء مقيم لن أتخلص منه ؟ ! . ينبغى أن أرحب به ، حتى أروض حدته وعنفوانه الذى لا يرحم ! . ولم تطـاوعنى الأسئلة المستعصية على أن أستمر فى جلستى ، فقمت ولسان حالى يعبر عن نفسه : مرحبا بكل ما تأتى به الأيام ! .

- ٤ -

فى اليوم التـــالى كنت أقف أمام طبيب المؤسسة .. وجوه العمال فى لون الليمون الأصفر ، ســـيقانهم رفيعـــة ضعيفة .. انفردت بمقعـــد فى أحد الأركان .. المرض لا يعـــرف القـــراءة ولا الكتابة .. يبحث عن سيجارة بين الواقفين .. تزايل لون معطفه الأبيض ، فأصبح بلون القطران الأسود .. الطبيب يتصدر الحجرة ، لا يكف لسانـــه عن الشـــتائم البذيئة ، ولكن قلبـــه طيب ، وابن بلد كريم .. نظر فى وجـــه أحد العمـــال أمامـــه وقـــال :

ــ هيه .. شربت زفت امبارح ؟ !

رد العامل وهو يضحك :

ــ هو حد لاقيه دلوقتى .. انا لاقى فرخة آكلها يا دكتور !

قـــال الطبيب :

ــ أمال بتستبدل اللبن بفلوس ليـــه ؟ ! .. لازم تطفح اللبن .. فاهم ؟ !

ـ والأجازة يا دكتور .. ربنا يخليك ادينى يومين بس .

يضحك الطبيب وهو يقول :

ـ اديك أجازة عشان تروح تشتغل بره .. مش كده ؟ ! مفيش أجازة .. بلاش قرف .

ويرجو العامل :

ـ والنبى يا دكتور .. اجازة يومين بس .. يومين .. مش قادر أفرد طولى ! .

ـ خد يوم أهه .. يالله عنك ما أنتجت ! .

يطول الطابور ، ترتفع حدة الضوضاء ، تحتدم المناقشات الجانبية بين المرضى .. جو الغرفة خانق كئيب .. يترك الطبيب مكتبه غاضبا الى الخارج .. يحلف أيمانا مغلظة ، أنه لن يعود .. يستعطفه الواقفون .. يندفع فى طريقه .. يضحك المنتظرون لأنهم يدركون أبعاد الموقف . سوف يعود الدكتور بعد دقائق ، وهو يشتم .. يكون قد ذهب الى دورة المياه ، وأشعل سيجارة ، وشرب فنجانا من القهوة فى مكتب المدير ، وثرثر فى أمور السياسة ، فالانتخابات على الأبواب ، وهو يسعى الى ترشيح نفسه فى لجنة الحزب .. يندفع الى الغرفة مرة أخرى ، وكأن شيئا لم يحدث .. تتقمصه حالة جديدة .. يوافق على كل الأجازات .. يسألنى عن أخبارى .. أضع أمامه الروشته لاعتمادها ، ثم تحليل الدم .. يترك كل شىء حوله .. يتأمل الأرقام والأدوية .. يومىء برأسه أيضا .. انها نفس ايماءة الدكتور « ز » .. هل هى رمز ، أو كلمة السر بين الأطباء ومحللى الدم ؟ ! . يا لها من ايماءة تدخل البؤس والكآبة واليأس الى نفسى ! . تفتت قلبى .. تهز أعصابى ، تسيل همومى

واحزانى ! . وازداد فضـولى لأعرف ما الذى حدث ، لكنى فضلت الترقب . كان بصرى يتجـه الى شفتى الطبيب اللتين يحجبهما دخان سيجارته .. هدأت ضجة الحجرة بعض الشيء .. أمرنى أن أدخـل الى حجرة الكشـف .. تسللت دون كلمـة واحـدة .. تمددت على السرير الكالح .. رحت أجوب آفاقا جديدة من التوقع .. هـذه الحجرة تذكرنى بأيام الطفولة فى المستشفى المتنقـل الذى كانوا يعطوننـا فيه حقن البلهارسـيا المقيتـة .. لمـاذا تعود أيـام الطفولة ، بمثل هـذه السرعـة المفاجئة ؟ ! . كان الطبيب يسبنا أيضـا علنا .. يضربنا الممرض بعصـاه الطويلة الرفيعـة حتى ننتظم فى الطـابور ! . ما أبعد الفرق بين المـاضى والحـاضر ، ولكن ها هى نفس اللحظـات التعيسة ، تعود من جديد .. هل أبدأ الحقن مرة أخرى ؟ ! . فككت أزرار قميصى ، شربت جرعة ماء صغيرة .. شـعرت أن روحى مخنوقة .. تحليت بالصبر والانتظار .. الملل يسرى فى شرايينى .. أريد أن أهب نفسى للتجربـة ، لكنهـا لا تهون .. دخـل الممرض يطلب سيجـارة ، فلم أتمالك ضبط حاسـتى الفكاهية ، فابتسمت .. كان صـوت ماكينات المطبعة من أول دور ، يصلنى مقطوع الأنفاس .. كنت أحب فى هـذه اللحظات أن أجرى الى المطبعـة ، أستدفىء بمشـاعر الآخرين .. هـذه اللحظات الموحشـة تقتلنى .. لم أعد أسـمع الحناجر البشرية المحيطة بى ، حنجرة واحدة كنت أرقبها ، تبثنى بعض الأمان ، تلك هى حنجرة الطبيب .. ناديت من الداخل أتعجل الكشف .

حطت ذبابة صفيقة على وجهى . صفعتها بلطمة طائشة فى الهواء. كون الذباب مظاهرة حولى . زعقت فى سرى : يا فلول الذباب اغربى عن وجهى ! . لست خائفا ولا جبانا . وانحدرت شمس فبراير الشتوية الدافئة ، على ملاءة السرير القـذرة . آه من

ذكريات هــذه الشمس الحلوة ! . الآن تزهر عيدان الأذرة فى حقل قريتى . نوار البرسيم الأصفر يغطى مساحات شاســعة ، حبات الفراولة الرضيعة ، تفرش الخطوط الطويلة . البرتقال تكور على الشجر مثل أثداء بنات السادسة عشرة . ماء الجداول ينساب مشتاقا ليروى الأرض العطشى . وجدت يد الطبيب تلمسنى . انتزعتنى من عالمى المحبب اللطيف . الكشــف التقليدى يتم فى دقائق . ما يزال الطبيب يومىء بنظراته الى الأرض ، يتحاشى ان يواجهنى ! . عدنا للايماءة السخيفة المنكسرة التى تكسر قلبى . ما الحكاية ؟ ! . أرشدنى لطبيب الأشــعة ، واعتمد الأدوية . قلت له ، وكلمة تنطلق من لسانى ، وأخرى تعود الى داخلى :

ــ ماذا ترى يا دكتور ؟ !

همس بصوت واثق :

ــ تشخيص الدكتور « ز » حقيقى .

ــ هل أعود اليه مرة أخرى ؟ !

ــ بالطبع .. لا أريد أن أزعجك ..

ــ أراك بعد كشف الأشعة .

ــ شــكرا ..

انتصبت واقفاً بسرعة . هرولت الى مكتبى . قال لى أحد الزمــلاء :

ــ مالك ؟ .

قــلت :

ــ لا شىء ..

قــال :

ـ لا .. واضح انك مهموم .. تشرب قهوة ؟

ـ اشرب أ .

ارخيت اعصــابى . حاولت أن أتوه فى الخضــم . الآن ضاعت السكرة وجاءت الفكرة . هــل أقود زمام متاعبى ، أم اتركها تقودنى ؟ ! . لم استطع أن أقرر شيئا . حسبى أن احتفظ بطمأنينــة الروح . وهــذه عادتى فى الأزمات ، التى تعرضــت لها . هل ورثت هذه العادة عن امى أم عن أبى أم عن الفلاحين؟!. يبدو انها منهم جميعا ، لكنها عن أبى على وجه الخصوص . هذه الحياة البسيطة كانت تطبع وجدانى بطمأنينة الروح . وكنت أفكر فى ناس بلادى وفى أبى . طالمـا وقع عليهم القهر ! . انه مشوار طويل من القهر . وربما يثورون مرة واحدة ، لا يعرف أحد متى وكيف ؟ ! . وربما ينامون كأهل الكهف سنين طويلة ! . وكان مكانى محفوظا بين المقهورين والثوار معا ! .

- ٥ -

ولا أدرى لماذا تذكرت صديقى الفيلسوف الذى كان يزعم أنه يعرف كل شىء ، والذى كان يحاضرنا فى جحيم الآخرين ، فأنفس شىء يقع فيه الانسان أن يتلقى نظرات عيون الآخرين ! . كان صديقى قد قرر الا يتزوج ، لأنه لا يستطيع تحمل مسئولية انسان آخر ، ثم عاد وتزوج بعد هذه المحاضرات مباشرة ، وقرر أن ينجب طفلا واحدا ، وبعد عام واحد كان فرحا بمولوده الأول ، ثم راح ينجب بعد ذلك عاما وراء الآخر ، الى أن أصبح له سبعة أولاد وبنات .. وبمرور السنوات نسى الفلسفة تماما .. وتفرغ لمشكلات البنات والصبيان وأكل العيش .. وما يزال يقابلنا الى الآن ضاحكا .. ونحن نعبث معه من خلال الذكريات القديمة ! . انتهيت من شرب فنجان القهوة ، نظرت الى بقايا البن فى القاع ، قلبتها . كان يحلو لأمى أن تفتح الفنجان فى أوقات الصفاء العائلى عندما يزورنا ضيوف أعزاء . تتأمل مسرى الخطوط المتشابكة الصغيرة ، ثم تهمس فى كلمات متقطعة بأحداث المستقبل .. وكنت أعرف ما سوف تقوله مقدماً ، لكنى مع ذلك كنت أنصت اليها باهتمام .. فهذا فن الحديث مع الأحباب .. انت على موعد .. سوف تقبض فلوسا ..

هنـاك انسان يحبـك .. يفكر فيك .. أمامك سـكة سفر .. يساعدك قريب أو حبيب .. وقلبت فنجان قهوتى .. الخيوط متشابهة مع الخطوط القديمـة .. هل أنـا مقبل على سـكة سفر .. هل يساعـدنى حبيب أو قريب ؟ ! . لا استطيع أن أستشف من الخطوط شيئا . أين أنت يا أمى الآن لأسـمع منك الكلمات ؟ ! . الواقع أقسى من أى تنبؤ ، كبر ابنك الصـغير ، ولكنه ما يزال يتوق الى حنانك وتوقعاتك . عينـاك الطيبتان تملآننى حبا ، قطعة سكر من يديك ترد الروح ! . الطريق الى المدرسة الابتدائية محفور فى ذاكرتى .. المطر والوحل يكتنفه .. وأنت تخلعين حذاءك فى الخامسـة صباحا .. الطريق موحش وقفر ، ولكنك تدبين بقدميك ، لأنك صاحبة رسالة فى الحيـاة ، ينتشى الطريق بالحياة والأمـل . مرض السـكر اللعين ينهك جسـدك . أخاف أن يعرينى الزمن ، فأفقد غطـاء حبك وحنانك الغريزى الأصيل . أخاف عليك الموت ! هأنذا أصاب بالبولينا.. انه مرض قاتل هو الآخر .. لمـاذا يهددنا الموت معا ؟ ! . هـل تعلمين بالمرض الذى أصابنى ؟ ! . ليس فى نيتى ان أخبرك الآن. حسب أملك أن يظل موجودا معنا دائما ! . صـورتك فى عينى مثال للمقاومة والصبر . كفى ما تعانينه من الهموم ! . أرض الشرقية ما تزال تشـهد لك ، تعطيك وثيقة الشرف والكبرياء . كنت تكافحين أشرارا عتاة ، تلوين عنق الذل والخنوع . الآن تشرقين فى قلبى يا أمى كالمـاسة النقية الأصيلة ! . ولن أستكين للأحداث . شـدة وتهون ان شاء الله . وأرجو أن تدعى لى عند صلاة الفجر . وصباح الخير على عينيك ، عفوا ، فانى أخـرج من عالمـك المحب الى الخارج . الزملاء يصلون الصحيفة تباعا . اجتماعات الساعة العاشرة تبدأ . أجلس فى هـذه الاجتماعات كثيرا ، مسلوب الروح . انت يا تشيكوف فان عاجز . هـذه

شخصياتك المسكينة . وبئست بهـا من اجتماعات مغموسـة بالنفاق والكذب ! . لن أحضر الاجتماع . لا .. سوف أحضر . أتفرج واختبر وأناقش . أريد أن أخرج من همومى الثقيلة ، و أتخفف منها . كلنا فى القهر شرق ! . البولينا فى دمى . غدا سوف أذهب الى طبيب الأشعة . بدأ الأطباء يسلموننى بعضهم الى بعضهم الآخر . غدا الأشـعة الملونة بعد الأشعة العادية . الزمـلاء يحتـلون أماكنهم . مسرحيـة تتكرر كل يـوم ، مللت مشاهدتها . كل واحد يتحدث عن نفسه ، وأغلب الظن اننا ندور فى حلقات مفرغة من المناقشات العقيمة ، تنتهى دائما بأن تمتلىء مطفأة السجائر عن آخرها بالأعقـاب ! . وبعد الاجتماعات تبدأ التسويات الجانبية من المصالحات والخناقات والضجر السخيف!. كنت أجوب عالمى الخـاص . يشغلنى همى . وطالمـا انفعلت فى هذه الاجتماعات دون جدوى . ودخلت فى الحلقـة ، ملوث الرؤيا ، محبط الروح ! . أخرج منها متعبا ، مطفأ الروح . لا فائدة من هؤلاء الناس . انهم يعرفون كيف يحللون الحـرام ، ويحرمون الحلال ! .

وهذا هو كبيرهم يشعر بنهم غريب للحـديث . يريد أن يصنف كل شىء فى خانات محدودة ، حتى المشـاعر الانسانيـة نفسها .. لا يعترف بأحد .. سـوى ذاته .. يعتقد انه منقذ أرض الكنانـة .. وآه من مقالاته الدسـمة .. تقارير تسـد النفس .. الهدف أن يقرأها الوزير المختص وحده ! . الكتابة لوجه الشعب والله لا تخطر على البال ، لأن الله لا يدفع فلوسا ، ولا يعين فى مناصب ! . وكان كبيرنا هـذا كمبيوتر الثقافـة والأدب والفن والسياسة وكل شىء ! . يضغط على زر فى عقله ، فيطلع علينا التحليل أو التفسير او التقرير المطلوب من غير سوء

للناظرين ! . تماما كما كان يفعل سيدنا موسى حين يلقى عصاه ، فتنقلب حية ، تلقف كل ما يلقيه السحرة الجاهلون ! . ولكن للأسف ، لم يكن كبيرنا نبيا حقيقيـا ، وانما كان قزما يلعب بالعقول . لا يهمه وحدة العمل ، أو تأثيره فى الآخرين . وكان يتمنى أن يصنف العالم حتى يكون طوع يديه ، الدول والحكومات والمجتمعات والقبـائل والمؤسسات والأفراد ! . وكان يلذ له أن يعقد المقارنات بين عادات الشـعوب فى أمريـكا واوربا وآسـيا وافريقيا . يسحرنا بلسانه ومعلوماته . لكنـه أبدا لا يدخل القلب . وعندما كان المجتمعون ينظرون فى سـاعاتهم ، تنفض المناقشات ! . كلام فى الهواء . كل واحـد يبحث عن ذاتـه . مطحون من أعماقه حتى شعر راسه ! . ليتنى لم أحضر الاجتماع، ولكن لا بأس . يلذ لى أن ارى صـورتى فى المرآة بعض الأحيان. أريد أن أعود الى قوقعتى .. فى جيبى خمسون قرشـا ، آمل أن أشترى لعبة لابنى .. الفيلسـوف الفاشـل يريد أن يفرش ظله الثقيل على روحى .. بعد أن ابتلى هو بانطفاء الروح .. يسعى أن يضعنى فى خانة من خريطته . لكنى أجاهد حتى أخرج من محيطه .. أقول له فى سرى : دعنى أيهـا الجـاف ، عديم الموهبة .. لست أقوى على صراعك ، فأنت أقوى منى . حسبى أن أكتب كلمتى الصـادقة . اننى رجـل مخلص فى مدرسـة الحياة . كل زهوى أننى أنتمى الى تراب مصر . هل تسمعنى ، أم تتجاهلنى ؟ ! أنت ترفض كل شىء ، فكيف أقترب منك ؟ ! تحب أن تكون الأوحد دائما . ارجوك لا تعذبنى . كفى معاناتى مع قبح الحياة ! . انت مقهور مثلى ، فلماذا تضطهدنى ؟ ! . استعطفك أن نخرج معا من دائرة القهر الكبرى التى تحوطنا ! . هل اتاك نبأ سقوطى وسط الحقل منذ أيام بقريتى ؟ ! . كنت اسهر مع بعض الأصـدقاء الفلاحين .. خرجنا معا الى الهواء

الطلق .. كان الليـل يفرش عباءتـه على الحقول ، وأصـوات الضفادع والكـلاب تشرخ السـكون ، ورأسي يدور ويدور . وفجأة سقطت وسط عيدان الأذرة الخضراء .. وشـعرت بقلبى يخفق فى صـدرى بعنف . وغرقت فى عرقى . فقدت وعيى . أحاطنى الأصـدقاء الطيبون بالرعاية . عصروا لى ليمونة على ماء بسكر . وصحوت فى حضن القلوب الرحيمـة . وهـذه هى حياتى الأصيلة . أن أحب الناس ويحبونى . ولكن بينى وبينك مسافات ومسافات . ان من القلب لقلب رسولا كما يقولون . هل تدرك معاناتى فى هـذه اللحظات ؟ ! . دمى ملوث بالسموم . نحن مستعدون أن نتعلم بدون خوف وقهر ، بل تعلمنـا من الحياة والكتب أكثر مما تعلمنـا من النصـائح والوعظ السخيف ، والكلمـات الجوفـاء . وما فائدة الثقافـة ان لم تختلط بتراب الأرض ؟ ! . ونحن نبت الأرض فى ايامها السـوداء والبيضـاء على مر السنين ، فى حيرة هـذه الأرض وقلقها وأزماتها ! . فى وقوفها الصلب بوجه الغاصبين والغازين والمسـتغلين والمزيفين والمضللين .. فهل أنت مضلل جديد تريد أن تخدعنـا ؟ ! . ونحن نرفض الكهانة من أى لون وطعم ورائحة .. ونقبل على الحقيقة البسيطة ، أيا كان حاملها ! ، وبأى لغـة تقال ، حتى ولو كانت بالاشارات الخرسـاء . وانى الآن أحاول أن أفك الاصطلاحات الطبية ، فهل تتركنى أعانى فى هدوء ويقظة ؟ ! .



- ٦ -

فى السابعة مساء ، كنت أنتظر دورى فى كشف الأشعة العادى ، ثم الملون . زوجتى وابنى يجلسان معى . رائحة العيادة تنفذ الى أنفى . المرض متواضع الثياب . لم ألمح الطبيب بعد . حاولت أن أقرأ بعض سطور من صحف قديمة ملقاة على المنضدة امامى . سئمت هذه الكلمات . هذا هو الكذب القديم ، كفانى ما اعيش فيه من الكذب الحديث . نفس العناوين وتضخم الذات ! . تململ ولدى فى جلسته . كان قلقا وضيق الأنفاس . يرتمى فى حضن أمه . المرض يرمقنا من بعيد ، ثم من قريب ، بالنسبة اليه نحن خمسة أو عشرة قروش. سجادة الأرض تفتتت خيوطها تماما ، لم تكن تغطى الحجرة كلها ، حسبها أن تغطى مساحة صغيرة تحت المنضدة . اردت أن أقطع هذا الصمت السخيف ، فهمست فى أذن زوجتى :

ـ قعدة سخيفة .. اليس كذلك ؟ !

قالت تجاملنى :

ـ يعنى ...

قال الصغير :

ـ عاوز أروح البيت ...

قالت الأم :

ـ طيب يا حبيبى ...

كان المنتظرون يدخلون واحدا ، او واحدة ، بعد الآخر . يخرجون بعد عشر دقـائق أو خمس . المهم الآن ان أدخل الى غرفة الكشف لأنتهى . رأيت المرض فوق كتفى يقول :

ـ خلاص .. انت بعد ثلاث نمر .. ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .. وبعدين انت ١٨ .. معاك سيجارة ؟ ! .

اخرجت له السيجارة ، فعاد يقول :

ـ معاك كبريت لو سمحت ؟ ! .

ابتسمت وانا اشعل له عود الثقاب . دق جرس الطبيب ، فهرول الى الداخل ، واضعا سيجارته على المطفأة ! . نحن الآن فى شهر يناير . البرودة تتخلل جسدى . الليل والبرودة والمرض الذى يهد الحيل ، كيف تجيئنى الطمأنينة ؟ ! . بدأ الولد ينعس فى حضن أمه . ربت على ظهره أريده الا ينام ! . تململ معانقـا رقبة أمه بيديه . ها هى الأرقام تقترب .. رقم ١٦ فى الداخـل و ١٧ يستعد .. أشعر بنشوة الفرح لأنى بعد قليل سـوف اكون حرا .. انظر الى اركان هـذا القبو المتعفن ، فأشـعر بالقرف والغثيان .. خرج الطبيب لأول مرة من حجرته .. قصير القامة .. ممتلىء الجسم ، يميل الى السمنة ، متورد الوجـه كبائعى سمك السـواحل .. فى الخمسينات من عمره .. بطىء الحـركة . تأمل الزبائن دون أن يهمس بحرف . كان فى يده

فنجان من القهوة . يبدو أن هـذا الطبيب نيىء الشخصـية ! . هكذا صنفته بتعسف شديد ! . وأشـار الى الممرض ان يتبعه الى الداخل . ثم خرج الممرض بعد لحظـة ينادى .. نمرة ١٨ . قمت منتفضـا . انتابتنى راحة مفاجئة . ها هى اللحظـة التى انتظرتها طويلا . خطوت الى حجرة الكشـف . لفتت بصرى تلك الآلات المعلقـة طولا وعرضا فى سقف الحجرة وعلى الجدران ! . أمرنى ، وهو يضـع فنجان القهوة ، يدس قطعـة من اللبان فى فمه ، أن أخلع ملابسى . همست :

ـ كل الملابس .. ؟ ! .

قال وقد اطفأ النور :

ـ الخارجية فقط ! .

وفى الظلام رحت اخلع ملابسى قطعة وراء قطعة ، اتحسس مقعداً أضعها عليـه . وقال الطبيب وانا أسمع طرقعة اللبان فى فمـه :

ـ خـلاص ؟ ! .

ـ خـلاص ...

ـ طيب .. تمدد على هذه المنضدة ..

قـلت :

ـ انى لا أرى شـيئا سـوى هـذه الكـوى الحمـراء والخضراء ..

اشار بضـوء بطـارية فى يده الى المنضـدة التى تتوسط الحجرة . وقفزت مسرعا أتمدد عليهـا . اقشعر جسـدى من

البرودة القاسـية . كان سطح المنضـدة من الصفيح الناعم ، يختزن البرودة ، ويلسع لحمى ! . تجلدت . قال الطبيب :

ـ خذ نفس .. احبسه .. خذ نفسك تانى .. احبسه .. استرخ .. ارتد ملابسك .. ثم انتظر فى الخارج ! .

لم أكن أتوقع أن يأمرنى بالانتظار ! . عاودتنى الغصة فى حلقى . كنت أريد أن أهرب من هـذا الجو الخانق .. خرجت فوجدت الولد الصغير مستغرقا فى النوم .. وأمه هى الأخرى وضح التعب فى عينيها .. أشرقت حين رأتنى .. ثم عاد العبوس على وجهها عندما أخبرتها بأنى سـوف أنتظر .. فقلت لها .. لدى اقتراح .. اتركينى هنا .. ثم عودى بالولد الى البيت .. رفضت أن تعود بمفردها .. بدأت الهواجس تضرب صـدرى من جديد .. ما الحكاية ؟ ! . كلهم يكشفون فى عشر دقائق أو ربع ساعة ، ثم يخرجون .. الليل والبرودة والمرض والمشوار البعيد والطفل النائم .. متى أنتهى ؟ ! .

نادانى الممرض مرة أخرى . دخلت . نفس الطقوس . لسعنى صفيح المنضـدة ، الظلام ، طرقعة اللبانة فى فم الطبيب ، شهيق ، ثم حبسه ، ثم زفير ، ثم شهيق .. تجرأت قائلا :

ـ الا تكفى أشعة واحدة على الكليتين ؟

قـال الطبيب :

ـ لم تظهر الأشـعة بوضوح .. لابد أن نرى الأشـعة الملونة . وهـذا هو طلب الطبيب المعالج ، قم وارتد ملابسك ، سوف أعطيك حقنة فى الوريد لتظهر الأشعة الملونة .

قـلت :

ـ ان مشوارى طويل .. ومعى زوجتى وابنى الصغير ، هل استطيع أن آتى غدا ؟ ! .

قـال :

ـ يستحب أن ننتهى اليوم ، فغدا عندى لجنــة ، سوف انصرف مبكرا من هنا .

أومــأت موافقــا ، فليس فى الأمر شىء . مددت ذراعى اليسرى اليه . دفع الابرة فى وريدى . شعرت بحرارة تسرى فى دمى .

قـال :

ـ انتظر بالخارج عشر دقائق ..

لم يكن فى العيادة أحد من الزبائن غيرى . ازدادت رائحــة العفن فى حجرة الانتظار . انكفأت زوجتى على راس الصغير من التعب . رأيت فأرا يخترق الحجرة بسرعة فائقــة . كان الصمت يلف المكان ، والمقــاعد الكالحة قــذى للعين . وعلى الحــائط لوحة متآكلة لصياد عجوز فقير يقعد امام النهر . أحــال الزمن الوانها . كانت أمنيتى فى هــذه اللحظة أن استمتع بفنجان من القهوة ، ولكن كيف أطلبــه ؟ ! . تراجعت مكتئبــا حين اخترق الفأر الحجرة مرة أخرى ! . الساعة الآن التاســعة . وقطارات حلوان غير مضمونة . والدنيا برد . والبولينا فى دمى تسبح . اشعر بها حين أحك جسدى . وشبح المثقف المحبط يزاولنى ، وفأر الحجرة افصح عن نفسه تماما . لم يعد يخاف .. انه جائع يبحث عن رزقه فى الأركان .. واليدان الصغيرتان مسترخيتان من التعب على صــدر الأم الحنون ! . كنت اغلى من الداخل . نادانى الطبيب بنفسه هــذه المرة . دخلت . لم انتظر أوامره .

قمت بالطقوس المطلوبة ، وكأنى أصلى الى الله ان يمنحنى الصبر والقوة ... شهيق .. حبس الشهيق .. زفير ... قمت ! .

وقال الطبيب :

ـ انتظر ربع ساعة بالخارج .

الآن وحدى مع الصحف القديمة . امرأة تلقى بأولادها الثلاثة فى النيل ، ثم تلقى بنفسها وراءهم ! . وذهب العقيد (س) مأمور قسم قصر النيل الى مكان الحادث . المرأة من باب الشعرية ، ضاقت بها سبل الحياة . وفى الصفحة الأولى . انتصرنا فى معركة الشرف والكرامة .. الرئيس يصلى الجمعة اليوم فى مسجد .. أمريكا تفتح قلبها للعرب الأول مرة ! . انتشال جثث الأطفال الثلاثة .. الضفادع البشرية تبحث عن الأم .. مقال بعنوان : حتى لا تتكرر مأساة الأم الغريقة وأولادها ! . المغنى العالمى ـ السكندرى المولد ـ ديموس روسوس يغنى فى نادى الجزيرة . جلسة ساخنة فى مجلس الشعب حول الغاء الدعم عن السلع الشعبية .. أهالى الزاوية الحمراء يصرخون ويستنجدون بالبلدية . رجاء الى وزير الصحة .. أم محمد تستغيث .. خروج قطار الصعيد عن خطه .. ضحايا منتصف الليل يبلغون الثمانين .. الجرحى يبلغون المئات .. البحث فى الزمن الضائع بقلم الأستاذ الدكتور سليم . أحسست بالدم يسرى فى وريدى .. يبدو أن الأشعة سوف تنفع .. انتفض الصغيرة فجأة .. عدلته أمه فى وضعه .. استرخى بكل جسده فى حجرها .. الصياد العجوز يطل علينا من صورته .. اتابع مرور الدقائق كأنى أصعد قمة جبل عال .. أجاهد حتى أصل الى نهايته .. أطفأ الممرض انوار العيادة فيما عدا نور

حجرتنا استعدادا للرحيل . أطبق على صدرى ضيق سخيف ، لا خلاص منه . بدأ الصداع يتملك رأسى من الخلف . ضربات حادة قوية تطرق الجلد والشرايين والأوردة والأعصاب . قمت أذرع الغرفة جيئة وذهابا حتى أقتل الوقت . الى من الجأ فى هذه اللحظات ؟ ! . وكان دعائى الذى تعودت عليه لا يفارقنى.. اللهم انى لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه يارب العالمين . سمعت جرس الطبيب يرن فى أركان العيادة الخاوية . جريت اليه وقلبى يتوسل .. متى أنتهى ؟ ! . قمت بالطقوس التقليدية .. لكن نبضات قلبى كانت متدفقة خائفة .

قال لى :

ـ اهدأ حتى تخرج الأشعة سليمة .

تركنى دقائق . كادت الدمعة أن تفر من عينى . أخشى أن أنهار أمامه . وضع سماعته على صدرى ، وقال :

ـ عال .. شهيق .. أحبس الشهيق .. زفير .. شهيق .. زفير .

ـ حاضر ..

نسيت أن أضع رباط عنقى فى رقبتى . نبهنى وهو يقول :

ـ انتظر نصف ساعة فى الخارج ..

نصف ساعة أخرى . فوجئت بأمره . قلت وأنا أحبس ضيقى ومللى وسخطى فى داخلى :

ـ هل يمكن أن أفهم يا دكتور ، لماذا عدت هذه المرات ، فى حين أن من سبقونى كانوا يدخلون ثم يخرجون فى عشر دقائق فقط ؟ !

قــال الطبيب :

ـ انت اول حالة تواجهنى من نوعها .. انت عندك ايه ؟!.

تحليت بالصبر . فلمــاذا جئت اليه ، حتى يسألنى ؟ ! . كدت أتعثر فى مشيتى الى الخارج . ارتمى المرض على أحـد المقاعد متعبا ومنهوك القوى ! . أيقظته بلطف . انتفض منزعجا صائحـا :

ـ خلاص .. انا تعبت .. من السادسة صباحا الى الرابعة بالمستشفى .. ومن الخامسة الى الآن هنا .. انا تعبت خلاص.. خـلاص .. !

قلت مواسيا :

ـ يا راجل شد حيلك .. ربنا يعطيك الصحة ..

قــال :

ـ صحة ايه يا عم .. ربنا يدينى فلوس ! ..

وعدت الى الصحف القديمة . تجسدت فى خواطرى حادثة المراة التى رمت بأولادهــا الثلاثة فى النيــل امام سميراميس . الضفادع البشرية ما زالت تبحث عن جثتها .. ســواء وجدوها أم لم يجـدوها .. ماذا يضـير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ ! . هانت على مشكلتى أمام هــذه الفاجعة الفظيعة . تذكرت حادثة دندره ، وانا اغوص فى حادث قطار الصعيد . قلت محتجا : الى متى تظل أرواح الناس فى بلادنا رخيصــة الى هــذا الحد ؟ ! . ازدادت ضربات الصــداع فى مؤخرة راسى . بكى الصغير يريد العودة الى البيت . حملته امه تهدهده وهى واقفة . ارتميت على أحد المقاعد متعبا بجوار المرض . نزلت الضربات من راسى الى

ساقى وقدمى . زحفت جيوش النمل الى كل جسدى . كنت أريد أن أجد طوق النجاة عند هـذا الطبيب ، فاذا هو يخذلنى . يجردنى من ملابسى ثلاث مرات دون جدوى . وهو يباشر عمله ببرود لزج .. يبخل على بكلمـة طيبة . يعيش فى طقوسـه الخاصة . نادانى للمرة الأخيرة .. أعطـانى التقرير .. حجم الكليتين طبيعى ، وان كانت الكلية اليسرى أقل من اليمنى .. الأشعة الملونة لم تظهر الا بعد ساعتين ونصف الساعة .. تعجبت من أنه لم يعرف نوع الاصابة . الم يقم بكشـف على الكليتين بالأشـعة الملونـة من قبـل ؟ المفروض ان تظهر الأشـعة بعد خمس عشر دقيقة . وها هو قد دوخنى ثلاث ساعات كاملة ، ثم يسألنى فى النهاية .. أنت عندك ايه ؟ ! . وجدت زوجتى تسبقنى الى الباب الخارجى ، ومعها الصغير . أما المرض، فقد استيقظ من تعسيلته فورا .. اعترض طريقى .. أعرف مراده.. كدت أصفعـه .. لكنى مددت يدى فى جيبى باستسـلام .. أشرقت تقاطيع وجهه .. فرك أصابعه بود شديد .. دى حاجة بسيطة يا بيه ان شاء الله .. هرولت مسرعا الى الخارج ، وأنـا أدس التحليل فى جيبى ! .



- ٧ -

بدأت أدخل فى عـالم آخر . أعد الأيام والليـالى . متى يجىء موعـد الكشـف عند الدكتور « ز » ، وبعده بأسـبوعين موعد الاستشارة . كيف أرتب لقاء منتظما مع طبيب المؤسسة . هل هو تحد جديد أواجهـه ؟ ! . ربما تعودت على الصبر فى مواجهة المشكلات . لست وحدى . انها سمة المصريين من قديم الزمن . يصبرون يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، حتى اذا فاض بهم الكيل ، انتفضوا باصرار غريب . كنت أقرر فى ساعات معينة أن أدير ظهرى للمشكلة ، أن انظر اليها بحياد بارد . ماذا سوف يحدث ؟ ! . كان لدى احساس عميق وأنا شاب فى مقتبل العمر ، أنى سوف أموت صغيرا . وها هو الاحساس الفطرى يتحقق ! . ولكن لم أتعود أن أستسلم بسهولة . الأبدأ أولى خطوات المقاومة . هـذه الحياة حلوة .. وتستحق أن نعيشها رغم كل الصعاب . فى البيت تركت مجموعة قصصـية جديدة ينبغى أن أراجعهـا . الجـأ الى قراءة تشـيكوف الانسـان فهو يزيد عطفى وحبى للبشر . على هـذه الربوة ينطلق بصرى

عبر الرمال ، المياه المعدنية تتدفق بحرارة . الأقم واشرب جرعتين منها . برد فنجان القهوة امامى . شمس حلوان الدافئة تفرش أشعتها على المكان . اشتريت ترمسا وفولا سودانيا . رحت اتسلى وافكر فى أحوال الدنيا . هنا على هذه الربوة تتقافز ذكرياتى . هذا هو مكان الفندق القديم . فى شهر العسل تناولنا فيه طعام الغداء ، وشربنا البيرة . تمددنا على المقاعد الوثيرة . كنا نبنى احلامنا .. اذا أنجبنا ولدا ، سوف نسميه خالدا .. واذا كانت بنتا سوف نسميها منى .. لا .. نحن نريد ولدا فى البداية .. هنا كتبت بعض قصصى .. وبدات مسرحية « المطرود » .. ورواية « آدم الكبير » .. ضحكت مع الأصدقاء فى ليالى الصيف .. وكنت أجىء فى البكور الى هنا . ارتشف قطرات الماء وهى دافئة ، تخرج من باطن الأرض طازجة بعدها انتظر شروق الشمس وانا فوق الربوة .. تشرق روحى مع هذا الشروق .. أبتهج لأن يوما جديدا طلع ، تطالعنى صفحته .. أجرى على الرمال ، تلفحنى الدهشة والانبهار .. وددت لو كان لى كوخ صغير فوق هذه الربوة .. لكن لا بأس .. انى قريب منها .. وهى امتداد لبيتى .. ونحن نستطيع ان نمتلك الجمال .. اجمل الأشياء .. بالحب والشعور النقى ! . كانت هذه الربوة جزءا من كيانى النفسى .. ارتاح على صدرها .. تهدهد أحزانى .. هـأنذا الجأ اليها الآن .. أسمع همسها الحى :

ـ مالك يا عزيزى ؟ ! .

ـ فى نفسى ضيق ..

ـ خيرا اللهم اجعله خيرا ..

ـ بداية حـالة غريبة ..

ـ افصح عن نفسـك ..

ـ بايجاز .. انها قصة قديمة ..

ـ قديمة أو حديثة .. ما الحكاية .. حدثنى أرجوك ..

رشفت جرعة من فنجان القهوة البارد . كان طعمها كالعلقم فى فمى ، بصقتها من جديد ! . قلت : يا ربوتى .. لا أريد أن احملك ما لا طاقة لك به .. الشكوى لغير الله مذلة .. حنانك يفيض على صـدرى منذ سنوات .. لى أمل أن ازرع شجرة على أرضك .. أن أروى حبـات رمالك العطشى .. أن انبت شجرة فل أو ياسمين فى أعطافك .. جربت أن أزرع بيدى ليشم انفى ويأكل فمى وتتمتع عيناى ، فهل تمنحنى البولينا هـذه الفرصة التى أتوق الى تحقيقها ؟ . أطمع أن تظل الدنيا مليئة بالأشجار والزهور والطيور والأطفال والمياه والجبال ، وأن تظل انغام الموسيقى فى الكون ، وأن يعشش الجمال فى كل شىء ، وان ينتصر البشر الفقراء ! . لمـاذا يا ربوتى تذوين من الاصـفرار والضعف ؟ ! . لست أقل من قريناتك فى أوربا وأمريـكا . لك ماض ومسـتقبل وحـاضر . ما هـذه الغبرة على وجهـك اللطيف ؟ ! . اخلعى هـذا البرقع المنطفىء ، وارتدى يا زينـة الربوات ثوبك القشيب . اهو قضـاء وقدر هـذا التخلف .. ام هو من صنع أيدينا وغيرنا ؟ ! . تفجرت مياهـك المعدنيـة لا تحسب حسابا لشىء .. وهكذا الثورات العظيمة .. تعطى دائما .. ولا تأخذ .. عفوا يا ربوتى .. فهمومى السياسـية تختلط بهموم الطبيعة بالهموم الذاتيـة .. الكل فى واحد .. لا اشكو ولا اسخط ولا اضجر .. ولكنى اناجى .. وقلبـك

الحنون يستوعبنى .. يدخلنى الى رحابـه .. يحتضن اسـاى وحزنى وضيقى .. وانا اعرف ان المناجـاة ليست من طرف واحد .. فأنت تغلين من الداخل .. لا ينفرط عقد عنفوانك فى كلمات .. تطوين الرمل والحصى والمياه والرياح وذرات الضـوء واقمار الليل والنجوم على أسرار البشر المتعبين .. ومن لى من ينقب عن هـذا السحر المكنون بين جوانحك ؟ ! . انى عاشـق من عشـاقك الأقدمين .. فهل تغفرين لى هـذا الضيق الذى انفثه فى رحابك الودودة ؟ ! . وطوبى لكل المتعبين على ارض مصر المحروسة .



- ٨ -

عدت الى بيتى . كان الضحى مشرقا وجميلا . دلفت الى حجرة مكتبتى . هـذا هو عالمى المحبب . أغزل فيه الكلمات والصور والرؤى . هدايا الأصدقاء ، وثمار لعبة الكتابة اللطيفة المعذبة . مازلت ادفع اقساط ثمن الكتب التى اشتريتها. بينى وبين هذه الكتب مودات قديمة . انها هى التى انقذتنى من الضياع والابتذال . غيرت من سلوكى وطابعى . لم أعد جلفا كما كنت فى صدر الشباب . شخصيات القصص والروايات والمسرحيات تتقافز من حولى فى هذه القاعة . اتمطى فى عوالمها المتشعبة الخصبة . تأخذنى مع العالم الخارجى . أعيش مثلى واحلامى من خلالها . تدفع خطواتى الى محبة الناس والصراع الدائم من أجلهم . تملأ روحى بالتمرد والثورة والحنان . أتعكز على كلماتها عندما تدلهم الأمور فى حياتى . أرتفع الى السماوات العلا ، أحلق واطير بأجنحة فضية ، حيث سعادة البشر وراحتهم وأمنهم ! . ارسو قلقا على شواطىء الرخاء الروحى والعقلى . تمنيت ـ وما تمنيت على الله الكثير ـ أن أصبح كاتبا ، فأصبحت . وتناديت بقصص قريتى ، فحصلت

الاستجابة برضى الله . رضيت بالعـذاب والسجن .. فاشـتد عودى . هل تضيع كل هذه المودات القديمة مع كتبى ؟ ! . كل كاتب له طعم .. ولون .. ورائحـة .. وكل كتـاب فيه من صاحبه . وأنا المحب لها جميعا . أتنافس بدون حقد . أصارع بأسلحة صادقة بسيطة . لم أدخل من الأبواب الخلفية ، أو فى الظلام ، أو على أجساد الآخرين .. دخلت فى وضح النهار .. ومن خلال ترحيب الآخرين .. ولم أحمل أحدا نتيجة فشلى .. وأبحث دائما عن كوى الضـوء الشحيحة وسط الظلام المعتم .. هـل يقضي المرض على عـادتى هـذه ؟ ! . تمـددت أقرأ .. استغرقت مع الشعر .. سبحت مع موجاته الأثيريـة .. طافت صورة الشـاعر برأسى .. معذب ومريض هو الآخر .. لست وحدى .. كان تشيكوف ينزف الدم من صدره ، وهو يعشق الحياة .. يعيش فى حيـاة الآخرين .. ها هو الشاعر بدر شاكر السياب يواسينى :

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهمـا اسـتبد الألـم
لك الحمـد ان الرزايا عطـاء
وان المصـيبات بعض الكرم
ألم تعطنى أنت هـذا الظـلام
وأعطيتنى أنت هـذا السـحر
فهل تشكر الأرض قطرات المطر ؟ ! .
وتغضب ان لم يجدهـا الغمـام ؟ !

* * *

الآن تتضح بعض الخيوط . زبون دائم عند بعض الأطباء ومعامل تحليل الدم والبول والأشعة . ألفت الانتظار فى العيادات . عرفت كيف أفلت من الملل بالتحليق فى الماضى والقراءة الى ان يجيء دورى . أسعى الى ربط صداقة خاصة مع الأطباء . وكما كانوا يفحصوننى ، كنت أفحصهم أيضا . ولم أعد اهتم بقداس الكشف التقليدى ، والأهم ما هو جديد ؟ ! . والى أى الشواطيء سوف ترسو سفينتى المضطربة؟!. كل النظرات تنكسر عندما ترانى ، الشفقة تحوطنى ، العزاء يحتوينى ، والخوف يغلف عالمى كله ! . بدأ خط بيانى فى الهبوط المستمر ، أشباح اللون الأصفر تطاردنى على وجهى دائما ، وانحلال عام فى عظمى يأخذ طريقه فى جسدى . ما الذى الم بى فجأة ؟ ! . اصبحت انفر من اكل بيضة الصباح ، تتحول راسى الى صخرة خامدة ، كسول ، لدى احساس دائم بالنوم ، أتقيأ بعد كل وجبة طعام ، تسوء نفسيتى الى الحضيض ! . أريد ان أسهر ، العب ، اجرى ، اقرأ ، اضحك ، فتعترينى كآبة غريبة . يضيق الحبل على رقبتى يوما بعد يوم ! . هل هو حكم بالاعدام ، لا أعرف وقت تنفيذه ؟ ! . طوحت بذراعى فى الهواء ، فاذا الذراع تخذلنى ! . لم تعد ذراعى قوية كما كانت . الأنيميا الحادة تهدد عافيتى الطبيعية . ركبتاى تهتزان . عيناى تدمعان . نقمة اصابتنى والحمد لله رغم كل شيء ! . أنيميا وبولينا وانهيار روحى عنيف ! . اذهب الى الصحيفة ، أعود منها ، الاقى الأصدقاء ، أودعهم ، أحاول أن أقرأ فى كتاب ، اكتب بعض الكلمات ، لا يفارقنى وهم الشفاء مع حقيقة الهزيمة ! . وحدى مع الطبيب اتشاور والتقط منه حبات الأمل الضائع ، غدا سوف نغير نظام الوجبات .. ربع رغيف كل وجبة .. نزيد جرعة اللاسكس الى اثنى عشر قرصا .. حقن

مقوية .. أرجو أن تجدها فى مخازن الأدوية .. والقاعدة العامة ، الأكل بدون ملح ! . فقدت ملح الحيـاة .. وبالتـالى لم يعد لها الطعم الطازج الطبيعى الحريف . حدث لى ، أو هجم على فجأة دون أن أتوقعه . أصابتنى شيخوخة مبكرة . كبرت فى العمر عشرين عاما فى شـهور قليلة . خبأت هـذا الاحسـاس داخلى ، لم أفصح به الى أحد ، لكن مظاهره فضحتنى على رؤوس الاشهاد . أقوم .. أقعد .. أجرى لألحق المترو .. أحتضن صديقا .. أشـتاق الى زوجتى .. كل أولئك لم أعد أفعـله بسهولة وتلقائية .. صدمتنى الهزائم الصغيرة المتوالية ! . وفى مرة تأهبت لوداع الدكتـور « ز » فى عيـادته ، لكنى وقفت مشدود الأعصاب ، ضيق النفس ، أسأله :

ـ وماذا بعد يا دكتور ؟ !

قـال :

ـ نحن نحاول أن نصلح ما أفسده الدهر ! .

قلت وأنـا أضحك :

ـ اشكرك .. ما هى خطة الاصلاح ؟

قـال :

ـ المرض معروف .. وهو منتشر فى بلدنا .. أسـبابه فى معظم الأحيـان بلهارسـيا قديمـة .. عندما تصـاب خـلايا الكليتين بالعطب ، فانها لا تعود مرة أخرى الى الحياة ! .

واردف بعد فترة صمت قصيرة :

ـ خلايا الكلى وخلايا المخ لا تتجدد أبدا .

قـلت :

ـ وما رأيك فى العلاج بالكلى الصناعية ؟ ! .

ابتسم بذكاء وألفة طيبة ، ثم قال :

ـ ان الوصول الى الكليـة الصناعية مثل الوصـول الى القمر .. التكاليف باهظة !

قـلت :

ـ وهل هنـاك مانع أن أعرف ما يحدث بوصفى كاتبا .. حتى لو لم أعالج بالكلى الصناعية ؟ ! .

قـال :

ـ لا بأس .. استطيـع أن أرتب لك زيارة .. سـوف أرى .. سوف أرى ..

قلت مرة أخرى :

ـ أريد أن أعرف .. أريد أن أعرف .

ومنذ تلك اللحظة التى ابتسم لى فيها الدكتور « ز » ، أصبحت أشتاق الى تحقيق أمل جديد . ربما يجىء حظى بالعلاج بالكلى الصناعية ، رغم أن المستقبل غامض ومجهول . ربما تجىء ضربة الحظ ، فأنفذ من ثقب الابرة الى عالم آخر ، فيه الأمل والحياة . كنت أشـعر فى هـذه اللحظات أنى عثرت على كنز دفين . تفتحت لى طاقته السحرية . تشبثت بفرح حقيقى أشع من داخلى مبهجا ومريحا وسعيدا . وكنت أريد أن يملأ الوجود حولى . احتضنت الأمل الجديد الغامض فى صـدرى دون أن أبوح به لأحـد . تمددت مسـاربه فى روحى وعقلى ، تراودنى فكرة أن أخرج من ضيقى وكربى وكآبتى ! . لم تكن قـدماى

تريدان مغادرة غرفــة الطبيب . حبست الكلمات فى فمى اجلالا للأمل الغامض المرتقب ! . كنت والطبيب نتحــاور على طريقــة العارفين بالله .. كل واحد يفهم الآخر دون كلمــة واحــدة . أنا ارسم خطة حلم لا أدرى كيف يتحقق .. لكنه حلم لذيذ ممتع قد يضرب الحظ ضربته الكبرى ، فيتحول الحــلم الى حقيقــة واقعــة ! .

وتهيأت الى اليوم الموعود دون ميعاد . اتفقنــا أن أحدثه بالهاتف لتحديد الموعد . ورأيته يضغط على الجرس أمامه فى طلب حالة أخرى ، فانتزعت قدمى الى الوراء محييا .



- ٩ -

بعد أيــام كنت أقف على باب المستشفى الكبير . قدمت بطاقتى الشخصية . فحصها بأصابعه الخشنة . انه فلاح لا أعرف من أى قرية جاء ، المسافة النفسية بينى وبينه قصــيرة ، لكنه الآن فى السلطة ، فلابد أن يفصح عن قدراته ، سألنى :

ـ هل لديك كشف اليوم ؟ !

قــلت :

ـ لا .. انه موعد خاص مع الدكتور « ز » ، هل يمكن أن تخبره ؟ ! .

تركنى ليدير قرص التليفون . وبعد برهة سمعته يهتف معظما : حاضر يا أفندم ! .

وأشار الى أن أدخل . غمرنى شعور بالراحة والخوف فى آن واحد . انى أخــاف البوليس والجيش . أخشى السلاح فى أى يد ، ولكن هؤلاء الجنود ليسوا غرباء عنى ! . أعرفهم حين نقعد معا وسط الحقل ، نأكل معا ، نشرب معا ، نثرثر معا ، ونضحك

معا ! . والآن يفحصون بطاقتى . لا بأس . انهم يتنكرون فى غير ثيابهم التقليدية . واجهتنى حديقـة المستشفى . كنا فى يناير ، ولسعة من البرد تغلف الجو . غرزت عينى فى زهور الحديقة . كانت تحبو على وجه الأرض ، منتظرة قدوم الربيـع . أصبحت أرهب الموقف كلما قابلت طبيبا أو دخلت مستشفى .. لا أعرف ماذا تحمل لى الأيام من مفاجآت .. كلمـة واحدة ربما تفتح لى طريقا جديدا للعلاج .. نظرة او انكسارة عين ربما تملؤنى يأسا وقنوطا . كنت أحسب خطواتى . وقفت أمام الدكتور « ز » . كان بملابسه الرسـمية . أنيق ونابض الروح . تزين كتفـه النجوم وصقور الرتبة . سحبنى من يدى لأول مرة فى الفة . همس :

ـ تعال معى الى قاعة الكلى الصناعية ...

سرنا معا فى ممر طويل نظيف لامع .

أومأ فى مودة :

ـ ازيـك ؟

قـلت :

ـ الحمد لله ..

انحرفنا شـمالا الى ممر آخر ، ثم الى حجرة اسـتقبال صغيرة ، جدرانها من الزجاج ، ووراءها مباشرة تقع قاعة الكلى الصناعية . أشار الطبيب الى وهو يقول :

ـ الأسـتاذ .. كاتب وصحفى .. وهو فى نفس الوقت مريض ، يريد أن يرى قاعة الكلى الصناعية .

ابتسمت الممرضة الأنيقة ، رمقتني بنظرة جانبية . لاحظت وجهها الحلو . كانت ناعمة ، تشعر بزهو ، لأنها جميلة . أنقذتني من ترددى وقلقى حين اشارت الى أن اتبعها . الآن اخطو الى قاعة الكلية الصناعية . خلعت معطفى وارتديت معطف التعقيم . جال بصرى بالقاعة . لم أكتشف التفاصيل بعد . أنابيب عديدة تتلون بالدم تنتشر فى المكان ، وزجاجات معلقة على حوامل ، وفريق الأطباء والممرضات يتحلقن حول الأسرة . فى البداية لم افهم شيئا مما يجرى . بدات اتعرف على زملائى المرضى . كان الرعب يبين فى عيونهم . الهزال يبدو على أجسادهم . منكسرون صامتون مستسلمون لأقدارهم ! . صار همى أن أواسيهم رغم انى انا نفسى أحتاج الى المواساة ! . تحاشيت العيون والوجوه والأذرع التى تسيل منها الدماء الى الأنابيب . جاءنى احساس غريزى بالهرب من هذا المكان . لن أستطيع ان أبقى طويلا . جلست على حافة سرير مريض . كانت ساقاه رفيعتين مغضنتين، لكن قدميه متورمتان ، تبدوان مثل كرتين منبعجتين . شممت رائحة كريهة لا أعرف مصدرها . جاءنى احساس بالقىء المفاجىء ! . ليس قىء المرض ، وانما قىء القرف ! . تسللت الى اذنى أصوات الأنات واهنة وعميقة . وكلما مرت الثوانى ازداد الأنين ولوجا فى قلبى ، يمزقنى ، يسلبنى أملى ، يخفض هامتى الى الحضيض . نظرت الى وجه المريض ، لونه فى لون الليمونه الصفراء عندما يطيب نضجها . هل نضج هذا المريض للموت ؟ ! . كلهم مرشحون للموت القريب . تعتلى راسى قصص موتى الأيام الخالية ، أصدقائى من الفلاحين . همست لصاحبى :

ـ صباح الخير ..

انتزع الكلمات من فمه بصعوبة :

ـ صباح النور ..

قالها وهو يجدف فى عالمه . يخلص الحروف من فمه بجهد بالغ . كان قرفه قد استوى عودة تماما ، وبات غير راغب فى الحديث مع أحد !. يريد ان ينطوى على اناته ، نشيده المنظم الذى يخترق ذرات الهواء ، فيحولها هى الأخرى الى الم دائم ، معلق ومصلوب فى أرجاء قاعة الكلية الصناعية الفسيحة : سألت صاحبى :

ـ ومتى بدات العلاج ؟

ـ منذ شهرين ..

ـ وهل هى عملية قاسية ؟

ـ الحمد لله ..

ـ كنت مريضا بالبلهارسيا ؟

ـ لا ... أبدا ... كنت ضابطا فى الجيش .. رائد .

ـ وما سبب الاصابة ؟ !

ـ حكاية غريبة .. فى حرب ٦٧ ضد اليهود .. صدرت الينا الأوامر بالانسحاب من سيناء . وكان الجو لا يحتمل ظللت أجرى واجرى أربعة أيام متوالية ، تشوى قدمى الرمال الملتهبة .. نفدت المياه منا .. تهالكت على الأرض من التعب والعطش .. حملنى العريف الى أحد الأعراب .. قدم لى المياه .. ملأت معدتى عن آخرها لأشعر بالارتواء .. وفى نفس الليلة شعرت بشىء يتحجر فى ظهرى .. قصة طويلة .. الحمد لله .. الحمد لله ..

ـ والآن ؟

ـ أعيش أيامى على هذه الماكينة .

ـ هل تعرف كيف تعمل ؟

ـ لا . . .

ـ متزوج . . ؟

ـ كنت خاطبا . .

ـ وما الذى يضايقك . ؟ ! .

ـ العطش . . رجعت عطشان دائما كما كنت فى الصحراء ! .

ـ ولماذا لا تشرب ؟

ـ لأن الكليتين متوقفتان تماما . . ليس هناك بول بالمرة . . اشرب كوبا واحدا من الماء فى اليوم الكامل . .

ـ وفى أيام الصيف نفس كمية المياه ؟ ! .

ـ العطش يقتلنى !!!

ومرت سحابات الدموع فى عينيه ، فسحب منديله بيده اليمنى يجففها قبل أن تسيل على خديه . خانته رجولته فى الضبط والربط . كان يريد أن يفضفض عن نفسه . يسعى الى الشكوى الهامسة . طلب جرعة ماء على ذكر الماء . نهرته الممرضة بقسوة . . همس فى صوت ضعيف لا يبين . . لم أعد أطيق . . لم أعد أطيق . . الموت أرحم ! . صفرت الماكينة . . فجاء الطبيب يجرى .

انتهزت الفرصة ليسمحوا له بجرعة ماء ، فقلت :

ـ عطشان يا دكتور .. هل تعطيه جرعة ماء ؟ ! .

قال الدكتور وهو يبتسم :

ـ هل صدقته .. انه مريض متعب ... نصفى من جسده ثلاثة لترات من المـاء بين كل غسيل وآخر .. الاستسقاء سوف يقضى عليه .. انه ينتحر .. وقد حذرناه كثيرا .. يحلو له أن يكـذب .. صحيح هو ممنوع من شرب المـاء ، الا ما يبـل له ريقه .. ولكن عليه أن يروض نفسه على ذلك محمود مريض متعب ومعذب .. يعذب نفسه ويعذبنا معه ! .

وتركنا الطبيب وهو يضحك ، يصفق بيديه فى الهواء :

ـ السح الدح امبو .. ادوا الواد لأبوه ..

وتنقلب قاعة الكلى الصناعية المتجهمة الى ضحكات مرحة لطيفة . كان الطبيب يتمتع بحاسة فكاهية ساخرة ، ربما اكتسبها من هـذا المناخ القاتم الغريب ! . واضحك أنـا الآخر ، أقول لصـاحبى :

ـ شد حيلك .. ربنا يشفيك ..

حدث ذلك فى لحظة عابرة ظاهرية ، لكن قلبى كان يسقط فى صـدرى يائسا وحزينا الى آخر حدود الحزن . هل تحـكم على الأيام المقبلة أن انام ساكنا مثل محمود تحت رحمـة هـذه المـاكينة ؟ ! .



- ١٠ -

هرولت من المستشفى الى الصحيفة مباشرة . كانت تعج بطنين المطـــابع فى الدور الأرضى . لا أدرى لمـاذا أحتضن كل زميل اقابله ؟ ! . تعجب الزمـلاء من هـذه العواطف المتدفقة المفاجئة . هتف أحد الأصدقاء الظرفاء :

ـ انت نازل بوس النهـــارده يعنى على ودنه .. خلى شوية لبكره !

طلبت ليمونا ، وبجواره فنجانا من القهوة . وهـذه عادة المزاج عندنا .. أن نشرب كوب الليمون الكبير ، ثم نختم بالقهوة. كان بى توق عظيم الى شرب المـــاء . دردشــنا فى أمورنـا السياسية . لم نتفق ولم نختلف على شيء ! . كانت الفكاهـة الساخرة هى السائدة بيننا ، نعلق ونضحك ونتذكر أيام الاعتقال. كان الزملاء يتحدثون عن الديمقراطية النسبية التى يتمتعون بها فى الكتابة ، يفخرون بما حققوه من مكاسب . يثرثرون بمودة فيما بينهم . ضحكت وانا أهتف فيهم :

ـ يا أولاد ... هـل أفلت واحـد منكم من السـجن

أو الاعتقال طيلة العشرين سنة الماضية ؟ ! . غدا يلموننا كلنا مرة أخرى .. أرجو الا تتفاءلوا كثيرا بمظاهر الديموقراطية الكاذبة ! .

ضحك الزملاء قائلين :

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ ! .

وازدادت رشفات القهوة والليمون حدة . سرى تيار من ذكريات الماضى الكئيب حيث ذاق كل واحد منا مرارة الاعتقال . ارتسمت أمام عينى جحور معتقل القلعة . شاى الصباح الذى لا طعم له ، الحلاوة الطحينية والجبن المالح . الاحباط الذى كان يحط علينا جميعا . لم تطل اقامتى سوى بضعة شعور . هؤلاء الزملاء اعتقلوا خمس سنين عددا ! . لم أكن اقدر ان أحرك قدمى عندما خرجت من المعتقل ! . نشط الزميل العصبى فى جذب أنفاس من سيجارته التى توشك على النهاية . كم حرم الزملاء من السجائر والورق والقلم أثناء الاعتقال !! . وجدت أمامى كوبا من الماء لم يشربه احد . دفقته الى فمى مشتاقا . كنت أغرق فى عالمى الخاص رغم أنى أشارك الزملاء حديثهم ! . أريد أن أنسى لقاء الساعة العاشرة بالمستشفى ! ، أمحوه من ذاكرتى ، حتى ولو للحظات عابرة . انتظر النكتة المناسبة والقفشة والمفارقة لأضحك ، أو لأستدعى الضحك ! . أتمسك به كما أتمسك بالحياة ذاتها . أضحك لأثبت وجودى . فى بعض الأحيان بمناسبة ، وفى احيان اخرى بتوليد المناسبة . يضحك الزملاء لأنهم قد ضمنوا يوما طيبا يشعرون فيه بدفء المودات . كان للثرثرة معنى ، كما أن للخوف معنى ، وللاحساس بالحرية المؤقتة معنى . قرأ علينا أحد الزملاء مقتطفات من مقال عن الحرية

والخوف كان يزمع نشره فى احدى المجلات . ختمه بالسؤال التقليدى .. والسؤال الذى يطرح نفسه هو .. وعلق الاجابة على المقال التالى . وأنا أحب هؤلاء المثقفين ، وانفر منهم فى نفس الوقت . فهم يفجرون ألف مليون احتمال أمام الحقيقة البسيطة الواضحة الصادقة . يبنون المثل الانسانية ، حتى اذا ما تعثرت حياتهم فى فجوة من فجوات الواقع ، لا يستطيعون انتزاعها .. ! .

هناك فجوة بين الفعل والقول ، تعذبهم وتعذب الآخرين معهم ! .

ومع هذا ، فقد كنت أحس فى تلك اللحظات بدفء الأصدقاء والزملاء . هذه الدنيا جميلة ، وتستحق أن نضحى من اجلها ، حتى ولو منحتنا صديقا واحد . ازداد التصاقى بهم . اقتربت بمقعدى منهم . جعلت أنتظر الكلمات تخرج من أفواههم حارة ومتدفقة . من لم يرب أصدقاء ، كأنه لم يعش . كانوا يشجعوننى بالثقة لمواجهة المتاعب والمواقف الصعبة . وها هى الحياة المشتركة تثمر وتؤتى أكلها . ناجيتهم وحدى دون أن يسمعونى .. يا أصدقائى .. آه لو تعلمون الرعب الذى يحتوينى .. لا أريد أن أفتح جرحا فى جلستكم الانسيابية المريحة .. انا قادم لتوى من عالم المجهول والآهات والآلام . انى الآن فى مفترق الطرق .. قدم معكم حيث المثل والعمل والأشواق والآمال المشتركة .. وقدم أخرى لا تعرف طريقها .. تجدف وتنعى حظها من الحياة ! . أرجو أن تغفروا لى اذا سقطت منكم فى الطريق دون مقدمات .. اريد ان اكمل المشوار معكم .. ولكن عفوا اذا انهارت ارادتى .. اننا أبناء طريق واحد .. نختاره بأيدينا وعقولنا .. ولم يرغمنا عليه أحد ..

وعلينا أن نقلم رغبات الاستعباد والاستغلال فى أرواحنا . وأيقظنى زميل من خواطرى ، قال :

ـ لماذا صمت فجأة ؟ !

قلت :

ـ لا شىء .. ! .

قال :

ـ لا .. ليست هذه عادتك .. ماذا فعلت فى المستشفى ؟ ! .

قلت :

ـ حكاية شرحها يطول .. دعنا الآن من المستشفى .. لنضحك ملء قلوبنا ..

قال الزميل :

ـ صحيح عملت ايه ؟ .

قلت :

ـ سوف أحكى لك فيما بعد .. دعنا الآن نضحك ! .

وكررنا طلبات الليمون مع القهوة . أصبحت معدتى « تكركر » مثل الترعة الصغيرة . أشتاق الآن الى ترعة الحقل الصغيرة . اقعد بجوارها تحت الصفصافة وبيدى كتابى . الذى احبه . اقرأ وآكل الفول الأخضر والجبن القديم . أطرد شبح قاعة الكلية الصناعية عن عقلى ونفسى . ليتنى لم اذهب الى ميعاد الدكتور « ز » . الذى لا يعرف ، يعيش فى طوطمه

الغامض . أريد أن أهرب الى عالم آخر ، ولكن لا فـائدة .. لا فائدة .. الرباط يحكم حول رقبتى .. تضيق دائرتـه فى كل يوم . انجذب الى الأرض والأصـدقاء والعمـل والأمل الذى لا تبين ملامحه بعد ! . أروع ما فى هـذه الجلسة أن كبيرهم ، مختلط الروح ، لم يحضرها . لن يبقى منا أيها الأصدقاء ـ اذا كنتم صـادقين ـ سـوى أننا أحببنا الشعب . ولا أنكر أن منا من يضـلل ويكـذب ويدعى وينـافق ! . أليس كذلك ؟ ! . وما أرخص المقالات اذا صاحبها العزف المنفرد !! .



- ١١ -

طويت مخاوفى فى داخلى . أصبحت منقسما على نفسى ، مزدوج الروح . صـورة قاعـة الكليـة الصناعيـة لا تفـارق ذاكرتى . أتحسس خطواتى على وجه الأرض . كنت أريد ان أطير على كل الأماكن التى عشـت أو خطوت فيهـا فى طفولتى وصباى وشبابى ورجولتى . هناك طريق اعتقد انه آخر الصور التى تترسب فى عينى ، حتى فى أشـد اللحظات قسوة ومرارة وتعاسة . ذلك هو طريق قريتى القصير الذى تعودت أن أمشى فيه . ترعة صغيرة ، تحفها أشـجار الكازورين والكافـور من الشاطئين . صـوت اليمـام والعصافير يهدل فى الفضاء الساكن الأليف . عودة الفلاحين من حقولهم الى بيوتهم فى آخر النهار . لا أدرى لمـاذا ترسخ فى ذهنى هذه الصورة على وجه التحديد ، بمعالمها التفصيلية الدقيقة . كنت اتمنى أن امسك بصنارتى ، أقعد على شاطىء هـذه الترعة لاصطاد السـمك . الآن ضاعت الأمنية ، وحل بدلا عنهـا الواقع الكئيب . ولم تكن لى أمنيات صعبة الوصـول . كنت أود ان اصطحب شجرة ، أو مياها جارية ، أو صديقا مخلصـا . لمـاذا تريد هـذه الأمنيات التى

تحققت أن تفر سريعا من عالمى ؟ ! . كانت معظم حساباتى تنصرف الى المودات الانسانيــة . وتركت الحيـــاة تروضنى ، كمــا روضتها . الآن ينتفض الجسد انتفاضات غير طبيعية . انه يتمرد على فى معــركة عدائيــة . هل يتمرد الانسان على نفســه ؟ ! . قدر غريب . يممت وجهى تجـاه السماء ، أدعو الله أن يلهمنى الصبر والمقاومة والقدرة على التفكير السليم . ولم تكن دعواتى لى وحدى ، وانما كانت للعــالم كله ، فلست وحدى . وكنت ابحث وأفكر فى الأيام القادمة دون أن أعثر على كوة من الضــوء تنير لى طــريقى المحفوف بالمخــاطر ! . كنت اريد أن انسى . زادت ثرثرتى الفجائيــة مع الأصــدقاء . اريد أن أضحك من الأعماق ، أن أبكى بعمق من أثر الأحزان القديمة والجديدة على الســواء . أصلب نظراتى على الموجودات . اتذوق الطعــام من جديد . لم يعد له نكهة دون ملح . وكنا نقول : ان الانســان ملح الأرض .. فهــل ضاعت نكهتى ؟ ! . وما مصــيرى بدون فن ؟ ! . لا شيء بالمرة . كم مهمل ، يزدريه الآخرون . اذن لأكتب واكتب .. واقرأ واقرأ .. فالعزاء فى هذه الكلمات الناقصة . وانا لم أقل كل كلمتى بعد ! . من يعوضنى عن عافيتى التى بدأ الفناء يزحف اليها ؟ ! . هــل انــا مقبل على مغامرة لا أعرف حدودها ؟ ! . عشرات الأسئلة كانت تطرق راسى دون اجــابة شافية . كل الطرق مســدودة الا هــذا الطريق الشاق ! .
ان لم أستطع أن أحارب حربا حقيقية ، فيكفينى شرف الدفاع . ولم تكن لدى أسلحة باترة . أتطلع الى أفق الحــاضر ، فتعترينى رعشــة الضعف ، اهرب لآخذه فى حضنى . اجرى الى مدرسته. كان ولدى فى السادســة من عمره . جاءنى احساس عميق بالندم لأنى أنجبته . ما ذنبه ؟ ! . أنا جنيت عليــه ، وما جنى عليــه أحد . ليتنى كنت شجرة أو طائرا أو زهرة . ليتنى قطعة خشب

حتى لا اشعر ! . ثم أعود واستغفر الله .. وخلقناه فى أحسن تقويم ! . كان فنـاء المدرسـة مزدحمـا بالكتاكيت الصغيرة . يزغبون ويطيرون . أتلهف على رؤيته . عيناى تقتحمان الأكتاف والوجوة والأذرع والرؤوس حتى أعثر عليـه . لمحته يقف صامتا وسط مجموعة من رفاقـه . دق قلبى فى صـدرى من الفرح والدهشة ! . تماسكت أمامه وكأن شيئا لم يحدث ، لكنى بعد برهة رفعته الى صـدرى مشتاقا وملهوفا وخائفا عليـه من كل سوء ! . فبلته فسرى فى جسـدى تيار من الراحـة بعد طول عناء ، كما لو كنت ظمآن ، فشربت . ارتويت من محيـاه الصغير الدقيق . ذبت فى كيانه . كان ما يزال فى السنة الأولى . اتذكر الآن وقت ولادته بعد حرب ٦٧ مباشرة . هزمت مرتين ، مرة فى الحرب ، ومرة حين أنجبت هـذا الولد . كان رقم السرير الذى وضعوه فيه ثلاثة عشر . انى لا أؤمن بالنشاؤم ! . لا انسى أول لحظـة التقط فيها ثدى أمه . راح يرتشف اللبن الطـازج الدافىء بنهم ولذة . وكانت أمه سـعيدة ، فرحة به أشد الفرح . لحظة غريبة ومدهشة فعلا ، لا يعرفها الا الذين أنجبوا طفـلا . ضممته الى صدرى مرة أخرى ، وكان جسدى يشتعل بالحريق ، كأن به جيوشـا من النمل الصفيق . حبست الى عنوة رغم سياط النيران التى تشـوينى . حالة جديدة لم تحدث من قبل . هل هى حساسية فى الجلد ، أم اضطراب فى نسب أملاح الدم ؟ ! . لا أعرف بعد عمق ما أصـابنى ؟ ! . ترددت أن أطلق صرخـة تريحنى .. ولكن من يفهمنى ويواسـينى ؟ ! . حـككت ظهرى وساقى . . ولم يهدأ اللهب الحارق بعد ! .

وحاولت أن اتوه فى عالم الصغير ، فقلت له :

ـ ماذا درستم اليوم يا خالد ؟

رد على فى همس :

ــ اخذنا من واحد الى عشرة . ! .

قــلت :

ــ والحــروف ؟

قــال :

ــ أخذنا من أ الى س ..

هتفت به :

ــ لنعد الى البيت ! .

قــال :

ــ اشتر لى بمبون .. انا أحب البمبون ..

قــلت :

ــ هل تحب المدرســة ؟

قــال :

ــ احب المدرسة لأن بها اصدقاء وبمبون ! .

راح تيــار الطمأنينــة يسرى الى داخلى . خف ألمى وهو يقضم قطعــة من الشيكولاته . ركبنا معا العربة « الحنطور » . ينزعج الولد كلما ضرب الســائق حصــانه . وضعت حقيبتــه الصغيرة على فخذى . فكرت : لدى مســئولية تجــاه هذا الولد الصغير . مددت أصابعى تتخلل شعر رأسه . قبلته فى وجنته . ازداد وجيب الطمأنينة فى روحى . شىء غامض يسيطر على ، اردت أن اطرد شبحه ، فقلت :

ـ ازيك يا خالد ؟ .

قـال :

ـ كويس ..

كنت أطلب كلمة من فمه .. كلمة واحدة تستطيع أن تمدنى بالقوة والمقاومة . أريد أن أعبر جسر الهزيمـة الى شـاطىء الأمان . آه لو تعرف يا خالد كم أحبك ، وأنك عقدتى الوحيدة !. فى ذلك المساء جلسنا معا نشاهد برامج التليفزيون المسـلية . لعبت معه لعبته المفضلة . ركبنى كالحصـان . ذرعنا حجرات البيت . استوقفنى لآكل من الطعام الذى قدمه لى . قال لى :

ـ ماذا تأكل يا حصان ؟

قلت له وانا أضحك :

ـ كل شىء .. خاصة الفول المجروش ! .

ووقف على ظهرى يستعرض . شـد لجـامى وارخى ، فجريت . استهواه برنامج عالم الحيوان ، فأخذته منى زواحف البحر . ثقل رأسى كالعـادة ، حط على كسل غريب . استسلمت لوخم ثقيل رغمـا عنى . أراد أن نواصـل اللعب ، فاعتـذرت بصنعة لطافة . ضاعت فرصتى لأنسى ، وانغمر فى عالمـه . وفى آخر الليل شكوت متاعبى . قعدت معها على حصـيرة فى براح شرفتنا الفسيحة . ظللنا قمر « أربعتاشر » . فردت ذراعى عن آخرهما ، فتحت صـدرى أتنفس هواء نقيا . حلوان فى الليل . يا لها من مدينـة جميلة وهادئة ! . غدا موعدى مع طبيب تحليل الدم الدورى . من يدرى ما سـوف يحدث ؟ . لأرتشف حلاوة اللحظـة الحـاضرة . وغدا ليفعل الله ما يريد . كان الدكتور

« ز » قد قال لى « استمتع بالحياة » . ولم أكن ادرك معنى هذه الجملة فى البداية . الآن أعرف مغزاها . لعنت المعانى الغامضة كلها ، ليكن كل شيء واضحا ومحددا أمامى ! . صاحبتنى هذه الجملة فى غدوى ورواحى . كانت كنصل السكين المغروز فى قلبى . تؤلم ولكنها لا تميت . فى بطء شديد كنت أريد أن أزيحها ، لكنها كانت قد تملكتنى تماما ، تشتد ضرباتها ليلا ونهارا . أقوم مفزوعا على صوتها ، يعترينى الأرق وهى ترن فى أذنى . ولست بوهيميا حتى أزيد من عبثى ومجونى . كل همى أن اتأمل فكرة قديمة لموضوع قصة قصيرة . يبدو أن هذا الطبيب يخمن ، أو يعرف ، عدد السنوات أو الشهور التى سوف أعيشها . ليته يكشف لى الحجب . يزيد رؤيتى وضوحا ، لكن اطراقته كانت تزيد انكسارى وضياعى ! . ارتفع عدد السجائر التى أدخنها . وهذه كل متعتى . عندما أصرف مرتبى أعرج على مكاننا المختار مع الأصحاب ، نشرب قليلا ونثرثر كثيرا ، وغالبا ما تغلبنا الأيام والمشكلات فنبكى ! ، لكن أحلى صحبة مع صديقى الشاعر والرسام .لا نريد أن يقتحم عالمنا أحد ! . فنحن أصدقاء منذ أيام الصبا والصعلكة وضيق ذات اليد ! . فى بعض الأحيان يغيب أحدنا ، فيفقد المكان طعمه ورائحته ! . سعادتنا لا تتم ! . ولم يكن بيننا حساب . جيوبنا مفتوحة على بعضها . تعودنا على هذا المكان منذ أن كنا نبحث عن العمل . الآن تجمعنا الذكريات ووحدة الفنون والأحزان والأفراح المشتركة . لهب الأحداث يصهرنا فى بوتقة واحدة . هذه متعتى التى لم انقطع عنها بعد ! . وصحوت من تأملاتى على صوت الحبيبة :

ـ فيم تفكر ؟

قـلت :

ـ يعنى .. لا شىء .

قـالت :

ـ صحيح فيم تفكر ؟ ! .

قـلت :

ـ أحوال .. ربنا معانا .

قـالت :

ـ تشرب شاى .

قـلت :

ـ اشرب

ـ بحليب .

ـ بحليب .

وقامت تعمل الشـاى . لمحت قوامها فى ضـوء القمر . هـذه المحبوبة ساقهـا القدر الى . الزواج قسـمة ونصيب بصحيح . ولكنهـا .. ما ذنبها أن تعيش فى قلق دائم ! . خاتم الخطوبة بدون تاريخ ما يزال فى أصبعى . حبى يزداد لها يوما بعد يوم . الواقع يختلط بالأحـلام . لم أكتب قصـة حبى بعد . الذين يعيشون الأيام الجميلة لا يكتبونها . وجهها السمح يشرق على فى كل صباح مع اشراقة الشمس . ما الذى جمعنا على غير ميعاد ؟ ! . اريد أن أكشط الحيرة التى تستبد بهـا ، لكنى عاجز ! . خميرة الحزن تفصح عن نفسـها . فتشت فى

ذاكرتى عن كلمات موجزة ومركزة لأعبر بها ، فلم أجد . انتعشت انفاسى برائحة الفل والياسمين الآتية من الحديقة . لامست المكان كله ، فحولته الى روضة عطرة . هذه ليلة حبى أنا كما تقول أم كلثوم رغم الضيق الذى يلفنا . سوف نسعد معا . تسرى بيننا الوشوشات والهمسات والقبل ، ثم تجىء اللحظة الخالدة ، التى ننسى فيها كل شىء ، نتحد فى الوجود ، ويتحد الوجود فينا . نرتفع معا الى ذروة الحياة والتحليق ، وحلاوة البوح المجسد السامق .. ثم ننخفض معا رويدا .. رويدا .. نبدد الوحشة والخوف .. ننقر معا قشرة البيضة ، ليخرج الكتكوت ! . وآه من عظمة الانسان المستمدة من عظمة الخالق ! . وقد حاولت لذلك الا اكون منحطا ولا بذيئا ولا مبتذلا ! . وهأنذا الآن أمسك الشاى الدافىء . الاحظ مخارج الحروف من فمها الذى أحبه .. بل أحب كل شىء فيها .. حتى غضبها وثورتها وتمردها الأنيق الذكى ! . اتشمم حاستها على البعد . وتذكرت صديقى الذى كان يقول : انى لا اتصور اثنين .. رجلا وامرأة يعيشان تحت سقف واحد مدى الحياة . لكنى أقول الآن .. انى لا أستطيع أن أتصور أن يعيش واحد بمفرده تحت سقف واحد ، بل لابد أن يكون هناك اثنان وثلاثة واربعة . وهذه هى سنة الحياة وتناقضاتها ونموها أيضا ! . فمن كان يجلس معى فى هذه الساعة الموحشة ليعمل لى الشاى بالحليب ، ثم يرسم لى الأحلام الطيبة ؟ ! . من يقلق من أجلى ؟ ! من يصبح حبيبى حتى افكر فيه لأسعده ؟. الوحدة هى الجحيم بعينه ، وليس الجحيم هو الآخرون ! . ولهم دينهم ولى دين . ومع آخر رشفة من فنجان الشاى همست المحبوبة توءم روحى :

ــ الا تريد أن تنام ؟

ــ الليل هادىء وجميل .

ــ وأجمل منه أن نفكر معا ..

ــ نعــم ..

ــ نريد أن نزرع حديقتنا .

ــ صحيح .. لا تكفى تلك النخلة الشيطانية .. لابد أن نزرع شجرة مانجو .. واخرى برتقال ..

ــ ومن أين نحصل على الشتلات ؟

ــ ليكن لنا مشتلنا الخــاص .. كان حلمى القــديم أن اكون فلاحــا ..

ــ أحب حيــاة الفلاحين ..

ــ ولكنك نشأت وتربيت فى المدينة ..

ــ منذ أن ذهبت الى قريتك وانا احب الفلاحين ..

ــ لنذهب معا قريبا ..

ــ ان شاء الله ..

ــ غدا موعدى مع طبيب المعمل .

ــ والى متى تستمر هذه التحليلات ؟

ــ لا أعــرف ..

ــ سوف أذهب معك غدا ..

ــ ليس هناك ضرورة لذلك ..

ـ لابد أن أذهب .. لابد .. !

ولفنا نحن الاثنين الصـمت . كنـا نبحث عن مخرج من أزمتنا . ولم يكن أحد منا يفصح للآخر عن مخـاوفه . هـذه لحظات القسمة والنصيب المشترك . علينا أن نحمى عشنا معا . كيف نتحصن داخله ضـد الهجوم الضارى ؟ ! . وقفنا كالصخرة معا نتأمل ونفكر فى الموقف . الراس مع الرأس ، والاحساس مع الاحساس ، والخوف مع الخوف . وكان الضياع يحتوينا فى هـداة الليل ، وانبلاج السـماء عن القمر الذى يواسينا فى ليلته الرابعة عشرة ! . انه يهمس فى آذاننا .. أن لا يأس ولا قنوط من رحمة الله .

ونتسلل نحن الى نوم مشوب بالحذر والقلق .

* * *

- ١٢ -

سرت على الدرب كمـا يقولون . غرز الطبيب الابرة فى وريدى . خرج الدم أحمر قانيا . أفرغه فى أنابيبه ، ثم كتب عليها الاســم والتاريخ . تشعبت التحليـلات . شىء ما كان يدفعنى للاستسلام لأيدى الأطبــاء . ربما كان المرض والأمـل فى الشفاء ؟ . نحن نخــاف الألم ، ولكن اذا كان الألم فى سبيل الحياة ، تحملناه . وكان حظى طيبا ، اذ كانت أوردتى واضحة ، لم يتعب الطبيب فى البحث عنهـا كثيرا . شاهـدت عـلامات الارتياح على وجهه ، لكنى انزعجت من كميـة الدم التى اخذها بعد ان مددت ذراعى وانا راض ! . نحن فى اول الطريق . مازلت فى محاولة اكتشافه . احسست بنوع من الراحة بعد أن انتهى الطبيب من اخذ العينات . طلب منى ان أجمع له حصيلة بول يوم كامل . تحيرت فى هـذه المشـكلة . كنت « أفك حسرتى » فى بعض الأحيان فى الخـلاء ، يلذ لى ذلك ، لأنى تعودت منذ الطفولة على هـذه العادة . أخضب الأرض بمياهى . عـادة قروية .توكلت على الله أن أتخلى عنها عند الضرورة . خرجت

ومعى الأوعية . كان لطيفا . فى ذلك اليوم اصطحبت محبوبتى الى « كابريتاج » حلوان ليلا . الأضـواء الخافتـة تريحنى ، طلبت زجاجة من البيرة ، ثم سرحت . هـذا الوجـه الأليف يواجهنى الآن . تناجينا فى همس ودود . قبلت يدها . عادت أيـام الحب على غير ميعـاد . كنت محتاجا اليه وسط عنف الواقع وقسوته . تذكرت محطة الأتوبيس التى كنا نلتقى عندها فى مفترق شارع ٢٦ يوليو ورمسيس . بعد العمل . كانت تحمل حقيبتها الصغيرة ، الأنيقة ، ترتدى معطفـا أخضر ، تحمل على صـدرها رواية الحرب والسلام لتولستوى . تخرج الكلمـات حلوة ورقيقة من فمها . لمسة . من أصابعها تجعلنى أطير على جناح الخيال ، هل أحظى بلقاء طويل معها ؟ ! .

كانت محبوبتى تنكمش على نفسها ، من النوع المتأمل . لا اعرف هل تحلم مثلى أم لا ؟ ! . ارتشفت جرعة من عصـير البرتقال وقالت :

ـ ما أحلى ليل حلوان الجميل . ! .

قـلت :

ـ هل تذكرين أيامنا الأولى ؟ .

قـالت :

ـ كانت أياما حلوة ..

قـلت :

ـ ليتها تعود !

قـالت :

ـ اليوم الذى يمضى لا يأتى مثله ! .

قــلت :

ــ كانت أيام الأمل والحب ..

قـالت :

ــ هل تضيع الأيام ؟

قــلت :

ــ لا ...

هــدأة الليل والذكريات تضمنــا . نام الولد والبنت فى سريريهما . جعلت أفكر فى مخلوقــات الله التى قابلتنى فى ذلك اليوم . كانوا يتبارون فى النفــاق ، يهرولون فى سبيل مصالحهم الذاتية . كنت أعيش بروحين ، ألجــأ الى قوقعتى الذاتيــة ، التى لا أريد أن يقترب منهــا أحد ، وأعيش معهم على نفس الأرض المضطربة ! . أريد أن أنزع قدمى من العفن والتصــدع دون جدوى ! . انها ليست أرضى ولا ســمائى . انى أتطلع الى أرواح غير مقهورة ، وعقول غير مغلوبة على أمرهــا . ســوف يتغير رئيس مجلس الادارة . أرى الحسرة والمرارة على وجوه أتباعه المخلصين ، كما أرى الترقب وانتهاز الفرص على وجوه الآخرين . ســوف ترحل « شلة » وتجىء «شــلة » أخرى . والحال كما هو عليه . يا عباد الله تعالوا الى كلمــة سواء ، لمــاذا تمتهنون نفوسكم الى حد الاذلال ؟ ! . هل من أجل قطعــة من الفضة تخونون الشعب الذى انجبكم ؟ ! . انكم أبنــاء حرام وأوغــاد . كان المقت يبلغ بى المدى حين أرى الحضيض بعينى دون أن أستطيع تغييره ! . وهؤلاء المدعون الكاذبون كانوا يمتطون صهوة الأفكار ، حتى اذا بلغو مرادهم من المناصب ، صمتوا عن كل شىء ، بل يروحون يشرعون للباطل . وكنت فى قلب هــذا

السوق المكتظ ، لا أجد خلاصا الا حين اترك الصحيفة لأنطلق وحدى مع همومى واحزانى . أسير مثقل القلب ، معذب الضمير . الآن تريد محبوبتى أن تنتشلنى من تأملاتى ، لكنها تحترم صمتى ! . قالت :

ـ دعك من التفكير .

قلت :

ـ يعنى ...

ونمت ليلتى مكتئبا . تطوح بى الكوابيس الثقيلة ، والأحلام المفزعة !

* * *

- ١٣ -

وانا اغمس اللقمة فى طبق الفول ، كنت فى حاجة الى الحنان . حنان الأرض والأهل والأصدقاء ، وحنانها هى على وجه الخصوص ، هو الذى تربيت عليه . كان الغطاء الطبيعى الذى أتدثر به فى وقت الأزمات . اشعر جوارها براحة عميقة تنسينى الهموم . اننا لا تكبر فى عيون أمهاتنا . اشتقت الى عالم الرضاعة الحنون ! . من يدخلنى الى الرحم من جديد ؟ ! . هذا ما أحلم به . ومن الغرابة أننى أصبحت رجلا ، وينبغى أن أتحمل تجاربى بمفردى . الأم تعانى من الشيخوخة ومرض السكر اللعين . أريد أن تلمس كتفى ، ثم تقرأ الفاتحة وسورة النصر ، وتدعو لى فى صلواتها الخمس ، خاصة صلاة الفجر التى تقوم بها قبل طلوع الشمس ! . انى احتاج الى دعاء الأم . اسبح الآن فى نهر الرضى والقبول . هل اتوجه الى حى الزيتون .. حيث تخترق الأشواق الأثير ؟ ! . تحط هناك على معطفها القديم ، وفى ثنايا طرحتها السمراء ، وعند مفرق شعرها الأبيض ، يا كم لعبت بها السنون ! .

أتذكر هــذا الوجه الصبوح فى شبابه . كانت أمى سمحة المحيا ، حلوة التقاطيع ، ممتلئة الجسم ، لطيفــة اللفتــات ! . ما اقسى الأيام ! ! . لا بأس ، ما يزال فى صــوتها نفس نغمــة زمان . ان الســنين لا تستطيع أن تغير من أصــواتنا . حين تتدفق فى التليفون ، أشعر بأنها ما تزال فتــاة فى العشرين من عمرها ! . تأخذنى الذكرى على جناحيها . فى الصباح المطير ، تخلع حذاءها عبر الطريق الموحل ، الذى يصــل القرية بالمدرسة فى المدينــة . تتوهج بالآيات المنجيــات والدعوات . تعود من طريقها اذا قابلت احدى النسوة تحمل جرة فارغة ، فهى تتشــاءم من أى شيء فارغ فى الصباح . . تعتقد أن حاجتها لن تقضى مهما بذلت من مسعى ! . تتحول الى طريق آخر ! .

ترمقنى بنظراتها الشفوقة . كنا نذهب فى ذلك اليوم لأنى لم استطع أن أدفع المصــاريف . وكانت تعود الينا فى كثير من الأحيان ، وفى يدها سلة الطعام الجــاهز . تحمل الجرة لتملأها من الترعة رغم أنها لم تتعود على ذلك . بعد صــلاة الفجر تقعد مسترخية ، وأمامها فنجــان القهوة والسيجارة بين أصابعهــا ، والحكايات تتدفق من فمها . فى الليل ننكمش بين أعطافهــا ، أسراب الناموس تضايقنا ، نشعل القش ، حتى يطرد الدخــان جحافل الناموس . بيتنا يقع على أرض ملحية ، حمضية الطين. يقفل بطريقة المزاليج الخشبية الطويلة . أحن الآن الى هــذا البيت رغم حيــاة الشظف التى كنا نحياها . كنت أنطلق الى الترعة لاستحم ! . تسللت جرثومة البلهارســيا الى جســدى منذ تلك الأيام . نذهب الى المستشفى المتنقل كل عــام ، وفى العودة الى البيت ، أخلع ملابسى لألقى بجســدى الى الترعة . ردمت هذه الترعة ، ففقدت قريتنا شريانها المهم . الآن أحتــاج

الى حنان الأم والذكريات . لماذا نتمسك بذكرياتنا فى لحظات الخطر ؟ . ربما ليمسك كل واحد منا بجذوره الممتدة فى الأرض مع البشر ! . اننا لا ننتمى الى الحاضر وحده . البولينا تسبح فى دمى ، والشيخوخة تدق عظامى ، وآه لو فتحت باب الاعتراف . لماذا تحط على قلبى هموم الماضى ؟ ! . اردت ان أهرب الى الذكريات الحلوة ، فاذا الشعور بالأسف يحتوينى. من ينتشلنى من حيرتى ؟ ! . الأم تعانى والاخوة يعانون والزوجة تعانى . فأين كف الراحة التى ترعانى ؟ ! . كانت اللقمة لا طعم لها . كوب الحليب فقد لونه الأبيض . عافت نفسى طعام الصباح . تجمدت فى مكانى ابحلق فى سقف الغرفة . القيت بالصحيفة جانبا . الصفحة الأولى تطل منها عين الدكتاتور تملؤنى خوفا .. حتى قبلة الصباح على جبين ولدى ، ضاعت منى خلال هذه التأملات الحزينة . دق جرس التليفون :

ـ آلو ..

ـ آلو ..

ـ هل عرفت الأخبار ؟

ـ خير .. اللهم اجعلها خير ..

ـ هناك اشاعات بتغيرات فى رؤساء مجالس ادارة الصحف ..

ـ الرجل المناسب فى المكان المناسب .. اليس كذلك ؟

ـ هذا هو الشعار المستهلك ..

ـ فى رايى أن ضابطا سوف يذهب .. وآخر سوف يجىء ...

ـ لا .. بل شـلة سـوف تذهب .. واخـرى سـوف تجيء ! .

ـ ليكن .. هل من تغيير حقيقى ؟ !

ـ لا اعتقد ..

ـ اذن صباح الفل .. هل اكملت روايتك ؟ !

ـ لا استطيع أن اعمل فى هـذا المناخ المضطرب ..

ـ اكمل الرواية أحسن شيء ..

ـ وما اخبـارك ؟ .

ـ كنت بالأمس عند الطبيب ..

ـ وماذا قـال لك ؟

ـ عنـدما نلتقى سـوف احـكى لك .. كيف احـوال مجموعتنـا ؟

ـ « ش » غارق فى الفن الشعبى .. و « ع » ، فى رحـلة الى أعـالى النيل .. و « ص » فى رحـلة الى الصحراء .. و « أ » يعود من الكليـة منهكا من التدريس .. انتهى من روايته هو الآخر ! .

ـ و « ب » ؟

ـ يشرح قضيته العامية لكل من يقابله .. انتهى من كتابة مجموعة قصصية جديدة .. وانت هل كتبت شيئا جديدا ؟ .

ـ يبدو انى مقبل على رواية جديدة لم اكتبها بعد .. اننى مازلت فى المقدمة .. من يدرى هل اتمها أم لا ؟ ! .

ـ يا شيخ .. لا تقل هـذا .. عودتنا على التفاؤل ..

ـ احوال يا عزيزى .. احوال ..

أن « ندردش » مع الأصدقاء ، أن ننظر معـا الى طريق واحد ، هـذا يريحنى . يجعلنا نعرف موضـع أقدامنا . نجاهد للتخلص من مشكلاتنا . ولن تكون سعادتنا فى التخلص من همومنا الذاتيـة وحدها ، انما بالتخلص من هموم الوطن كله . عزاء قد يكون صحيحـا وقد يكون سخيفا معـا . عز حنـان الأحباب على صدرى . هل من معجزة تعيد للروح اتساقها ؟ ! .

أشعلت سيجارة الضحى مع تشيكوف الانسان . أسلمته عقلى وعواطفى . راح يحـدثنى بصـوته الهامس الأليف .. خليك مع الانسـان فى فرحه وأسـاه .. ولا تقس على البشر .. الكلمات الصادقـة تفعل فعل السحر فى نفسى وروحى .. تعودت أن ألجـأ الى تشيكوف فى كل حين .. ميزته أنه لم يكن يخـاطب انسان روسـيا وحده .. وانما كان كل همه أن يخاطب الانسان فى كل مكان .. وهـذه عظمته .. يفهمه ويشعر به ست البيت والطالب وقائد الجيش » وحتى القوادون والسـفلة والمنحطون يدخل قلوبهم . كل ذلك لأنه يخاطبنا بصـدق . وكان الدم ينزف من صـدره الحنون الضعيف وهو يقدم رحيق الحيـاة الى كل الناس ، صافيا وشافيا وملهم الحنان ، كما كان ملهم الغضب والثورة فى آن واحد ! . ومن بين اثقـال الكرب الواقعى ينفرج بابـه ، يسـمح لى بالدخـول . وهأنـذا فى حضرتـك الودود يا تشيكوف . اغرق فى بحرك الزاخر الخصب . هل تأذن لى أن أناديك : أخى ، كلمـا احتجت اليك . وانت اخ للانسانيـة كلها . هل كنت تتصـور فى يوم من الأيام انك سـوف تقف بجوار كاتب مصرى عربى فى محنته ؟ . يصطحبك على الشـوك

والضنى والعذاب ، فترسم له بسمة تفاؤل بعد ساعات اكتئاب ؟ ! . ربما لم تدر فى خيالك هذه اللحظة الفريدة . أؤكد لك انك تفعلها مع الكثيرين عن طيب خاطر . أتلمس معك روسيا الظلم والاستبداد والهوان ، كما أعيش معك تفجرانبثاق الضمير الانسانى واحترام البشر . هل تعرف ان المصريين القدماء عرفوا معنى الضمير الانسانى منذ آلاف السنين ؟ . ولم تكن تثرثر كثيرا مثلنا ، على الفاضى والمليان ، انما كنت تنفذ الى حقيقة النفس والروح الانسانية بأبسط الطرق ، ولم يكن همك أن تدخل معارك خاسرة ، ذات ضجيج عال مثلنا ، بل كانت كل معاركك هادئة وعنيفة ، تقلب الأرض وتحرثها ، لتمهدها لبناء جديد ، بناء الانسان المتكامل مع نفسه ، ومع الآخرين ! . وهذه دعوتك ، ان لم تؤت كل ثمارها ، فما زالت حلما جميلا يتراءى فى أعيننا حتى ننام ، أو فألا طيبا ، يجمع الأصدقاء فى الأمسيات اللطيفة . وقد كنت يا تشيكوف أحد الشهداء الانقياء الصابرين المقاومين عن بنى البشر ! . وعفوا يا تشيكوف على هذه النبرة العالية ، فقد نسيت قهوتى .. أفرح معك ، أحزن معك ، أريد أن أمزق الحجب معك ، فهل تقبلنى ؟ ! .



- ١٤ -

عدت الى الطبيب « ز » اقف على الميزان . ازداد وزنى اربعة كيلو جرامات . ارتفع ضغطى الى ٢٢٠ على ١٢٠ . كنت قـد مللت تنـاول حبوب « اللاسكس » ، والألدوميت . لكن التطورات الخطيرة جعلته يأمر من جديد .. لنعد الى تنـاول الحبوب ، هأنت عرفت الآن النتيجة ، امتلأ الجسم بالميـاه ، تنتشر الأورام فى الساقين والوجه . الحالة سيئة للغاية . ومع ذلك ما زالت أجزاء من الكلية تعمل ، فان لم نساعدها ، فسوف تتوقف تماما ! . اتفهمنى ؟ ! . حط على هم ثقيل . ينبغى أن أعود الى الطعام بدون ملح . كنت واهما فى نوع الحرية التى اطلبها . حريتى لابد أن تكون مقيدة بالضرورات . رفعت عدد حبوب اللاسكس التى أتناولها ، أصبحت اثنتى عشرة حبة . انخفض وزنى مرة أخرى . أصبحت فى خفـة الريشة . سحبت حبوب اللاسكس الميـاه من جسـدى . فرحت بهذه الظاهرة ، لكن جسـدى لم يعد طبيعيا . أحسست أن عافيتى تهرب منى رويدا .. رويدا ! . تريثت لأفـكر فى الأمر . لم أر عدلا فى المسألة . لمـاذا تهرب منى عافيتى مبكرا ، وبهـذه الطريقة

الغريبة ؟ ! . لم أقتنع بأى سبب لهذه الكارثة ، لكن حاستى السادسة كانت تعطينى الأمان رغم التمزق الداخلى الفظيع الذى شملنى . امتنعت تماما عن أكل البروتين الذى يتحد مع السموم ، وكان ذلك بدون ارشاد الطبيب ، ونتيجة الذعر الذى اصابنى . كنت اتصور أن الانسان يمكن أن يعيش بغير بروتين . وبعد أيام رأيت قطعا صغيرة من اللحم تنزل مع البراز. ازداد رعبى أكثر .جريت الى الطبيب مباشرة لأصف له ما حدث قال لى : ان المعدة تأكل نفسها بنفسها ان لم تجد ما يغذيها ! . اكلت معدتك نفسها بنفسها كما يأكل السمك الكبير السمك الصغير ! .كنت احسب انك أوعى من ذلك ! . هل تعرف لماذا أصف لك بيضة وكوب لبن كل صباح ؟ ! لأن البيض غنى بالبروتين . ثلاث وحدات من البروتين هى الحد الأدنى للجسم الانسانى ، كيف تمتنع عن البروتين تماما ؟ ! . ورغم انى كنت أعرف هذه الحقيقة البسيطة ، الا اننى كنت مستعدا لأن اتخلى عن الطعام فى سبيل الحياة ! . وكانت روحى تتوق الى تجارب الصوفيين العظام ، الذين يتحلون بالمثل الأعلى . أتصور الامام الغزالى الذى ترك عائلته وماله وكل شىء ، وذهب فى رحلة صوفية ، غير عابىء بشىء ! . كان يكفينى من الزاد القليل ، لأرى ابنى كل صباح ، ولأقرا كتابا ، ولأذهب الى قريتى كلما ادلهمت الأمور فى الصحيفة أو المدينة . اشياء صغيرة ودقيقة ، ولكنى كنت مصرا عليها . لا يستطيع احد أن يثنينى عنها . اشياء .. لا نحسها ونحن فى صحتنا العادية ، ولكنها تكبر حين يصيبنا مكروه . فى أيام نضج شجرة الجوافة عند الجيران ، كنت أراقب هذه الشجرة يوما بعد يوم ، واسبوعا بعد اسبوع، يحلو لى أن أقطف الثمار بيدى ، وان اتذوق طعمها الطازج من شجرتها مباشرة .. أيام نضج الفراولة فى انشاص . كنت

ايضا على موعد مع نضجها .. هـذه الحبات الصغيرة القرمزية الجميلة ، لذيذة الطعم .

كان الطبيب يطاوعنى فى بعض الأحيان لتحقيق رغباتى لأجرب بنفسى النتيجة التى يعرفها هو جيدا ، لكنه الآن قد حسم حقيقة مهمة . كنت أحاول أن أمسك بحبل النجاة ، اتصور بعين الخيال الكلية الصناعية . كيف أصل الى طريقة العلاج بها ، وكيف أتحمل ، وما هى المتاعب والعقبات حتى أصل الى امنيتى ؟ ! . رأيت بعض المرضى ، وهم فى أشد الحالات اعياء وضعفا ويأسا . أرواحهم تكاد تهرب من أجسادهم ، لولا ارادة الله وحب الحياة ! . يتمددون على السرائر ، عيونهم شاخصة الى الله أن ينقذهم من الموت . مستسلمون وادعون صابرون . تتهدج أنفاسهم الواهنة فى صدورهم ، زائغو الابصار . هل أصبح رفيقا لهم بعد فترة قصيرة أو طويلة ؟ ! . وفجأة وقفت غصة فى حلقى . لم أعد أقوى على تأمل هذه الأفكار الحزينة . أريد أن أنزع نفسى من التأملات الى فعل ايجابى يقينى هـذا التردد . لست من انصار المغامرات . سقط الجدار الذى كنت أرتكز عليه ؛ وأصبحت معلقا فى الهواء ، سابحا فى الفراغ ! . ضاعت أيام البحبحة ، وبقى التفكير فى وحشة الموت وعدمه ! . الظلام ينفذ الى عينى رغما عن أنفى . الهوة المعتمة تلاصق قلبى . هل أنزلق اليها على غرة ؟ ! . اننى مازلت اتمسك بشىء غامض لا أعرف كنهه ! . هـذا الشىء يدفعنى دائما لأن أرفع رأسى ولا أحنيها ، احب ولا اكره ، اكون طيبا لا خبيثا ، اصيلا غير خسيس . وكانت محاولاتى هـذه تطيش فى بعض الأحيان . تجيئنى الرغبة الحادة فى أن اضرب بالرصاص . وفعلا قتلت اناسا دون أن تسيل دماؤهم

حقيقة . ونحن لا نفهم ولا نعى الا اذا ســالت الدماء ! . ولكن الدماء ليست هوايتى . ان هوايتى هى الحبر والورق والكتب والثرثرة ! . وأنا صغير كانت أمنيتى أن أحمل وراء ظهرى غطاء وبعض الزاد والشراب ، وأجوب العــالم . لكن الخنجر الذى غرسه احد زمــلاء المدرســة الثانوية فى عنق زميله كان يؤرقنى دائما . معركة القنال كانت على أشــدها ، والوفديون ضــد الاخوان .. الجرح غائر فى رقبة زميلى .. ثم عاد وعنقه ملفوف بالشاش الأبيض .. لم يتذكر زميلى هــذا أرقى من أجله .. ولم يكن يهمنى أن يتذكر .. حسبى أن سجلت نقطة لانسانيتى.. انه نوع من الضمير والتعاطف الذى يتحلى به كل فرد منــا .. لا نفقده ابدا رغم التراكمات الثقيلة ! . كنت أسبح فى المــاضى ، حتى أروض جلافة الحــاضر وقسوته ، أحب أن أذكر الموت بأنى لم أفعل شرا ، فلمــاذا يترصد لى هو بكل هــذه الضراوة العنيدة ؟ ! . احببت أن اعيش بقدر ما كرهت هــذا المتوحش القاسى ! . شتمته بأعلى صوتى وبصراحة مريحــة .. يا ابن الكلب يا وسخ خلينى اعيش .. هو انا عملت لك حاجــة؟ ! . ابعد عنى يا قــذر خلينى اربى ابنى .. وآكــل من شــجرة الجوافــة ! . وبكيت .. ثم لفنى حزن غريب شــامل . حزن يمســح ادران الروح ومساوئهــا .. حزن معقــد كئيب ! . حلت النقمة ولا مفر ! . الكليــة الصناعيــة هى الحــل وهى الأزمة . لابد أن أقيم بالمستشفى . أعود للتحليلات من جديد . هؤلاء الأطباء يضللوننا . أنا سليم معافى . لا تكفى هذه التحليلات والزيارات المتفاوتة لعيادات الأطباء . اتوكل على الله وافاتح الطبيب . قلت وأعصابى ترتجف :

ــ انا عاوز ادخل المستشفى يا دكتور ؟

قــال :

ـ ليه .. الحالة معروفة .. لا جديد .. مش حيقدروا يعملوا حاجة فى المستشفى .

قلت باصرار :

ـ يُمكن .. المهم أن أتأكد من جديد .

قـال :

ـ مفيش مانع .. بس لابد تدفع ميه وخمسين جنيهـا مقـدم .

قـلت :

ـ سوف أكتب الى طبيب الدار .

* * *

- ١٥ -

فى الصحيفة كانت معركة انتخابات الحزب على اشــدها . لافتــات وهوس فى أركان الصحيفة . كل حزب بما لديه فرح وانا معلق لا أفهم معنى لهذه التمثيلية . كفرت بالزيف فى كل شيء . ذهبت الى طبيب الدار لآخــذ موافقتــه على دخــول المستشفى . صف العمــال الطويل يقف أمامه وهو يسب ويلعن ضاحكا ، يعطى الأجازات ، ويكتب أدوية تقوية الجنس . رمقنى بنظرة ، ثم قال :

ــ طلبــاتك ؟

قــلت :

ــ انت تعرف الحــالة .. تحتــاج الى عناية مركزة .. تحاليل جديدة حتى اتأكد .

قــال :

ــ مفيش مانع .. ارسلك الى مستشفى الأمل ..

قــلت :

ـ الأمل لا تنفعنى .. ذهبت مرات عديدة دون نتيجة ! ـ

قــال :

ـ اذن .. أى مستشفى تريد ؟ ! .

صمت برهة ، ثم همست مترددا :

ـ مستشفى المعادى .

قال على الفور :

ـ ليكن ... انــا معك ... حتى ولو صرفت عليــك الف جنيــه .

وزقططت فى داخلى . الآن تتفتح الأبواب فى وجهى .

همســت :

ـ ولكنهم يطلبون مائــة وخمســين جنيهــا .. قبل ان ادخــل ..

قــال :

ـ سوف أكتب الى مدير الادارة ..

وتركت الطبيب . نزلت الى الدور الثــانى حيث قاعــة التحرير . كانت تمتلىء بالزمــلاء والزميلات . يبحثون قائمــة المرشحين ، وقال واحد :

ـ لن انتخب احدا .. كلهم محترفو انتخابات .

وقــال آخر :

ـ يا عم يسيبونا فى حالنا !

وقـال ثالث :

ـ انتهازيون .. مضللون ..

رد عليه زميل :

ـ لا .. انا أعرف منهم اصلاء وشرفاء .

ـ ولكنهم لن ينجحوا .. فهم يعيشون فى قواقعهم الضيقة ..

وكان ما يحدث فى صحيفتنا رمزا لما يحدث فى الجمهورية من فساد . شخصيات باعت نفسها للشيطان ، واخرى باعت نفسها للسلطة ، وفريق يحاول أن يحلل ويفسر ويتأمل ، ولكنه يضيع فى الزحام . وهناك حزب يرفض الجميع ، يريد أن يقلب المنضدة على الجميع . هذه الانتخابات جزء من الجسد الخامد الذى يريد أن يصحو دون فائدة . انه مرض أخطر من مرضى بكثير ، فان يمرض فرد ، فهذا شىء عادى ، ولكن ان تمرض أمة فهذه هى الكارثة . وفى الانتخابات كانت هناك الأحزاب القديمة التى لا تستطيع أن تفصح عن نفسها ، والأحزاب المكتبية التى لا تتمتع بأية ثقة . وكنت من حزب اليسار الانسانى الذى يتلمس لنفسه الطريق وسط الفوضى . احاول أن ابصر واسمع واحلل وارى الممكن . ولم يكن همى أن أحلل فى هذه اللحظات . كنت اريد أن انسى همومى الى حين ! . اعرف مياه النهر الذى أغرق فيه ، تلوثنى جراثيمه مثلما اصابتنى جرثومة البلهارسيا قديما ! . ولكن لا بأس أن نجرب .. أن نجرب .. حياة كتبت علينا . أحببت أن أعطى رايى لأثبت وجودى ، أثناء المحنة القاسية . مازلت قادرا على التأثير . لى طعم ولون ورائحة .

هدهدت كآبتى بلقاءات المرشحين الذين حاولوا ان يتخذوا سمت القديسين والشهداء والمضطهدين ! . قرأت كل النشرات وبرامج الدعاية ، لكنى ضحكت عندما وقع بصرى على اعلان لأحدهم يقول فيه : نجوى ابراهيم تؤيد ترشيح فلان .. ! ضاع الحابل بالنابل يا عين . البولينا فى دمى ، وحب الناس فى دمى ، اذن لأعش الأيام بالحب والسم معا ! .



- ١٦

نمت فى الليل نوما متقطعا . ذهبت الى حجرة ولدى اكثر مرة . تأملت محبوبتى وهى نائمــة بعد التعب الشديد . ذرعت اركان البيت كله . تمددت على الأريكة التى تعودت الاسترخاء عليها . جعلت أفتش فى كتبى واوراقى طويلا . وقع بصرى على تلغرافات التهنئة بالزواج . راجعت أســماء المحبين والأصدقاء الذين شاركونا الفرحــة . احببت أن أعيش لحظــات ســعيدة ماضية . قلبت صــور الفرح . كان الأطفال يقعدون عند قدمى العروسين . كبر هؤلاء الأطفال ، ثم تزوجوا وانجبوا ! . وهــذا هو الشاعر المشهور الذى كان ايامها يبحث عن مكان يشعر فيه بالدفء والأمان . احتفلنا به حين اسمعنا أولى قصــائده بعد قدومه من الريف . لو طاوعنى الوقت ، كنت التهمت زخم الأيام المــاضية كلها ، اقبض عليها حتى لا تضيع منى . خرجت الى الشرفة أتأمل نجوم السماء . الليلة هادئة ، بحثت عن القمر ، فلم أجده . غدا .. سوف أكون فى حجرة استقبال المستشفى . امســكت المصحف ، فتحت على اية صفحــة ، كانت ســورة الشعراء .. بسم الله الرحمن الرحيم .. « والذى هو يطعمنى

ويسقين ، واذا مرضت ، فهو يشفين » . ترتاح نفسى حين أتلو القرآن . يبثنى الطمأنينة . انى أواصل رسالة امى . تعودت أن تصلى الفجر حاضرا ، ثم تتلو القرآن . هرب النوم من جفونى . قلبت فى محطات الراديو ربما كانت هناك اخبار مهمة . لاحظت اضطراب أعصابى ، فدعوت الله أن يلهمنى الصبر والشجاعة لمواجهة المواقف القادمة . توجهت بقلبى اليه . كنت أفكر فى كل شيء ، ولكن وجدانى كله يتعلق بقوة اعرف انها تساعدنى وكنت أريد أن أجمع ارادتى المتناثرة فى حزمة واحدة .آفى لحظات الخطر تتحفز مقاومة الانسان المطمورة تحت الركام . تقفز فجأة لتدافع عنه بعنف شديد ! . كانت مقدمات الخطر قادمة ، وبالتالى فان مقدمات المقاومة تصحو من رقادها الطويل . هذه تجربة غريبة أسبح فى نهرها . أريد أن اتبين معالمها . لا احب أن أعيش فى التيه . لى أرضى وسمائى وناسى . لى قيمى ومعناى . وفى يدى قلمى أهش به عن نفسى وعن الآخرين . يعبق الجو بتباشير روائح الفل والياسمين الآتية من الحديقة .



- ١٧ -

أمام الدكتور « ز » ومساعده تخففت من ملابسى . تمددت على السرير . طبعا هو يعرف الحـالة ، ولكن الطقوس لابد أن تأخذ طريقها . تحدث بالانجليزية ، فهمت ما يقول : السيد ... السن خمس واربعون سنة ، صحفى وكاتب ، حالة فشل كلوى مزمن .. بدات الأعراض منـذ عـام ٦٥ . دخول المستشفى ٧٣/٢/١٧ ، قسم الأمراض الباطنـة ! . لخصـونى فى نصف صفحة مع ختم المستشفى .. هنا أحسست انى داخل الحدث . لم يعد هنـاك شىء غير مرئى . لا داعى للظنون والوسـاوس . فعلا أنا مريض . وهـذا هو بيتى الجديد . بعد عدة تسجيلات، وعبر ممرات كثيرة ، اصبحت فى الدور الثالث . هنا على المدخل ضابطتان برتبة اليوزباشى . يبين على ملامحهما علامات الجـد والصرامة . مراتان نعم .. ولكن الأوامر عسكرية . كدت اضرب « تعظيم سلام » تحية لهما . كنت أجهز نفسى لتتواءم مع المناخ الجديد . أطوع ارادتى للنظـام والدقة . لم يقدر لى أن أقضى فترة التجنيد فى الجيش . هأنذا أعود اليه بطريقة أخرى ، مع الجنود والضباط المرضى . دلفت الى الحجرة رقم ٣٥ قسـم

الكلى . ألقيت السلام . كان هنـاك اثنان يستغرقان فى النوم ، يشخران . خفضت بصرى حتى لا أرى محتويات الحجرة . انقبضت روحى فجـأة . روائح كريهة تزكم أنفى . وجوه صفر ، وأذرع معروقة .. فى حلوان كنت أصحو على صـوت يمامتى ، وهى تغرد بجوار نافذتى . أراقبها وهى تطعم ابناءها . لونها البنى يملؤنى املا . وحين كانت تذهب للبحث عن الطعـام ، تحل العصـافير مكانها على النافذة .. تسقسق هى الأخرى . أتفاءل بيمـامتى الصغيرة الحلوة . أتطلع الى شجرة الجوافـة كل صباح وهى تزهر يوما بعد يوم .. وتجيئنى أصـوات الباعة الجائلين .. تتسلل أشعة شمس الصباح الى الغرفة .. أصحو على مهل بين اليقظة والنوم . أفتتح نهارى بكوب من اللبن الحليب . ظللت أمنى النفس بتمرينات الصباح الرياضية دون أن اقوم بها . قررت أن اهرب من المستشفى بروحى . حسبى أن أسلم لهم جسدى وحده . قلت فى سرى .. انها محـاولة .. ربما تنجح .. واذا فشلت ، فلن اخسر شيئا ! . وضعت حقيبتى بجوارى . اشـارت الى الممرضة على دولاب لأضع ملابسى . مرت هـذه الدقائق بسرعة غريبة . كنت أراقب محبوبتى وهى تصحبنى صامتة . يسقط قلبى فى صـدرى ، لأنها لا تعلق على شىء مما يحدث . أعرف شعورها جيدا .. لم تنطق الا كلمـة واحدة حين رات المريض بجوارى .. همست .. انه يموت ! . كان رائدا ، ومتزوجـا من أثنتين . تركته القديمـة ، أما الجديدة ، فهى تلازمه طمعا فى الميراث والمعاش . كان الرائد .. يسبح فى بوله . نهم فى تدخين السجائر . لا يكف عن القاء الأوامر الى زوجته ! . يشتم ويلعن ويسب ! . سـألت عن حالتـه ، فقالت لى الممرضـة بحيـاد غريب .. سرطان بالمثانة . بدأت ملامح الحجرة تتضح امامى . حوض الغسيل والنوافذ والملاءات . وأمام بصرى النيل يحجبه

الرائدة .. بسريره ! . استيقظ النائمان . رحبا بى « أ » مهندس زراعى ، « ع » لم يفصح عن وظيفته . نظرت زوجتى الى سريرى دون أن تتكلم . كان صمتها يقطع قلبى ، وددت أن اتبادل معها الحديث فى أى شيء ، لكنها حصنت نفسها بالصيام عن أى كلام . كانت تتأمل من داخلها وبعقلها وبعينيها وأذنيها .
اننى اخاف من صمتها ، فهو تعب جديد تتحمله . اننا حين نحب ، لا نرى الا صورة المحبوب . وكان حبى يطفو على كل الآلام التى أعانيها . أعتلى صهوة جواده لأسمو وأحلق وأرتقى وأتغلب على المشكلات . اشعر براحة كبيرة حين يتمدد هذا الحب فى أوردتى وشراييني . أستمد منه القوة وكل طاقة الحياة . انى أراه الآن منكسر الجناح ، يومىء بنظراته الى اسفل . انهار انا الآخر . احاول أن اجد مدخلا اليه دون جدوى . لماذا يهجم المرض على حبيبين يريدان السلام والرخاء لهذا العالم ؟ ! . أمرتنى المرضة ان اغير ملابسى واستريح . عصيت الأمر ، فمازال الوقت أمامى طويلا . كيف أنتقل من حياة الى اخرى بمثل هذه السهولة ؟ ! . لم تستطع المحبوبة أن تبقى بالحجرة ؛ فخرجت الى الاستراحة . ذهبت اليها مبتسما حتى أغير المناخ . شربنا شايا معا . اتفقنا الا نخبر أحدا من العائلة .
طار قلبى الى ابنى فى المدرسة . انه يجرى الآن تحت الشجرة العجوز ، يمرح مع اقرانه . هل يدرى هذا الواقع الجديد الذى أعيش فيه ؟ من يجعل ظهره حصانا لك يا خالدا ؟ ! . وفى لحظة استولت على عقلى فكرة الهروب من المستشفى والعودة الى بيتى مع المحبوبة . مجرد فكرة سرعان ما ذابت فى خضم الموقف الصعب . وكنت أنتظر ان تسفر الأحداث عن نفسها بنفسها . جاءنى صوت سعاد حسنى بأغنيتها « **يا واد يا تقيل** ». تذكرت صديقى الفنان « ع » وهو يشجعها ويدربها معه فى

فرقته التمثيلية . احببت الأغنية والصوت وصاحبة الصوت والذكريات القديمة . انتقلت بروحى الى قريتى . تمددت الخضرة فى عينى . بدأت استحضر عشرات التفاصيل التى مرت فى حياتى الماضية . أجتر بسرعة غريبة الحوادث الماضية . احين يكون الحاضر قاسيا ومؤلما ، فنحن نتمسك بالماضى . عدنا الى الحجرة . غيرت ملابسى على استحياء . تمددت على السرير . سمعت آهات الرائد الملتاعة .. عن قرب . زوجته لا تكف من الثرثرة . انها فى محنة ، وفى المحن يصعب على الانسان أن يكون انسانا . جاءنى الطبيب « ع » . جلس قبالتى . فتح أوراقه يسألنى :

— اريد أن اعرف .. متى كانت صحتك مثل صحة الحصان ؟ .

اجبت وأنا ابتسم :

— لم تكن صحتى كصحة الحصان ابدا ! .

ضحك الجميع . وبعد لحظة طلب منى أن اكتب تقريرا عن الحالة من وجهة نظرى ، كما أشعر بها . ولخصت له الموقف :

نشأت فى الريف . مرضت بالبلهارسيا عدة سنوات . كنت أعالج منها بالحقن فى المستشفى المتنقل . واذكر انى مرضت « باللوزتين » . وكانت أمى تعالجنى بالوصفات البلدية .. بأن اقرش ليمونة محروقة بالنار . فى الصبا كنت أشعر بدوخة بسيطة ، ازدادت فى الثلاثينات من العمر . حالتى النفسية فى الصبا والشباب لم تكن على ما يرام . كنت برما بالحياة ، ثائرا عليها ، لا استطيع ان احقق الانسجام بين الواقع وبين طموحى النفسى والوجدانى . وحين تزوجت بدات الاحظ بعض الخمول

على صحتى ، خاصـــة بعد وجبة الغذاء ، ثم الاستيقاظ من نوم الظهر . ظللت غير عابىء بما يحدث ، فلم أكن أنظر نظرة داخلية الى صحتى . وفى عام ٦٩ حدثت لى دوخة عنيفة سقطت على أثرها . حملنى أصـــدقائى الفلاحون ، وأعطونى ليمونة أمصها ! . وفى عام ١٩٧٢ ذهبت الى الطبيب « ز » الذى اكتشف الحـــالة من النظرة الأولى . فحصنى بطريقته الخاصـــة . وكانت هـــذه احدى أوراق ملفى . وياكم تراكمت الأوراق بعد ذلك ! . بحوث عديدة بأقلام كثيرة . هـــذا العالم غامض أمامى تتنازعنى الرغبة فى أن أعرف بعض التفاصيل دون جدوى . كل معلومة تحتـــاج الى خلفيـــة لا تتوفر لدى . اذن لأتركهم يجربون ويبحثون ، أتمثل عالمى الذى أحب الحفاظ عليـــه . صممت أن أكون مطيعا ومرنا ومتفـــائلا رغم كل شىء . زكمت أنفى روائح المرضى والأدوية ومنـــاخ المستشفى نفســـه . كنت أريد أن أطرد هـــذه الرائحـــة لأهرب الى روائح أخرى جربتها . أريد أن اســـأل عن أشـــياء كثيرة متخصصة ، ولكن فى الوقت نفسه لا أحب أن تسيطر على حالة من الفزع نتيجة المعاناة ! .للأيام تجـــارب مختلفة الطعوم ، هناك الطعم المر ، وهنـــاك الطعم الحلو ، ونحن شاربو كئوس الحيـــاة على اختـــلاف طعومها . اعتقلت والحمـــد لله فى هـــذا المستشفى الكبير . ولكن انـــا الذى اخترت الاعتقال بنفسى . ليتنى كنت معتقلا من أجل اللهب الذى نعيش فيه . هنـــاك غضب يعترينى لاحتلال أرضى وسمائى وانتهاك حريتى . انه ليس غضبا ذاتيا ، ولكنـــه غضب قومى عـــام .. حين يمد الانســـان بصره ، فلا يرى الا المشكلات فى كل مكان . وهـــذا الطبيب الذى يمر أمامى كالطاووس المتوج . من أعطاه هذا الغرور الأجوف ؟ ! . انه ينظر فى رقمى المعلق على السرير . ان كل انسان عالم قائم بذاته . وهو ليس رقما ولا سجلا ولا نمرة معدنيـــة أو ورقة

من الورقات . ويا للأسف ، ان الطب فى العالم كله يعامل الانسان على انه حـالة من الحالات . أنا أرفض ان أسـمى ما أنا فيه مرضا ، ولكن معاناة . عقلى سليم معافى وهـذا هو أهم جزء فى أعضـائى . اذا كان يفكر ، فهو ليس مريضا . حقا ، ان الأعضاء كل واحد ، اذا عانى عضـو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى ، ولكن أليس الانسان فى النهاية نفسا وعقلا وقلبا ؟ ! . وكنت أقول لأصـدقائى ، انى ناجح بالتعويض ، فاذا كانت الكلى بها بعض الخلل ، فانى أعوض هـذا الخلل بمودة الناس ، ومزيد من العمل الطيب . وهنا تصبح المعادلة مقبولة . وحتى هـذه الكلية لدى أمل فى ترويضها ، بالأكل المنظم الدقيق ، والراحة المقبولة .
كان الطبيب يسألنى :

ــ هل أنت سعيد ؟

فأجيب :

ــ نعـم .. اننى سـعيد ، لأننى لم أتورط فى تدنيس وجـدانى . حاولت دائمـا ، بجهاد مستميت ، أن يكون قلمى شريفا ، يحتضن قضايا التقدم فى بلادنا . قلبى دائما مع الانسان فى معاناته من أجل الحياة .. مع الفلاحين فى بلادنا .. حتى مع الذين يبدون النفور ، ادفع بالتى هى أحسن . نعم سعيد لأن لى أسرة صغيرة مكونة من زوجة محبة رقيقة وفية ، وولد وبنت . نعم سعيد لأنى حققت بعض آمالى فى عالم الفن والأدب ، نعم سعيد برغم الموت الذى يحوطنـا من كل جانب . ان المـآسى ليست قاسية الى هـذه الدرجة الفظيعة . ولكن القسوة هى فى الحاجة المـادية أو المعنوية . وقد عودت نفسى على التفـاؤل برغم الضيق ، الحب برغم الاحقاد المتناثرة حولنا ، الرضى برغم الضجر ، القناعة برغم الهرولة الاجتماعيـة التى نعيش فيها .

قلبى يود الآن ان يهرب من هـذا المستشفى الكئيب ، يطير على أجنحة خضراء من المودة الى قريتى . هناك يعيش التخلف مع الحب ، جنبا الى جنب ، يتصارعان . هنـاك يعرف الناس معنى الميلاد والموت والحياة والمعاناة .. اذا ولد طفل تعرفه كل القرية ، واذا مات شيخ ، مشى فى جنازته جميع الرجال .. واذا سقطت بهيمة فى الساقية ، جرى الرجال لانقاذها . وكل يوم تلد الحياة المشكلات . أفقت من تأملاتى . تطلعت الى وجه المحبوبة . كانت ما تزال تنتظر انتهاء الاجراءات . أعرف لحظات الانتظار المملة ، حين تكون مصـائرنا فى يد الآخرين . قلبى يأكلنى من أجلها .

كيف أخبرها أن تتركنى وحدى ؟ ! . متى تتم لحظـة الانفصال هذه ؟ ! . زكمت أنفى رائحة كريهة منبعثة من سرير الرائد .. حولت أنفى بعيدا ، لكن الرائحة ظلت تطاردنى كالقدر الملعون ! . هل اتحملها طول الليل ؟ . انه سجن انفرادى ، لا أستطيع أن أعبر عن نفسى من خلاله . أخشى أن تسوء أحوالى النفسية . وهمست الى المحبوبة أن تعود الى البيت . لاحظت أن الكلمات لا تطاوعها ، فقالت :

ـ وانت ؟ ! .

قـلت :

ـ سوف ارتب امورى .. عودى أنت للأولاد ! .

جرت خطواتها وراءها فى ثقل . قبلتنى .. قبلتها . كانت الشمس على وشك الغروب . تاهت نظراتى بين قرصها الملتهب وانكسـار المحبوبـة . فى هـذه اللحظـة أحسست بالسـجن الحقيقى . لن أعود الى البيت معها . من يطمئننى على غطـاء ابنى فى الليل ؟ ! . من يقدم لهم شـاى الصـباح مع القهوة الفرنساوى التى تعودت عليها المحبوبة من يدى ؟ ! . رمقت

زملائى الجدد . كانوا يتأملوننى أيضا . عندما اعتقلت ، بقيت ليلة واحدة فى سجن الزقازيق ، قبل ان اقيم فى معتقل القلعة . وما أشبه الليلة بالبارحة ! . قضينا الليلة نلعب الورق مع مجموعة لم أعرفهم . انهم معتقلون لأنهم خطـرون على الأمن . حومت الممرضة الصغيرة حولى لتتسلم من الأخرى وردية الليل .

سـألتها :

ــ ما اسـمك ؟

قـالت :

ــ أحـلام ..

ــ اسم ظريف ..

كانت فتاة رقيقة ، خرجت من حوارى السيدة . أكسبها عملها طابع السخرية الممتزج بالحزن العابر . سمعت زمـلائى يعبثون معها بكلمات متبادلة . كانت مهذبة وعابثـة فى نفس الوقت . تشاغل ضيقهم وكآبتهم . تذكرت صـديقى الكاتب الذى ذهب فى رحـلة عـلاج الى الخـارج ، فخـلع عنه رداء الكآبـة ، ولبس رداء الفن الجميـل . غاص فى قلب المتاحف القديمة يتأمل الجمال والفن الرفيع . الحياة مركبة ومعقدة ، وبسيطة أيضـا . ولكن المهم الزاوية التى ننظر منها اليها . هل من المعقول أن يـكون الانسـان فى باريس وينسى متاحفهـا العتيدة ؟ ! . كان صديقى مثلى يرى الحياة بعين متفائلة . وهكذا راح يحاور الفن والجمال فى ظل الكآبة ! . انى فى حاجة الى مثل هذه العين ، فالظلام ليس كثيفا الى هذه الدرجة الفظيعة ! .

* * *

- ١٨ -

فى الليل تنفست بارتياح . ساءت حالة الرائد ، فنقلوه الى حجرة العناية المركزة . نقلت سريرى على الفور مكان سريره . كان يطل على النيل مباشرة . تناولت عشـــائى ثم تمددت أفكر . من أين يستمد الانسان طاقاته ؟ ! . ليس من صحته وحدها على أية حال ، فأنا أشعر على سرير المرض ، انى أتمتع بقدر كبير من القدرة على مواجهـــة الحياة . عـــالم القيم الذى ترسب فى أعماقى وعقلى على مرور السنوات يعطينى القناعـــة فى جـــدوى الأيام . ومحبتى للبشر تجعل ما بينى وبينهم عمارا . وتحكمى فى غرائزى وشهواتى يفتح باب الأمل لاستمرار الحيـــاة . عاداتى وسلوكى الذى أتحسس مكانه وزمانه دائما يعطينى مزيدا من اكتشاف الرؤيا والأحـــلام ، يساعدنى على امتصاص التجـــارب الطازجة . مرت بى تجـــارب سابقة قاسية ، استطعت أن أروض بعضها ، وفشلت فى ترويض البعض الآخر . أسأل نفسى الآن .. كيف استوعبت قسوة تلك التجارب وغلظتها ؟ ! . من أين جاءت طاقتى للتغلب على قهرها ؟ ! . ها هى الكلى تريد أن تجـــرب حظهـــا معى ، فيأيتها الكلى رفقـــا بى ، أنت تريدين الهجوم المباشر

الضارى . اقف عاجزا فى بعض الأحيان ، مروضا اياك فى احيان اخرى . لماذا تحاولين اضطهادى ؟ وانت جزء منى . اعدك أن اخفف عنك العبء ، ولكن اياك أن تفكرى انى سوف اعيش عبدا لك ! . هناك فرق بين أن يؤمن الانسان بالعالم ، وأن يصاب بهستيريا حب نفسه الى درجة العبادة . لست ساديا ولا ماسوشيا . وهذا هو المنفذ الوحيد للخروج من المحنة . لابد أن أخلص من ذاتى لأنفذ الى ذوات الآخرين . انى من هواة الرؤية من زاوية الأمل ، الذى نستطيع ان نكتشفه من خلال أشد الحالات ظلمة وكثافة . عودتنى الحياة هذا المنهج . ربما يصفه البعض بالتفاؤل الساذج . الأحزان والمشكلات لا تبرحنا . أيامنا لا تضيع فى العبث والتفاهة والابتذال . تنادى بالتفاؤل حتى نمتص العذوبة من الكدر ، والطمأنينة من القلق والتوتر ، والطيبة من الخبث ! . كل الشرور موجودة ببشاعة فى هذه الدنيا ، فهل نترك الموجود يتحكم فينا كما يشاء ؟ ! أم نختار ونغربل ، نحب ونأمل ، ونوسع من دائرة الرؤيا الناضجة . نرتفع الى مستوى انسانيتنا الكريمة ؟. وكم اتمنى أن انتقل من مرحلة التعبير عن النفس الى مرحلة التعبير عن ذوات الآخرين . ومازالت رواية المقاومة تلعب فى ذهنى ! .



- ١٩ -

في الصباح كانت نافذتى تطل على النيل مبـاشرة . أرى الشراع امامى . سوف أحاول ان أخرج من المستشفى لأتمشى على كورنيش النيل . انها متعة جميلة ، فلماذا لا أجربها ؟ . الاحساس بالجمال ينبغى الا يفارقنـا ، حتى ونحن فى أشـد اللحظات تعاسة وقهرا وقسوة وحزنا . ضغط الدم مرتفع ، ولكن الأعلى منه رعب الوسـاوس والظنون والهواجس . صممت على المقاومة والحيـاة . أرى الآن مشهدا أبيض كاللبن الحليب . هذه الباقة الجميلة من الفتيات فى عمر الزهور ، جئن يؤدين عملهن ، يلبسن المرايل والقلانس البيضـاء . يوقعن خطواتهن نشيد السلام والشفاء لكل البشر . يبدان يوما جديدا . فرحت بهن فرحا عظيما . انها دفقة الحيـاة ، تواسى الذين يعـانون . ولن أنسى الجميلة أحـلام ، فقد كانت تشرق لنا من خلال الكتلة المتجهمة القاتمة كالوردة اليانعة . تتسـلل كالينبوع الصـافى لتروى ظمأنا الى الطهر والنقاء والشفافية . ان وجودها علامة محبة بيننا .. فأل طيب ليوم جديد . حتى عبثها الطفولى نحن فى حاجة اليه . فهو يطرد الملل من نفوسنا ، فما أقسى انتظـار

التحليلات وجلسات الأطباء ! . وحشتنا خفة ظلك وابتسامتك الغضة .. وثرثرتك اللذيذة ! . أنت الحياة البكر الطازجة . وردة ثانية ، لا أحب أن تضيع منى فى الزحام . عندما رأيتك أول مرة يا أحلام ، لم أستسغ عبثك الخفيف المستهتر الساذج، ولكنى اكتشفت فيما بعد نقاء روحك ، واستعدادك للمشاركة الخالصة . وعند تلك اللحظة لمت نفسى على الاحساس الأول . فقد كان مخطئا وتقليديا . [وهكذا نتعلم من الحياة ، الا نتعجل الحكم على الآخرين ، وأن ننظر فى النفوس قبل أن نتطلع الى السلوك الخارجى]. ارتشفت كوب الشاى . كان طعمه ماسخا ليس كطعم شاى البيت . عافت نفسى الفطور . الآن فى هذا الصباح اشعر بوحشة غريبة . وحدى أرقد على سرير المرض . لم أستطع أن أتحدث اليها بالتليفون . ذهبت المحبوبة الى احدى صديقاتها . صفاء وخالد ذهبا الى المدرسة . أتصور كل شىء على حاله كما تركوه بالبيت .. اللغز الذى كانت تقرؤه صفاء فى الليلة السابقة .. مقعد خالد .. رائحة ثريا . انهم يعطون لحياتى المعنى . لا أستطيع أن أعبر عن شعورى تجاههم . من الصعب أن أفصل روحى عن روحهم بهذه البساطة . اننى الآن أشعر بوحدة متكاملة مع هؤلاء الأحباء ، وحدة الروح والحياة المشتركة ، وحدة الالام والافراح . حقا نختلف فى بعض الأحيان ، ولكن الأيام تثبت أن الحب أقوى من أى اختلاف .. وان هذه القلوب الأربعة تتجه فى طريق واحد ، وعلامتى الآن هذه الدمعة التى تسيل من عينى الشمال . اشعر بها رمزا للحب والألم والمعاناة والصبر على المكروه . وفى انتظار أن نأكل معا لقمة مشتركة فى وقت الغداء ، لكم وفائى يا احبائى . فى العاشرة مر حامل دوارق البرتقال والليمون كل مريض له دورقان . انبسطنا بالشراب . وبعد قليل رايت حلقة الأطباء بالمعاطف

البيضاء ، على رأسهم الدكتور « ز » . فرحت بقدومهم اللطيف. كانوا مهمين ، يسيرون فى موكب رزين . يشعرون بنوع من الزهو والاحترام ! . يحوطون الرئيس بهالة من الاعجاب والاكبار والطاعة . كانوا يفحصون الحالات ، واحدة بعد الأخرى .. يتناقشون بانجليزية طبية .. يستخدمون أصابعهم وكفوفهم وسماعاتهم وأجهزة ضغط الدم .. وأعمدة رفيعة من الصلب ليعرفوا مدى تحمل الأعصاب .. فجأة أحسست أننا كالفئران التى يجرون عليها التجارب . سقط قلبى فى صدرى عندما أشار الدكتور « ز » الى أحدنا وقال مرة أخرى .. لا نستطيع أن نفعل له شيئا .. Let him die دعه يموت ! . كانت كلمة الموت ثقيلة الوقع على أذنى . وقفت كالعظمة فى زورى ! . تأملت صاحبى الجديد . كان وجهه فى غاية الاصفرار .. يستسلم للأيدى التى امتدتالى بطنه تفحصها .. انه « أ » ، موظف الاصلاح الزراعى .. هل أصدروا عليه حكما بالموت المبكر ؟ ! . بأى حق يستطيعون ذلك ؟ ! . وعندما وصل الموكب الى سريرى كنت مستعدا .. كشفت ملابسى .. غرزوا نظراتهم فى جسدى .. اقتربوا .. ابتسمت .. تغير المناخ المتجهم قليلا .. شرح الدكتور « ز » ، حالتى لهم .. وقفت اجلالا لهم .. قالوا .. استرح .. أخذوا الضغط تشاوروا لحظات.. قال الدكتور « ز » .. غدا تذهب الى الأشعة .. نريد رسما كاملا للقلب والمخ والكليتين . قلت فى سرى .. مرة أخرى سوف ادخل حجرة الأشعة .. اتذكر المرة الأولى .. كان وقتا كئيبا ومملا .. الآن استرخى على سريرى .. وحدى مع مصيرى .. لاحظ الطبيب انى أكتب بعض الكلمات فى مذكراتى الخاصة .. رجوته ان يقرأها .. ليس بها أسرار وضع نظارة القراءة على عينيه .. وبعد لحظات قال : حسن .. انك تتميز بصفاء

الذهن .. أرجو أن تستمر .. سوف تساعدنا فى عملنا .. ليس بتحليلات الدم والأشعة يحيا الانسان .. حمدت الله ان فهمنى الطبيب .. سوف تكون هذه الكلمات عادتى الدائمة.. حتى فى احلك الظروف .. فهى التى تجعلنى أتثبت من صوابى وثقتى بنفسى .. زملائى كانوا يتلهفون على الأطباء .. لا يكفون عن توجيه الأسئلة اليهم .. وفى غالب الأحيان ، فان الأطباء يصمتون .. ونحن نستلقى على الأسرة .. لا حول لنا ولا قوة.. ننتظر ارشادات الأطباء وأوامرهم .. وكان افضلنا حالا هو « ع » .. لونه لا بأس به .. ما يزال يضحك نصف ضحكة صغيرة .. وفى بعض الأحيان يبتسم .. أما « أ » فانه نائم على الدوام .. يضرب شخيره المتقطع الى سقف الحجرة .. يأكل كلما انتابه القلق .. يقضى معظم وقته ليلا عند الممرضات .. هو فى مقتبل العمر .. سبعة وعشرون عاما .. يتقوقع على نفسه .. لا يتعدى حدود سريره .. يلتهم بمفرده كمية الطعام التى يحضرها له أبوه .. يتجاهل أوامر الأطباء ونصائحهم .. قرر أن يأكل كل شىء .. وبالكميات التى يريدها .. لا ادرى لماذا شغلنى « أ » عن زملائى الأربعة فى بادىء الأمر .. كنت افضل أن اتأملهم واحدا بعد الآخر .. وكان « أ » ابعد الزملاء مودة والفة .. لم يعطنى الفرصة أن اقترب منه .. كان نافرا بطبعه .. اننى فى سجن ولا احب أن أواجه بأى كدر من أى لون!. كفى ما نكافح من أجله ! . سار موكب الأطباء بطيئا مملا . نظراتنا تنم عن ضعفنا . نلتمس الشفاء أو حتى كلمات العزاء . يسبح كل واحد منا فى واديه الخاص . الضيق لا يفيد فى مثل هذه اللحظات الحاسمة . هناك نوع من التحمل الصابر الوديع الذى يطوينا جميعا . ويبدو اننا نعرف تماما ان لا فائدة من التمرد ، والا تمردنا . تركنا الموكب على مهل ، ونحن نجوب

طريقه بأعيننا .. حطت علينا لحظات صمت قصيرة ، وكل واحد يفكر فى اللقــاء المنصرم .. ماذا قال له الطبيب .. الانطباع الذى خرج به . لحظات نغوص فيها الى أعماقنا ، تتملكنا غريزة حب البقــاء . غرقى نبحث عن طوق النجــاة ! . كان المكان ما يزال مضمخا بوقار واحترام الأطباء . لم نتكلم كلمــة واحدة . تركونا وراءهم نتأمل ، قلقين حائرين ، بين الرجاء واليأس ! . هرولت فورا لأقضى حاجتى .. كنت خائفا من أشــياء غريبــة غامضة ، لا أدرك سرها . لم يضف الى الدكتور « زَ » جديدا فى هــذه الجولة . انتقلت من الخاص الى العام . كان يوزع اهتماماته على الكل . يشرح لمرؤوسيه الحالات المختلفــة . أصبحت مندرجا تحت نظــام معين ، ملف ، تاريخ دخول المستشفى ، تشخيص الحالة ، خطــة علاج لم تأخذ نصيبها من النضج بعد ، عرفت بعض ملامحها من ثنايا بعض الكلمــات ، ومن الصمت أيضــا ، ومن الحيرة والقلق اللذين يتنازعاننى دائما ! . ولم أكن أستطيع أن أقبض على شىء يريحنى . الغموض ما يزال يكتنفنى ، ولكن الغريب أن هنــاك طمأنينــة روح ارتكز عليهــا دون أن أدرى كيف ، والى متى تظل معى ؟ ! . تمنيت ــ وما تمنيت على الله الكثير ــ أن تنقذنى ولو الى حين ! . وكان اليوم حارا على غير العادة ، وشىء من الصهد واللزوجــة يلف الحجرة . أحسست بأنفاسى مخنوقة ، أريد أن أفتح صــدرى على الهواء الطلق . استغرق « أ » فى نوم عميق ، سمعنا شخيره العــالى . تطلعت الى صفحة النيل ، فغشيت عيناى بالظلمــة ! . دار المبنى كله فى راسى . كنت أخاف الملل القــادم أن يتحكم فى أعصــابى ، أن يخضعنى له ، يجعلنى عبدا . أفرغت فى جوفى دورق البرتقال لأرتوى . لم أتعود أن أشرب عصــير البرتقــال ، تعودت أن أقشر البرتقــال ، واحــدة بعد الأخرى ، لأتســلى بفصوصــه

الحلوة . كنت أنزل الى حدائق البرتقال بنفسي . اتأمل الثمار . أجمع منها ما أشاء . اقعد تحت الأشجار . أذوب فى العصير الطبيعى . لا يفصلنى عن المنبع شيء ! . هـذا الدورق الذى شربته لا يشفى غليلى . المهم ليس العصير وحده ، وانما البرتقالة كلها ، بقشرها وبذورها ولونها وملمسها وشجرتها والأرض المشققة تحتها ، وروائح الزهور والأوراق الخضراء .. والمناخ العام .. وصحبة الأصدقاء .. ووقت امتصاص العصير .. أكثر من يد تمتد الى الشجرة ، واكثر من فم ! . وهذه هى حرية الانسان مع الطبيعة التى خلقه الله عليها ، ولا حدود ولا فواصل . وهـذا العصير الذى أشربه اليوم انما يساعد فى خطة العلاج ، فكمية اللاسكس التى أتناولها تساعد على زيادة كمية البول التى تسحب معها كمية كبيرة من البوتاسيوم . ولهذا ينبغى ان اعوض الكمية المفقودة بكمية اخرى من ذلك العصير المركز ! . اذن لا حرية لى فى هـذا العصير . برتقال انشاص كان له طعم ولون ورائحة ، وهو مصحوب بحب الأصدقاء ومغامراتهم ، ربما فى عز الليل ! . ولم اكن أبحث عن الطعام فى حد ذاته ، وانما كان همى دائما أن تكون اللقمة أو الشربة مصحوبة بمودة الأصدقاء . رقد كل واحد منا فى سريره فى حاله ، ينكمش على نفسه ، ينتظر مصيره المجهول خائفا مستسلما لأى جديد . يشفق بعضنا على بعض ، يحاول ان يضمد جراحه . بالنسبة لى ، لم أكن قد روضت نفسى بعد . كان الخارج ما يزال يلفنى ، الطريق العام وعراك الأصدقاء ، وصورة بيتى وأولادى وزوجتى . ولابد من مرور الزمن حتى آلف هـذه الحياة الجديدة . قررت ان اكتب بعض الرسائل للأصدقاء . هذه طريقة تريحنى ، خاصة اصدقاء الاسكندرية والريف . احكى لهم ما حدث . سوف أتخلص من معاناتى

بالكتابة . افرغ حمولتى التى تثقل كاهلى . فى بعض الأحيان يعتمد وجودنا على الكلمات ، اذا فقدنا الكلمات فقدنا الوجود . ولكن أية كلمات ؟ ! . صرخة .. دمعة .. جيشان .. حزن فرح .. هذه هى الكلمات التى نعيشها . هى قطعة من لحمنا ودمنا وعظامنا . فى البدء كان الكلمة . لا بأس أن اعبر بالكلمات ، فهى سلواى وعالمى الذى أحبه . قفزت من السرير . نزلت لاشترى طوابع البريد ، ومظاريف الخطابات . جاءتنى فكرة وانا فى المصعد ، لماذا لا أتجول حول المستشفى فى الحديقة ؟ ! . نحن نعيش بشائر الربيع . وجدت نفسى أقف عند الباب الخارجى . شعرت بنسمات الحرية تلفحنى . جذبنى النيل . كنت أتلهف عليه ، اريد أن أرضع من حنانه الأبوى. رمقنى الجندیان ، فتراجعت الى الخلف . يممت وجهى نحو حديقة المستشفى . يداى خلف ظهرى ، ورأسى يموج بأفكار عديدة . أندفع فى طريقى كأنى فى بداية مشوار طويل ، ولكن لا أعرف منتهاه ! . وحدى وراء أسوار المستشفى . أحسست بدف الخطوات . دبت الحرارة فى قدمى . شعرت بنشوة الحركة . اتسعت خطوتى . لم يكن لى هدف معين . كنت اريد ان أجرى ، اقفز ، حسبى أن اثبت قدرتى . لففت حول المستشفى مرتين وفى المرة الثالثة . تعبت . توقفت وقطفت وردة مبكرة النضج . كنت أريد أن أبحث عن رائحة غير رائحة العنبر الكريهة . فرحت بوردتى . هل مازال فى العمر بقية لرعاية وردة ؟ ! . تذكرت « الأمير الصغير » بطل قصة سانت اكسوبرى عندما كان خائفا على وردته من أن يعتدى عليها أحد ! . تتوثق صلتى بالأرض والنبات والحيوان . اشتاق الى أن اخوض فى ارض القرية على الطبيعة . هناك طنين وقت الظهيرة الحار ، ولسع الأرض ، وهذا السكون الأبدى الصامت . كنت اترك

القاهرة بمشكلاتها لأغرق فى انشاص ! . دلفت الى مكتب بريد المستشفى ، ثم عدت الى مكمنى فى الدور الثالث . وجدت صينية الطعام على سريرى تنتظرنى . سرت فى روحى غصة كئيبة . لم أتعود أن آكل وحدى . مع أحبائى دائما اتناول طعامى . يطيب لى أن أثرثر مع ابنى أو ابنتى وقت الغداء . هذا الطعام يقف عليه الذباب . بارد وخشن ويكتنفه الملل . كيف أرفع العيش الجاف الى فمى ؟ ! . من لى بدورق المياه أمامى ، اشرب كما أشاء .. اثرثر مع الأحبة . لا فائدة من التباكى . لانظر الى واقعى الآن . آكل اى شيء ، ثم أكتب الرسائل . غمست أول لقمة فى طبق الطعام ، فاذا الكآبة تزداد فى حلقى . ما الذى جرى ؟ ! . لم اتعود القرف . حملت الصينية الى الشرفة . فرشت مفرشا على احدى المناضد . رتبت طبقى كما اريد . اردت ان أصطنع مناخا مثل مناخ البيت . ولكن حيلتى كانت مكشوفة وباردة . الوقت يمر ببطء شديد ، ولا أستطيع أن أحطم جدرانه الصلبة . يرسخ على صدرى كالدرقة العجوز السخيفة . وماذا بعد الغداء ، وساعة العصر المملة ، ولحظات الغروب الميتة ، والليل الطويل الذى يسحب روحى معه ؟ ! .



- ٢٠ -

مر طابور الأطباء . كانوا قد قرروا شيئا بالنسبة لى . جاءنى الدكتور « ع » يخبرنى بضرورة أخذ عينة من الكلى . صحبنى معه الى حجرة العمليات . فى الطريق كنت انساق الى شيء غامض لم أعرفه من قبل ، ولم أكن أدرى من أين استمد الثقة فى سحب خطواتى الى حجرة العمليات . هل أصبحت أتحلى بنوع من المغامرة ، أو حب تعذيب الجسد ، أم هو نوع من المقاومة لا أدرك سره ؟ ! . المهم أننى كنت أخطو وراء الطبيب متأخرا عنه خطوتين ، محافظا على المسافة بينى وبينه تماما الى أن وصلنا الى باب حجرة العمليات . هنا غمرنى احساس مفاجيء بالرفض . لا أريد أن أدخل هذه الحجرة . الطبيب يشجعنى باشارة من يده ، وبسمة على شفتيه .. تفضل دلفت بساقين ترتجفان .. أين راحت شجاعتى التى كانت تشملنى من لحظات ؟ ! . كيف تغيرت حالتى من لحظة الى أخرى ؟ ! . كان الطبيب الجراح منهمكا فى أحد أركان الحجرة يحضر أدواته .. لمحت معطفه الأبيض من الظهر .. تذكرت صديقى الرسام عندما كنا شبابا .. كان يرسم لنا وجوها واجساما على هيئة كتل من الألوان .. وكان ظهر الطبيب كتلة

من اللون الأبيض ، لم أعد أعى أية تفاصيل منها .. تخففت من ملابسى .. ثم تمددت على منضدة جلدية حسب الأوامر ، ورحت انتظر . . اقترب منى الطبيب فى هدوء .. استسلمت له .. تحملت حقنة البنج عن طيب خاطر . هذه ليست أول حقنة ولن تكون الأخيرة على أية حال ! . هذه الابر هى أوسمة للمقاومة والصبر . كم وساما أستحقه ؟ ! . رأيت حقنة كبيرة فى يد الجراح بعد حقنة البنج ، قلت له :

ـ ما هذه الحقنة ؟ ! .

قال :

ـ اننا نأخذ عينات الخلايا من الكلى بهذه الحقنة .. لن تشعر بشىء .. حسبك ألا تنظر الى يدى وحركتى .. ان تحليل هذه الخلايا سوف يكشف لنا عن نوع الاصابة ودرجتها فى الخلايا ! .

وفجأة عندما غرز الابرة الطويلة فى مكان الكلى أحسست بصوت مكتوم يتخلل ظهرى كله .. شىء ثقيل يجتاز جسدى ، يقترن بالخوف والرهبة والمقاومة الغريزية فى دفاع الجسد عن نفسه .. وظل الدفع وظلت المقاومة معا .. الى الداخل فى شد وجذب .. وأنا يقظ ، أفتح عينى ، أطلب الخلاص السريع . ليس هناك ألم واضح حتى أصرخ وأفضفض عن نفسى . هناك معركة مكتومة تجرى فى جلدى ولحمى وكليتى بعد أن انفصلت عن جسدى . ركزت على بلاط الحجرة . همس الجراح .. وجدتها .. لحظات وننتهى . بسملت فى داخلى . انى أؤمن بالله ، ليس فى ساعات الشدة وحدها ، وانما فى ساعات الرخاء أيضا . نزع الطبيب الابرة الطويلة . ورأيتها فى يده . وكانت الممرضة

تضع شاشا من القطن على مكانها حتى لا يتدفق الدم . نزل شعاع من ضـوء النافذة على المنضدة . أمرنى الطبيب أن استمر فى رقدتى بعض الوقت . كانت روحى مسحوبة ، فطلبت كوبا من المـاء . رشفت رشفتين . استعدت أنفاسى . وقال الطبيب :

ـ بسيطة .. أليس كذلك ؟ ! .

قـلت :

ـ الحمد لله ..

وبعد فترة احضروا مقعـدا متحركا نقـلونى عليـه الى سريرى . كان الوقت فى الضحى . وهذا هو ميعاد عصير البرتقال والليمون . كنت انتظر العصـير بفارغ الصبر . من أين جاءنى هذا العطش ؟ ! . سمعت بشخشخة العربة من الحجرة المجاورة . شنفت أذنى فرحا للصـوت القـادم . كنت ألاحظ أننا ننتظر الطعام والشراب بغريزتنا فى حب الحياة ، وليس من باب الاختيار أو التذوق . وهـذا ما كان يحـدث فى السجن أيضا . ها هو الساقى يضـع دورقى الليمون والبرتقال بجوارى . مددت يدى فى الحـال الى دورق البرتقال . رفعته الى فمى . سال العصير فى حلقى طيبا وريانا . غفوت بعض الوقت ، ثم صحوت ، فاذا بسيال من النار ينبعث من ظهرى . راح أثر البنج ، وجاء الألم الحقيقى . حاولت أن أتحرك ، فلم أستطع . لا أدرى ان كنت أستطيع فعلا أن أتحرك ، أم أننى خائف ؟ ! . هل أثرت فى معنوياتى هـذه الحقنة ؟ ! . انخرطت فى الدردشة مع الزملاء ، أحكى لهم ما حدث . خففت عنى هـذه « الدردشـة » بعض الشىء . كانت « أحـلام » تخطر بيننا بروحهـا الحلوة ، تطيب خواطرنا بسخريتها المصرية . اخرجت أوراقى أعبث بها . وجدت

نفسى أقرأ بعض الأشعار . حلقت فى سماء الشعر . وحدى مع الكلمات برغم الضجة حولى . تعودت أن ألجأ الى الشعر عندما يقسو الواقع . أتأمل وأحب وأفكر . وفى بعض الأحيان أترنم بصوت عال . هنا انظر بعينى فقط ، لا أستطيع أن أرفع صوتى . دق جرس التليفون . رفعت السماعة . كانت المحبوبة على الطرف الآخر . كان صوتها ملهوفا ومحملا بالقلق ، قالت :

ـ ازيك النهارده ..

ـ لا بأس ..

ـ هل من جديد ؟

ـ الحمد لله .. أخذوا عينة من الكلى ..

ـ ازاى يعنى ؟ ! .

ـ لما نتقابل أقولك ..

ـ لكن انت كويس ؟

ـ لا بأس ..

ـ مش فاهمة .. قولى خدوا العينة دى ازاى ؟ ! .

ـ عملية بسيطة ..

ـ بالبنج .. ولا من غير بنج ؟

ـ بالبنج الموضعى فى ذراعى .

ـ آلمتك ؟

ـ شوية ..

ــ انت وغوشتنى دلوقتى ..

ــ لا ابدا .. الحمد لله .. ازى خالد ؟ ! .

ــ كويس .. سأل عنك قبل ذهابه الى المدرسة .

ــ شرب اللبن الصبح ؟

ــ شرب بالعافية ..

ــ حــد كلمنى ؟

ــ آه .. الصديق « م » سوف يزورك بالمستشفى ..

ــ وانت أزيك ..

ــ انا متضايقة .. حاسة كده ان حاجة خانقانى .

ــ خلصت ترجمة القصة ؟

ــ لأ .. ماليش نفس أعمل حاجة .. انت عاوز اى كتب تقراهــا ؟

ــ آه .. والنبى اناعاوز رواية « زوربا » اليونانى ! .

بعد المكالمة تجسد فى عينى بيتنا فى حلوان . تلك الصــالة ذات الأعمدة .. التليفزيون .. المكتبــة .. الهدايا التى تلقيناها عند زواجنا .. الأريكة المريحة .. حجرة ابنتى وسرير ابنى .. الأطباق والملاعق والسكاكين وســاعة الفطور والغداء .. وعند النوم .. وكل بيت وله رائحة .. غابت عنى تلك الرائحــة .. تزكم انفى الآن رائحة هــذا المستشفى الكبير .. تعلقت عينى بركنى المفضــــل فى البيت وبجـوارى أوراقى واقــلامى وكتبى وشخصياتى .. وفنجــان القهوة أمامى .. ووجــه المحبوبــة يطالعنى .. اصبح هذا الوجه جواز مرورى الى عالم الجمال ..

مختوم بأيـام محفورة فى قلبى .. يوم الزواج .. يـوم ولادة ابنتى .. ميلاد ابنى .. مزحوم بأيام الفرح والضيق .. العسر باليسر .. المعاناة مع الراحـة .. الأمل المشترك .. مع الكرب المشترك . ثم الانفراج المشترك .. دخلت البيت ولا اريد أن أخرج منه .. عنـدما أفتح الثـلاجة لآكل العنب البارد .. أو البطيخ أو التين البارد .. عندما ندلف معا الى سرير واحد نتناجى ونتهامس ، يأخذنا الريح على بساطه السحرى .. نتحد معا انا والمحبوبة فى لحظة واحدة .. نتعارك ، ثم تصفو الحيـاة فى ثانية موعودة .. نفكر فى أكل العيش المغموس بالشرف .. نجلس معا .. الرأس بجوار الرأس .. والقلب بجوار القلب نناقش قضية .. نبحث عن معنى كلمـة فى القاموس .. القبلات مع الكلمات تنسج وجه اللحظـات .. نحـاول أن نتغلب على القهر الذى يواجهنـا .. نزور الأصـدقاء .. نرفع مظلتنـا الواحدة أيام الشتاء .. فتح لى صـوت الحبيبة باب الرؤيـا من جديد .. لم أكن أفكر فى هـذه المعانى وأنا داخل البيت .. هأنذا أتوق الى كل اللحظات المـاضية بحـلوها ومرها .. ضيقها ثم انفراجها .. عسرها مع يسرها .. هل أظل بعيدا عن البيت طويلا ؟ ! . انى أحب هـذا العـالم الواسـع .. ولكنى انتمى الى أماكن بعينها .. قريتى فى الريف .. ثم بيتى فى حلوان .. انه ليس انتماء الى الأماكن وحدها ، وانما الى الذكرى والطريق الذى اخترته بنفسى .. الأرض والمحبوبـة والنـاس الطيبين .. اثر البنج الموضعى يضـيع من ظهرى .. والصـــورة تكبر فى مخيلتى .. وصـوت المحبوبة يوقظنى .. يدغدغ المتاعب فى روحى . أين انت يا خالد الآن ؟ .. تلعب فى فنـاء المدرسـة تحت الشجرة العجوز .. اريدك أن تنام فى حضنى .. بسـمة منـك ترد الروح .. رفعت دورق البرتقـال لأرتشـف بعض

الجرعات .. مر على الطبيب ليطمئن .. انغمرت فى المناخ من جديد . وقت الغداء والرسميات كأنها عبادات قديمة ، اندثرت مع الزمن ، بعد أن عرف الانسان معنى التوحيد .. لا طعم لأى شيء .. اننا نعيش لنأكل .. لا نأكل لنعيش ! . وزكمت أنفى رائحة زميل يتقيأ . وانا نفسى لدى احساس دائم بالتقيؤ ! نأكل لنتقيأ . ونتقيأ لنأكل . البولينا تسرى فى أجسادنا . قال لى أحد الزملاء وهو فى منتهى الفرح .. ان البولينا هبطت فى دمه الى ١٠٠ .. كان وجهه أصفر بلون الليمونة .. يعانى من حالة عصبية لارتفاع نسبة البولينا .. لكن الطبيب قال لى .. ليس المهم نسبة البولينا .. انما الأهم الصحة العامة ان ارتفاع نسبة البولينا شيء عادى بالنسبة لمرضى الفشل الكلوى .. كنت دائما أحاول الوصول الى اصل الداء .. اريد أن أعرف سببه .. لم أكن أطمح فى الشفاء الكامل بعد أن قال لى الطبيب ان خلايا الكليتين اذا توقفت ، فلن تعود حية من جديد ! . تعودت على لغة العواطف ، ولكنى لم أتعود على الوهم . أنا أقرب اليوم الى الموت منى الى الحياة . كيف أؤجل الموت لاقترب من الحياة ، ولو لأرى ابنى الصغير صبيا ؟ ! . أفتش عن وسائل الخلاص ، ولكنى عاجز ، حتى هذا الشعور كنت أستشفه من الأطباء انفسهم . الم يقل لى الطبيب .. أمتع نفسك بقدر ما تستطيع ! . الم أشعر بزحف الألم البطيء فى جسدى عندما أمشى أو أنظر فى كتاب أو اسقط على الأرض مغشيا على ؟ ! . كل الظواهر تتنبأ بالخاتمة الفظيعة . اصبحت والموت وجهين لعملة واحدة ! .

***

- ٢١ -

بعد الغداء نزلت الى حديقة المستشفى . يداى وراء ظهرى اتجول بين زهور الربيع . أريد أن أغرق فى الألوان ، حتى اللون هنا مشرب بالحمرة ، لونه زاه مخضب بدم الطبيعة ، ليس عليلا ولا واهنا . فى هـذه الأيام كانت قدماى تجوسان أرض الريف وسط حقول الفراولة والطماطم والقلقاس . آكل مبـاشرة من الشجرة ، أشارك فى التنقيب عن درنات القلقاس تحت الأرض . لا بأس .. مازالت صلتى بالأرض موصولة . كنت أتجول حول المستشفى فرحـا بالهروب ، أوهم نفسى بأنى خـارج نطـاق الخطر . أبطىء الخطوات حين الاحظ انى أكاد أجـرى .. مم اخـاف ؟ ! . هنـاك شىء يلاحقنى ، لا يعطينى أيـة فرصـة للتوقف . احاول أن أهدهده واروض شره ، ولكنه يصر على ملاحقتى وتخويفى بصفاقة . كنت أضرب الأرض بقدمى وافنجل عينى فى الوان الزهور ، وأكلم نفسى ، لأتأكد أنى موجود فى هذه الحياة ! . استولى على شـك قاتم وفظيع وعنيد ، ان الحياة تكاد تفر من جسدى . دلائل الموت واضحة اراها رؤيا العيان ،

لكني لا استسلم له ، اتجاهله عن عمد .. أو أراوغه عن قصد .. أو أروضــه فى هدوء .. أو أضربه بالأمل الغامض الضعيف ! . يختلط الشــك مع الأمل مع الخوف مع المقــاومة فى حزمة واحدة بروحى . وحالى لا يستقر على معنى معين . أكاد أسبح فى بحر لجى ليس له قرار . أقبض على التفاصيل التى أعرفها يوما بعد يوم لأكون منهــا نسيجا ربما يعطينى دليــلا للطريق ، اجمع كوى الضــوء وسط الظــلام الحــالك . كنت أشــك فى المعانى نفسها .. فليست هنــاك حدود ! . أرتمى فى أحضــان اليأس مرة ، ثم أعود بكل قوتى فترسو سفينتى على شــواطى الأمان . لمحة أو ايماءة او نظرة من طبيب تعطينى الأمل ، واخرى تسقطنى فى هوة اليأس الفظيع . وقطفت وردة ربيعية ، قرمزية اللون . شممت رائحتهــا الحلوة . كنت أشــمها مثل المدمنين . أحب الرائحة من الطبيعة مباشرة . كان أحد الأصدقاء الفنانين يحدثنى عن أول معرض فى حياتــه عن الوردة . اضطهده النقــاد لأنه رومانسى . انى واقعى ورمانسى فى نفس الوقت . لمــاذا اضطهد النقاد صديقى ؟ ! . هل لأنه أحب الطبيعة والحياة ؟ ! . كنت أطير فى هــذه اللحظات بجناحين ، أحدهما يرفرف فى داخــل المستشفى حيث تنتظرنى الوجوه الصفراء وروائح البنج والأدوية والقيء والاســهال والبول ، وثانيهما يرفرف فى دنيــا الزهور والربيع والفن الجميل . وكان جســدى بين الجناحين يرفرف ضعيفا وواهنا يكاد يسقط على الأرض ! . وحدى جلست بجوار لوحة زاهية من الزهور . فرحت بأنفاسى التى تتردد فى صدرى. فى الريف كانت أســعد لحظــاتى عندما أتمدد تحت شــجرة الصفصاف بجوار الترعة الصغيرة وفى يدى كتــابى أقرأ . من يساعدنى على العودة الى منبعى ؟ ! . كانت تلك اللحظــات نعمة

من الله ، ليتها تعود ! . الشجر والمـاء والقراءة ، اقصى الأماني ، الآن أريد أن أعرف شيئا عن المجهول .. دعوتى الدائمـة .. اللهم انى لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه يارب العالمين . وفجأة انتابتنى لحظـة تحد لذلك المجهول . شملتنى رعشة قوية لا أدرى مصـدرها . فما الذى سـوف يحدث ؟ . ضاعت حساباتى كلهـا فى لحظـة واحدة . لمعت فى ذهنى المواقف الصعبة التى تعرضت لها من قبل . كيف افلت منها ؟ ! . لم اتعود على الذلة أو الانكسار او القهر . كنت أنكسر قليلا ، ثم سرعان ما أعود الى قوتى من جديد . أرجو الا يطول أمد هـذا الانكسار الحـالى . أشعر بأن الأطبـاء يطرقون بعض الأبواب ، ولكنهم يفشلون . لابد ان أطرق أبوابى أنا . فى بعض الأحيـان يجيئنا الموت من أوهى الأسباب ، فلماذا اخاف الى هذا الحد القاتل ؟ ! . الآن أريد تحديد الرؤية . ها هو الموت أمامى وفى داخل جسـدى ، وفى هـذه الزهرة التى أشمها . يخترقنى ، يلمسنى ، بستريح فى الكليتين انتظارا لأن أعطيـه اشـارة البدء فى الهجوم الكامل . هـل أسمح له ؟ ! . انى أعرف خبثه .. هو لا يهاجم الجسـد وحده .. انه يهـاجم العقل والنفس والروح معا . يحدث هـذا عندما يكون الجسد فى منتهى القوة . حسبى أن أصارعه حتى لا يعتدى على عقلى ومعنوياتى وروحى . وهذا هو التحدى الذى أواجهه ! . وانتفضت من جلستى الى داخل المستشفى . كان الغروب والهدوء يفرشان على العنـابر والحجرات والصـالات . هـذه مستعمرة من نوع خاص ، شعبها ضعيف يشكو المرض ، وانا واحد من هـذا الشعب المسكين . لست أعرف طبيعة حكام هـذه المستعمرة ولا مدى اخلاقهم . فى بعض الأحيان أراهم يعرقون فى سبيل شعبهم ، وفى احيـان

اخرى اراهم يهربون ويكذبون ويدلسون . دلفت الى حجرتى . الزملاء الأربعة يستلقون على أسرة . هنا يستحب البحبحة والفيض . كل واحد منا قلبه مفتوح على الآخر . زميلى « ص » يحكى لنا عن كيف قتل «مور هاوس» ابن عم ملكة بريطانيا العظمى أيام حرب الفدائيين ببورسعيد . يقلد لنا صوت مور هاوس بعد ما وضعوه فى الصندوق . كان مور هاوس . يقول .. ارجوك لا تقتلنى Please Don't kill me

ينطق زميلى « ص » الجملة بالانجليزية ، ثم يكررها عدة مرات ، مشيرا بيديه .. وفى كل مرة كان زميلى يحكيها بتفاصيل جديدة ، وبطريقة مختلفة ، يبدع فيها كما يشاء ، يضيف اليها أو يحذف حسب المزاج الخاص ، وبخيال واسع متخطيا الحدث الأصلى البسيط .. وكانت الرواية فى كل مرة تكتسب طعما جديدا .. لا نمل سماعها ! . وكان يحلو لنا أن نستعيد سماعها من فم الزميل . وكان لكل واحد منا روايته المفضلة التى يجوس فى أعماقها . فى هذه المرة استحوذت علينا قصة الفدائيين . جلس زميلى « ص » على السرير وراح يسرد بعض الوقائع . كان منتشيا وسعيدا لأنه كان أحد الأبطال ! . قال .. هل سمعتم عن الطفل البورسعيدى الذى وضع القنبلة فى نصف رغيف من الخبز ، راح يقضمه وهو يقف فى الشارع ، ثم رماه على سيارة القائد الانجليزى المجنزرة ، فينسفها ! . ويصمت الزميل ثم يضيف ، رايت هذا الحادث بعينى مباشرة وانا اتطلع من نافذة بيتى .. لم نكن نخاف الانجليز . كان الغروب على الأبواب والزميل يحكى الحكاية . الشمس فى الأفق الغربى تنام . يحلو لى ان اراقبها فى الدقائق الأخيرة . كنت أذهب الى راس البر كل عام لأرى شمس الغروب من فوق اللسان الذى

يلتقى عنده البحر بالنيل . جريت الى الشرفة التى تطل على النيل . رأيت الكتلة الملتهبة تختفى رويدا .. رويدا .. وراء الأفق . والأشعة النارية الحمراء تعطى اللوحة جمالا فوق جمال. لم اكن أريد للشمس أن تغرب .. لأنى لا أحب الغروب لأى شيء ! . اكره ساعات التوديع من اى لون .. انى أتمسك بهذه اللحظات من أعماقى . أتمنى أن تدوم ولو الى دقائق معدودة . سوف يذهب الضياء ويحل الظلام . ما احلى نور الله الطبيعى المشرق ! . لا بأس أن أتمتع بهذا الضياء الخلاب فى نهايته . داومت على امتصاص رحيقه كلما سنحت الفرصة . اطمع أن تمتلىء عينى بخيوط الشمس الذهبية . لا احب أن تتعثر خطواتى فى الظلام . فى اسيل يخلو المرضى الى آلامهم ، تثور عليهم اجسادهم . وحدنا فى هذا البناء الذى يخيم عليه الصمت المدهش .. حتى الأطباء أنفسهم يلجأون الى النوم المتقطع . يحط علينا هم ثقيل لا نستطيع الخلاص منه . وحدة الآلام تجمعنا ، والكوابيس تلفنا . نحن أقرب الى الفئران منا الى البشر . لا يكف الأطباء عن اجراء التجارب على أجسادنا . أتطلع الى وجهى فى المرآة كل صباح ، فأرى لونى يتغير الى اللون الأصفر المتعدد الدرجات ، الأصفر المشرب ببقايا احمرار ، ثم الأصفر الأبيض ، ثم الأصفر الباهت ، ثم الاصفر الغامق ، ثم الأصفر الذى يتوه فى عينى من الرعب . أتحسر على نفسى . قرص الشمس ينسحب منى . هل هو ملكى وحدى ؟ ! . يعز على أن يفارقنى . يطبق على صدرى حزن مفاجىء تعودت عليه . عدت الى الرفاق .. وجدتهم صامتين ، يخيم عليهم السكون ، لا حركة ولا نأمة .. انتهت الحكايات المسلية .. وبدأ كل واحد يفكر فى مصيره . يستعيد ما حدث فى يومه .

اختلط حزنى مع خوفهم وترقبهم وهواجسهم وظنونهم . وسرت هـذه الروح فى الحجرة . تكاد انفاسى تختنق ! . احب ان اسمع اية كلمة تبدد وحشة هذا الصمت السخيف . انه صمت مدمر للأرواح . وفجأة قال زميلى « ص » :

ـ ماذا أستطيع أن افعل فى مشـكلتى .. ان الأطبـاء عاجزون عن تشخيصها تماما .. ضغط الدم فى الساق اليسرى مرتفع عنه فى الساق اليمنى .. ومع هـذا فانى لا اشـعر بألم ظـاهرى .

وقـال « ع » :

ـ ولكنى اعرف مرضى .. تليف فى الكبد .. ليس منه شفاء .. الأطباء ينصحوننى بنسـيان المرض .. كيف أستطيع ان انسى .. انى أشعر بمرضى على وجهى .. وفى الألم الذى يوجعنى ! .

وقـال « أ » :

ـ الأطبـاء يدخلون الذعر الى قلبى حينما يقولون : ان زراعـة الكليـة لا تصـلح لك ! .. لأنك مصـاب بتـكلس فى الكليتين .. وهو مرض وراثى .. كان لدى أمل فى زرع كلية .. اشقائى مستعدون للتبرع ..

لم اكن افكر فى زرع كليـة . هذا احتمـال بعيد . كان طموحى على قدر امكاناتى . اهـلى الى الآن لا يعرفون قصـة مرضى ولا دخـولى المستشفى . سـددت طريق زرع الكليـة بنفسى . وكان « أ » يغرق فى همومه . يتحـدث مع الأطبـاء

دائما ، يحتد عليهم فى بعض الأحيان ، تنتابه العصبية الشديدة . قلق وحـائر وغاضب ومضطرب الروح . فى كل ضحى يقف الأطباء عند سريره أطول فترة . يدافع عن حياته بكل ما يستطيع من أمل ! . أما « ع » ، فقد كان سمح النفس ، مهذب السلوك ، يشترك مع الممرضات فى أعمالهن ، يساعدهن عن طيب خاطر فى الأعمال الكتابيـة . أشعر معه بالتعاطف والألفـة بقدر ما كان زميلى الآخر منفرا ومعذبـا . وكان زميلى « ص » يحكى لنا عن بناته الخمس بروحـه الخفيفة الساخرة ، لا يكف عن الحـركة فى أرجاء المستشفى ، من هواة الخطابات والبرقيات . كان من النوع الذى يتوكل على الله فى كل شىء ، سريع الكلمـات ، ودود وطيب النفس ، بحبوح . فى كل جملة كان يحلو له أن يدخـل بورسعيد فى جملة مفيدة . فى تلك الليلة كنت أتأمل وجوه هؤلاء الرفاق . أتنقل من سرير الى آخر . من يرشحه الموت منا قبل الآخر ؟ ! . سمعت عميد الأطبـاء يقول لمساعده .. وقد يئس من اقناع « أ » باستحالة زرع كلية له ، وضـاق بمناقشاته .. Let him die ! دعـه يموت ! . تعجبت من هـذه الجمـلة القاسـية . هل يحدد الأطباء أعمار المرضى بهذه السهولة ؟ ! . غضبت فى داخلى . كان « أ » أكثرنا شخيرا فى الليل . نوقظـه ليعتدل فى نومته ، ثم سرعان ما يعود الى الشخير من جديد فى بعض الأحيان ، فيصحو مذعورا . أحاطنا الليل بظلامه . بدأنا نلعب الورق بلا حماس لنضيع الوقت . لم يعد هنـاك حسـاب للمكسب أو الخسارة . حسبنا أن تتحرك الأيدى وتنظر العيون!.

أمرتنـا الممرضـات بالنوم . انسحب كل واحد منا الى سريره عز النوم على جفونى . كنت محبط الروح ، مهدل النفس ، منهك القوى . أحاول أن أستعيد بعض الذكريات ، فلا أستطيع ، أفكر المسـتقبل ، أقرأ ، أكتب ، فلا أستطيع ! . وفجـأة انبثقت

كلمات الشاعر القديمة فى نفسى تزيح الكآبة . رحت أترنم بصوت متوجس :

ان شر النفوس فى الأرض نفس
تتمنى قبــل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك فى الورد وتعمى
ان ترى فوقها الندى اكليلا (*)

* * *

(★) الابيات للشاعر ايليا أبو ماضى .

- ٢٢ -

بدات روائح الصيف فى أرجاء المستشفى تهل علينا . كان الضابط العظيم يمر فى بعض الأحيان لملاحظة النظافة ، يضرب ويشتم ويخصم من مرتبات العساكر . اللزوجة والحر يتراميان فى العنابر والحجرات والعيادات . الذباب يتراكم على النوافذ وبقايا حجرات العمليات . فى أحد طوابير الضحى وقف الأطباء أمام سريرى يتناقشون . كنت أفهم من نظراتهم ووجوههم وطريقة حديثهم ما يدور فى رؤوسهم . قال الطبيب الذى اخذ منى عينة الكلى : للأسف لم تنفع العينة الأولى ، نحن نريد عينة ثانية ، ثم وجه حديثه الى : غدا .. جهز نفسك لنأخذ عينة اخرى ! . فوضت أمرى الى الله . فماذا أستطيع أن افعل ؟ هل احتج ، وعلى من ، وكيف ؟ ! . واذا ضجرت أو سخطت ، فسوف تزداد حالتى النفسية سوءا ! . كنت سجين أمر الطبيب ، ولا حيلة لى فيما قاله . سوف أعود مرة أخرى الى البنج ، واقتلاع ظهرى من جسدى . نظرت الى الأطباء بغيظ داخلى خائف . تعجبت من اللامبالاة التى تشملهم . لم أدرك سر هذا البرود الذى يتمتعون به ، هل هو نتيجة طبيعية لكثرة ما رأوا.

من حالات ، أم أنهم يتعمدون هـذا البرود ليبدوا فى ثوب الوقار اللازم ، وربما لا هـذا ولا ذاك ، وانما هم يؤدون العمـل بحياد وبرود أعصاب حتى يعرفوا ويعالجوا بطرق صحيحة . لماذا انصـاع الى أوامر الأطباء بهذه السـهولة ؟ . قلت للطبيب : حاضر .. لكن حاضر هذه قلتها وانا مطفأ الروح ، محبط النفس ، مسلوب الارادة . كان أمر الطبيب لى كأمر القوى على الضعيف . تركنا ركب الأطباء وحدنا . كانوا يثيرون فى أعماقنا نوعا من القلق المضنى ، لا نعرف كيف نهدأ بعده ! . يتركون وراءهم دوامـة من التساؤلات التى لا تنتهى ، والهواجس والظنون التى تأكل النفس والأعصـاب ، والتفكير المضطرب المتشعب الذى يسير فى طرق ضبابية غائمة ! . يسود صمت قصير ، ثم يبدأ كل واحد منـا التفكير بصـوت عال يطلب النجـاة والاطمئنان من زميله ، يتلمس أوهى الآمال ، ليتمسـك بها من فم الطبيب . أكثرنا توترا هو « أ » الذى يترك الحجرة مباشرة الى الخارج لاحقـا بهم ، مواصـلا الحاحه لزرع كلية له . اصبح مجنونا بزرع الكليـة . يفـكر فيه ليل نهـار ، يحول اى حـديث تجاهـه . لا نتوقع منه كلاما الا فى زرع الكلية . يشرح حتى الى ما بعد زرع الكلية . يعيش فى حلم دافىء مضطرب ، يعطيـه الأمل . يتعارك ويناقش ويتوتر ويغضب ، ثم يفرح من أجـل تصور هذا الأمل بطريقته الخاصة . وفى بعض الأحيان يدوخنا معه فى همومه . ولم يكن لدينا حل لها ، فكان يغضب منا ، ينتحى جانبا لا يكلمنـا ! ، نعود فنصالحـه بالأمل المرتقب ، فتنتشى روحه من جديد ، يشرق وجهه بالضحكات . ولم اكن بعيدا عن آماله وطموحه ، لكنى أكثر منه بسـاطة ، أعقد منه تحليلا ، بطىء الغضب ، بطىء الأمل ، بطىء التفاؤل . لا اعرف مدى الأمل الذى كان يرتكز عليه « أ » ولا قوته ولا عنفوانه ،

انما كان يتراءى أمامى قويا عارما فى بعض الأحيـان ، ضعيفا ، واهنا فى أحيان أخرى ، حتى أراه يبكى بجيشان عاطفى يقطع القلب . يلفحنى عالمـه عن قرب ، ولكنى أعجز عن تقديم أى شىء له ، لأنى أغرق فى عالم الذات أيضا . أبكى وأغضب معه على حالى تتملكنى ذاتى وحـدى . وسط هـذا الخضم ، أحب أن أنقذ نفسى من الضياع . كانت سفينتنا يتهددها الغرق ، وكل واحد منا يطلب النجـاة لنفسه ! . كان الداخل الى حجرتنا مفقودا .. مفقودا .. والخـارج منها مفقود .. مفقود ! . زنزانة محكوم علينا فيها بالاعـدام مع وقف التنفيذ ! . نسبح معـا فى نهر الاحباط ، نغرق معا فى اليم ، نسـعى للخـلاص من الموت ، نشتاق للعافية التى تذوى من أجسـادنا رويدا .. رويدا .. لكن « ص » كان أكثرنا تماسـكا ، لا يشكو مثلنـا من الكبد أو الكلى . دائما يفرش سجادته أمامنا ليتوجه الى الله . يضحك ويسخر ويطيب خواطرنا النافرة ! . انجذبت اليه بكامل قواى ، ندردش معا ، نتأمل معا . يمثل لى القطب الموجب الذى يرفع معنوياتى ، يبثنى الراحـة والبساطة والسخريـة ! . يشملنى بايماءاته ولفتاته الحنون فى أوقات التجهم والعسر ! . كنت أحب أن أسمع منه دائما جملته المفضلة ، يقولها فى طيبة شديدة .. ربنا كبير .. ربنا كبير . فى البدايـة كانت تتسـلل الى أذنى دون أن أدرى بها ، ثم وعيت بها ، ثم كنت انتظرها من فمـه ، ثم أصبحت الح عليـه ، أن ينطق بها ، دون أن يعرف هـذا الالحاح منى ! . فى أشـد حالات التفكير والتدبير والحسابات ، التى أضربها فى عقلى ، والضيق الجـاثم على روحى ، تنطلق من فمه ، فتبدد عثراتى وهمومى . انظر اليه وهو يصـلى فيرتاح قلبى . غدا سـوف ادخل حجرة العمليـات مرة أخرى .. ربنا كبير .. ربنا كبير . تقلصت فى مكانى . عافت نفسى الطعـام

والشراب . تسللت الى سرداب الحزن والتوتر والبنج الموضعى وهزة الجسد الطاحنة ، والصـــوت المكتوم فى داخلى ! . اناطح ضعفى ، يهزمنى الواقـــع الابرة تلمع فى يد الطبيب ، لون الدم فى عينى ، نظرتى تنكسر الى أرض الحجرة ، راسى « يوش » برؤى ضبابية معتمة هائمة ، لا أستطيع أن أقبض على واحدة منها ، متى أعرف ، وكيف ، والى متى تستمر هذه الأبحاث ؟ ! . وقعت فى خيوط العنكبوت ولا مفر ! . أصـــابنى شلل الرؤيـــا والتخليط والشك . تمددت على السرير ، لا حول لى ولا قوة . أردت ان أبكى أو أغضب ، أو أتمرد ، أو أجد أية طاقة للنور ، فلم أستطع . أصبحت مغلوبا على أمرى ، وأنا أتنفس ، شاخص العينين فى اللاشىء . آه لو يأتى الموت لانتهى . هـــذا أفضل . كنت أحب أن أموت فى عـــذابى . من لم يمت بالسيف مـــات بغيره . هل أرضخ لهذا الموت البطىء السخيف ؟ ! . ولم أكن حريصا على شىء مادى فى الحيـــاة ، بعض المعـــانى هى التى تجذبنى دائما . هل اظل متمسكا بها طويلا ؟ ! .



- ٢٣ -

جاءت المحبوبة على غير ميعـاد . لم نكن نتحدث بصـوت مسموع . كنا نتبادل الاحاسيس من خـلال الصمت . جلست قبالتى تطرق برأسها ، تنظر فى مجلة بين يديها ، ترفع بصرها فى وجهى لترانى عن قرب . تتوجس من أى كلام توجهه الى . ظللت أنا الآخر منعقد اللسـان . ملأت عينى من فستانهـا الربيعى الأنيق . وقع بصرى على يديها الدقيقتين وخاتم الزواج . دق قلبى فى صـدرى . اقتربت منها . تبادلنا ابتسـامة مشتركة . غمرتنا شمس مارس الدافئـة . استرحنا لهذا الصمت الذى لم نرد ان نقطعه بأية كلمات . أشعلت سيجارة . ذهبت وأحضرت لها كوبا من البرتقال . وضعت ساقا على ساق . وضعت المجلة بجوارها . امتلأت بالسـعادة لأنها موجودة معى وفى مقـابل عينى ! . تمنيت ان تطول اللحظات فى ظلها . هذه محبوبتى ، اتأملها من أية زاوية ، فأجدها جميلة ، من الوجه ، أو الساقين ، أو القـدمين ، أو من الجـانب الأيسر ، أو الأيمن . من الذى اسعدنى بهذا الندى الصبوح وسط الضباب الكثيف ؟ ! . كنت اشم بقايا عطرهـا فى كفى . نور عينيها فى عينى .. تقـاطيع

وجهها ، طيفها ، محياها ، اريجهـا ينتشر فى المكان كله ، يغطى على كل شىء . انزاحت همومى فى لحظـة واحدة ، وانتقلت الى عالمى المحبب . همست :

ـ ايه الأخبـار ؟ ! .

قـلت :

ـ طيبة والحمد لله .

ـ هل أخذوا العينة من الكلية ؟

ـ اخذوهـا ..

ـ آلمتـك ؟

ـ بعض الشىء ..

ـ وبعـدها ؟

ـ لا أعـرف .

ـ الم تسأل الطبيب ؟

ـ لا أحب ان اسأل كثيرا ..

ـ اسأله حتى نطمئن ..

ـ ان شاء الله ..

ـ هل تستطيع أن تخـرج لتقضى معنـا يومى الخميس والجمعـة ؟

ـ سوف افكر .. ضقت بهـذا المستشفى .. أخـاف ان أصاب بالاكتئاب ؟

ـ وماذا عن الكلى الصناعية ؟ !

ـ لم يقرروا شيئا بعد !

ـ الوقت يمر سريعا .. واخشى الا يكون فى صالحنا ..

ـ انهم فى مرحلة الأبحاث ..

ـ والى متى تستمر هذه الأبحاث ؟

ـ لا أعـرف ..

ـ يجب أن تعرف .

ـ أخاف أن أناقشهم فيغضبوا ..

ـ انى أفـكر دائمـا .. وحـدى فى البيت .. اشـعر بالقلق الشديد ..

ـ وماذا نستطيع أن نفعل .. ما باليد حيلة ..

ـ ازاى ؟ ضرورى أن نعرف .

ـ سوف نرى .. سوف نرى .. اشربى البرتقال .

ـ بالأمس شوينا لحما فوق السطوح .. كنا نريدك معنا .

ـ ما دام العيال أكلوا فأنا أكلت .

ـ الأكلة كانت تنقصك .

ـ سـوف نأكل .. ربنـا يطلعنـا من المسـتشفى على خير بس ! .

ـ حاول أن تقضى اجازة الخميس والجمعة معنا .

ـ ان شاء الله .. مش عارف .

ـ حاول يا شيخ .. دا القعدة هنا مملة جدا ..

ـ غصب عنى .. دا انا زى المسجون هنا ..

وارتشفت المحبوبة جرعة من عصير البرتقال . اشعلت سيجارة . ظلت تركز نظراتها على . كنت أحاول الهروب ، حتى لا تلاحظ لونى الأصفر . نكست راسى الى الأرض . تحيرت بينى وبين نفسي . لا أحب أن ترانى ضعيفا . أحب أن ترانى قويا وصاحب عزم بجوارها . شملنى ضيق شديد ، لم أجد له مخرجا . وقع بصرى مرة أخرى على خاتم الزواج فى اصبعها . كان يلمع فى ضوء الشمس الساطعة .. هل تضيع أيامنا الحلوة ؟ ! أتذكر الآن أول ليلة فى حياتنا معا . كنا وحدنا لأول مرة . لم أكن أصدق عينى . هذا الملاك استجاب لى اخيرا . أنا وهو فى بيت واحد ! . كان العش يطير بنا محلقا فى سماء الحب الأبدى . ها هما محبان جديدان يحفران طريقا .. « ف » ، « ث » ، يتعانق الحرفان فى الأثير ، وعلى الجدران ، وعلى سرير الفرح ، وفى أعطاف الثياب ، ينشران أريجهما المعطر على شجرة الجهنمية عند مدخل البيت ، وفى الطرقة القصيرة ، وعلى السلم ، وفى المفتاح الذى فتحنا به الباب لأول مرة ، وعلى الكتب القليلة التى حملناها معا ، وفى خاتمى الزواج . أخيرا يتعانق الحرفان . كانت لحظة غريبة ومدهشة . دفؤها مايزال فى خاطرى ، لم يبرد أبدا . لماذا يريد المرض أن يخطفها منا بصفاقة سخيفة ؟ ! . ركزت بكل ما أملك على خاتم الزواج هنا يكمن حبى ويعشش . هنا اندلعت وما تزال أيامنا وسنواتنا المشتركة تمنيت وما أتمنى على الله الكثير ان يبقى هذا الخاتم مضيئا دائما . أن أحمل حرف الثاء فى خاتمى باليد اليسرى ، وأن تحمل المحبوبة حرف الفاء فى خاتمها باليد اليسرى . تسلل

اشعاع خاتمهـا الى قلبى ، ثم الى صـدرى ، ثم الى خـلايا جسـدى كله ، فحولنى الى لؤلؤة لا اعرف كنهها . هـذه لؤلؤة العقيق الموجودة منذ الأزل ، والى الأبد ، بين البشر . عثرت عليها . حاولت أن أحافظ عليها باخلاص . من يمنحنى السعادة غيرها ؟ ! . هى مفتاحى الى هـذا العالم . وهى سلواى وعزائى وعذابى فى آن واحد . معى فى السراء والضراء ، فى عملى وابداعى . تشملنى ، اغرق فيها ، تتملكنى ، ألجـأ اليهـا كلما ادلهمت الأمور . تمنيت ، وما تمنيت على الله ، أن تدوم هذه اللؤلؤة فى قلبى وسـلوكى طول العمر ! .

وقال جميل المحيا :

ـ هل تنام الليل ؟ .

قـلت :

ـ نوما متقطعا قلقا ..

قـال الجميل :

ـ هل يعطونك بعض الحبوب المهدئة ؟

ـ احب أن أكون طبيعيا ..

ـ وما نتيجة كشف اشعة عظام الرأس ؟ : .

ـ لم تظهر بعد .. من الصـدف السعيدة أن أخصـائى الأشعة يحاول كتابة الشعر .

ـ عثرت فى بعض الأوراق على قصة قديمة لم تنشرها ..

ـ آه .. اننى أعيش قصـة أو رواية طويلة محزنة .

تمتم الجميل فى اسى . شعرت بالندم لأنى تكلمت بصراحة. هزت راسـها فى حيرة . لمحت مفرق شـعرها عند الأذنين . كنت اريد ان امتص الرحيق عن آخره . لن يثنينى عن تحقيق عزمى اى شىء . كم مرت بنا ساعات من الصفو المريح الهادىء !. لم نكن نفكر فى المجهول الذى داهمنـا فجأة . الآن يضرب كل واحد منا اخماسه فى اسداسه . يطن راسه بالتوقعات القاسية . لا نعرف الى اى طريق نتجه . تعثرت الخطوات منـا ، اصبحنا نتلقى الأيام بالشكوى والظنون . نتوه بين وصفـات الأطبـاء واختباراتهم وتحليلاتهم ، ايماءاتهم وحركاتهم . نحلل ونفسر . نشتاق أن نعرف ولو بصيصـا من المعرفـة .. يغيم الحـاضر والمستقبل فى اعيننا . أصابنا عجز الرؤيا . كنا نحب أن نحطم جدار اليأس الذى كانت تتحطم عليـه ذرات الأمل الباهتـة . الأدوية لا تفيد ، التحاليل لا نفع منها ، الأشعة تضييع للوقت ، دعـوات الأصـدقاء تذهب مع الريح . كل شىء خـواء .. خواء .. خواء ! . ضعت يا جدع فى هـذا المستشفى الكبير وسط المئات مثلى . كان موعد الغداء قد أزف . و « أ » فى حالة ترقب مستمر ، له معركة مع كل وجبة . يهدد باسـتدعاء ضابط عظيم اذا جاءه الطعام ناقصا . و « ع » يأكل منكسر الجناح . كنا جميعا نأكل لنملأ فراغ الوقت والمعدة ، ولنبدد لحظات الانتظار الطويلة ، التى تكمن فى أعماقنا .. متى نخرج من هـذا المستشفى ؟ ! . الأكل فيه الداء والدواء معا . نأكل فترتفع نسبة البولينا فى الدم ، تثقل الراس فى خمول . يجيئنا الاكتئاب على مهل ! . تسوء أحوالنا النفسية . نتقيأ ما أكلناه . نشعر بالجوع من جديد . نخـاف أن نأكل حتى لا ندخل فى الدائرة المعروفـة . أخشى على المحبوبة من هـذه الدائرة . استحثها للعودة الى البيت . تعرف بسليقتها ما يحدث . يفرش

عم « م » سجادته للصــلاة . يبتهل الى الله فى خشــوع . اختلس النظرات اليه فى سجوده وقيامــه . ما الذى يصــلنى بهــذا الانسان ؟ ! . فى آخر الليل نثرثر معا ، يفتح لى قلبــه ، يقوى من عزيمتى ، يجذبنى الى ساحته الطيبة ، يفيض مودة ، يفرش على ظله الأليف . كانت المحبوبة صامتــة ، تنظر الينا . لا أعرف فى أى شىء تفكر . ولا أريد أن أسألها ، أو اخمن فيما تفكر . وجهها وحده يطالعنى ، فيسبغ على قلبى طمأنينة هادئة واثقة . تعودت أن أغرق فى هــذه المعانى طويلا . أشعر بالراحة طالمــا تجلس بجوارى . لست وحدى . فرحت فى داخلى ، لأنى عرفت كيف أحب . هأنذا يظلنى الحب وأنا فى ضعفى . انفتحت لى جداوله فى عز الهجير ! . انحسر الكلام الخــارجى ، ازاء الروح الداخليــة المتدفقة الدافئــة ، بل انحسر الجســد ذو الملامح المجددة ، تجاه الفيض الساحر الريان يفرش حنانه . كان حبى قد استوى عوده ، وبانت ملامح نضجه . هل يريد الموت أن يقتحمه ؟ ! . لعنت السخيف بقولى الصريح .. يا ابن الكلب .. لا تقترب منى ! . آه لو كنت أمامى لصرعتك . انى أتخــابث وامكر معك ، ولكنى أتمرد عليك ، اثور وأسخط ، انى أتمنى أن أضربك بالقاضيــة .. أطلق عليك الرصــاص ، انك عــدوى وقاهرى . هل أستكين اليك ؟ ! . تعال الى .. وســوف تجد الساحة خاوية .. لا اخاف منك . اعرف انى لن أنتصر عليــك فى النهاية ، ولكنى لن أدع سلاحى أبدا . واذا سلمت سلاحى ، فسوف اعطيه لمن بعدى ، حتى يقاوموك ابدا . المعركة دائرة بيننا نحن البشر وبينك . اننا لا نحب الحيــاة من أجل ايــة حياة ، انما نحبها حياة من نوع معين . حياة تخلو من القهر والفقر والاستبداد . استعطفك فى بعض الأحيــان ، فتصــد عنى بغرور وصلف وصفاقة . ارنو اليك بقلب مكســور ، فتشيح

عنى متجاهلا ، ومتجهم الوجه . اذن مرحبا بالدخول ضـدك فى معركة . دعنى الآن أستمتع باللحظة الحاضرة . أشرب من كأس الحب دون خوف . قلت للجميل :

ـ ارجو ان تذهبى الى البيت ..

أومأت :

ـ وانت ؟

قلت :

ـ الله معى ..

قالت :

ـ هل تريد شيئا ؟

قلت :

ـ أريد مجموعة تشيكوف أوساروبان القصصية .. وطبعا رواية الشحاذ لنجيب محفوظ .

قالت :

ـ سوف احضرها فى الزيارة القادمة ان شاء الله ..

قلت :

ـ ولا تنسى أن تقدمى الماء والحبوب الى يمامتنا المفضلة فوق نافذتنا .

قالت :

ـ والحمام فوق السطح .. هل نسيته ؟ .

ضحكت وانا اقول :

ـ طبعا .. طبعا .. خاصة زغب الحواصل منها .. لا ماء ولا شجر ..

ابتسمت وهى تقبلنى مودعة . احتضنتها فى صدرى كانت لحظة لا تنسى . لا أحب الفراق من اى لون ونوع وطعم . وكنت مشغول البال ، مهموم القلب ، افكر فى الجراح التى اصابتنى . لا استطيع أن اتكلم او اشكو أو اضجر ! . مشيت معها فى الممر الفسيح أجر خطواتى الثقيلة . أحاول ان اخرج من تابوت حزنى . أبدو أمامها متماسك الروح ، يهزمنى شعورى الداخلى وقلقى وخوفى . عدت واحتضنتها مرة أخرى أمام المصعد . وجدت الدموع تفر من عينى . عدت الى سريرى منكس الجبين ، قلبى يتوه منه النبض ، نفسيتى متعبة الى النهاية . شممت رائحة الحجرة ، فشعرت بالقىء والغثيان . اشحت ببصرى عن الوجوه الصفراء . تضيق الدنيا فى عينى . تطلعت من نافذتى التى تطل على فناء المستشفى والنيل . كان المحبوب ما يزال ينزع خطواته الى الخارج . ارتشفت من كيانه كله على البعد من جديد ، رأسه ويديه . وتسمرت نظراتى عليه ، تتقدم معه . ها هو الآن يترك الباب الخارجى ، يعبر الى جوار النيل . يذوب مع المياه الفضية ، تكبر اللوحة وتكبر ، يصبح الجميل طيف ضوء لامع ، اكاد أراه بصعوبة ، أرجع البصر وانا حسير ! ..



- ٢٤ -

في الصباح كنت استعد لعمليـة جراحية جديدة لم أسمع عنها من قبل . توصيل شريان بوريد فى ذراعى الأيسر . جرجرت قدمى الى حجرة العمليـات . تمددت على الطاولة نظفوا الذراع عند المعصم . أعطونى حقنة البنج الموضعى . استسلمت فى هدوء . لم أعد أشـعر بذراعى . كنت يقظا ، ومفتوح العينين ارى ما يحدث واسمعه . وغرقت فى داخلى انتظر . كان الجراح قصير القامة ، سريع الحـركة ، يلقى الأوامر الى الممرضـات بطريقة سريعة حاسمة . أحببته وكل المتعاونين معه . هم يسيلون الدماء من اجل وقف تعاسـة الانسان . وانا نفسى استعذبت الخطر والألم فى هدوء غريب . رأيت المشرط فى يده ، فاضطرب قلبى فى صـدرى فى عنف . ولم أسـتطع أن أتمـالك نفسى افبكيت .. ربتت الممرضة على كتفى فى حنان . مسحت قطرات الدمع وانا ابتسم . وضعوا عصابة على عينى ، فازداد وجيب الخـوف فى جسـدى . أحسست انى أدور فى طواحين الهواء الفارغة . كان ذراعى الأيسر كتلة ثقيلة بجوارى ، دافئا ومنتفخا ، فى حين كان جسـدى باردا ومتقلصـا . سمعت المشرط يقص

اللحم الحى والشريان . رفعت طرفا من العصابة عن عينى ، فاذا وجه الجراح يواجهنى . كان العرق يتصبب من جبهته . تململت وأنا أسأله :

ـ ما فائدة هذه العملية يا دكتور ؟

قال :

ـ انها تساعد على حضور الدم وتدفقه فى عملية الكلى الصناعية .

قلت :

ـ وهل تعد جديدة فى ذلك الميدان ؟

قال :

ـ نعم .. عمرها لا يتعدى الست أو السبع سنوات .

رفعت العصابة كلية عن عينى ، فقال الجراح :

ـ هل هذا يريحك ؟

قلت :

ـ نعم . ! .

شاهدت العملية على مسرح ذراعى . تجلدت وتجمد شعورى . غشيت عينى بالدم المتدفق من الشريان ، يغطى الذراع كله ، ويسيح الى أسفل ، على وسادة من القطن أحسست بدبيب قطع الوريد ليوصله بالشريان الجامح الدامى . ولم أستطع أن أواصل المشهد ، فوضعت العصابة على عينى مرة أخرى . بللتها بدموعي المنسابة التلقائية . وقال لى الطبيب الجراح :

– اين تحب أن تذهب بعد فترة النقاهة ؟

قلت :

– انى أحب الفلاحين .. !

قال :

– كلنا فلاحون .. ذكرتنى بأيام القرية .. من أى بلد انت ؟

قلت :

– من ابو كبير شرقية ، ثم انشاص أيضا .

قال :

– كنا نلعب الكرة الشراب فى القرية ونحن صغار . !

وكنت قد سألت الطبيب المشرف على العلاج عن الوقت الذى تستغرقه العملية فقال لى : نصف ساعة . الآن مرت ساعة ونصف ساعة ، والجراح ما يزال يجفف شعيرات الدم القانية . تمر الثوانى بطيئة مملة . تختلط قطرات الدم المتدفق مع خوفى وحنان الممرضات وبرود أعصاب الجراح الذى كان مشهودا له بالكفاءة والمقدرة فى عمليات الأوعية الدموية . وكان من عادتى أن اثق بالأطباء المعالجين . هذه هى أنفاس الجراح فى أذنى ، واصابعه تبنى وتشيد وتهندس عمارة جديدة فى ذراعى . توصيل شريان بوريد . انه يفتح طاقات الأمل أمامى فى الحياة . تزداد طواحين الهواء فى رأسى . آخذ أنفاسى بصعوبة . ومن حسن الحظ أن دموعى تستجيب لى لا تخفف عنى . وضعت الممرضة كفها على جبهتى ، وهى تهمس :

ـ انت كويس ؟ .

قـلت :

ـ الحمد لله .. متى ننتهى ؟ .

قـال الجراح :

ـ الأمور تسير على ما يرام .. لكنك تعرف انها عمليـة دقيقـة ..

قـلت :

ـ اعمل معروف يا دكتور .. أنا متعب جدا .

قـال :

ـ كله خير .. ان شاء الله .. خير ..

عاودت رفع العصابة ، فرأيت احدى الممرضـات تجفف الدم المتدفق بآلة كهربائيـة فى يدها ! . غمغمت وانا اضـع العصابـة بسرعة . آه يا ذراعى . صـوت المشرط الحـاد فى أذنى . تمنيت وما تمنيت على الله الكثير أن انتهى من هـذه العملية فى لمح البصر . كدت أزعـق من الضيق والملل بأعـلى صوتى . تماسكت وأنا أبدو صابرا وفدائيا ! . هل ينقلب مرح الطفولة وشقاوتها الى هـذا الهم الأبدى ؟ ! . هـذه خطوة أولى نحو الكلى الصناعيـة ، لا أعـرف ماذا يجىء بعدهـا . لا يهم .. أمنيتى الآن أن يرفع الجراح يده عنى . وفجأة همس لى : خمس دقائق وننتهى . اعترانى فرح مباغت مثل السجين الذى يسمع كلمـة « افراج » والعودة الى الحيـاة . رفعت الممرضـة العصابة عن عينى . كانـوا يربطون مكان العمليـة بالشـاش . تنفست من أعماقى . طافت ابتسامة مشعة على وجه

الجراح . ضحك وقال : أرجو أن تكون عملية ناجحة . وأمرونى ان اظل ممددا على الطـاولة بعض الوقت الى أن يحضروا لى مقعدا متحركا ، يدفعوننى عليه . لم أشعر بذراعى بعد . وجدت نفسى فى حجرة العناية المركزة . لم استرح اليها . الحياة فيها ضيقة الحدود ، لا ضحكة ولا بسمة ، ولا نكتة ، انما نظرات الاشفاق والتمنى بالشفاء . وجدت دورقا من الليمون البارد بجوار سريرى . كنت فى منتهى العطش . دلقت العصـير فى جوفى . ما يزال صوت آلات الجراحة فى أذنى . استغرقت فى نوم عميق ، ثم صحوت وأنا أشعر بخيوط العملية النارية تشوى ذراعى . كان أثر البنج يضيع . يدى تشـد على شـدا مؤلما فظيعا . اصـدرت الآهات التى استريح اليها . آه يا يدى .. آه يا يدى ! . لا بأس ان نصـدر الآهات فى الوقت المناسب . اقتربت منى احدى الممرضات وهى تهمس .. ازيك ؟ . خرجت الكلمة من فمها كصـوت اليمامة الراقـدة فوق نافذتنـا فى حلوان . كنت أمر على كلمـة ملائكة الرحمـة مرور الكرام ، ولكن أن يقف على رأسى أكثر من مـلاك يتحـلى بخفـة الدم الرحيمة .. أن يحدث ذلك ، فان وصف الملائـكة يصبح اسما على مسمى بصحيح ، أصلا لحقيقة موجودة . نحن نعـانى حتى نعطى للألفاظ وجودها . أحب لغتى لأنها تحقق ذواتنا ، لم أجد غير قلمى الجـأ اليه فى اللحظات العصيبة . أفرغت همى وضيقى فى الكلمات . ازداد حبى للكلمـات المكتوبة والمقروءة . تغلبت على الألم بالحروف . اعتدل رفيقى فى سريره .

قـال :

ـ اهلا .. من اى بلد أنت ؟

قـلت :

ـ من الشرقية .. وانت ؟ .

قـال :

ـ من الشرقية أيضا .

قـلت :

ـ من اى قرية .

قـال :

ـ ميت أبو على .. وانت ؟ .

قـلت :

ـ أبو كبير ..

أحسست بالراحة . لست وحدى . هذا فلاح مثلى يعانى . تطلعت الى وجهه الضامر وعينيه الضيقتين . كانت بقايا الخوف والضعف تظهر من تقاطيعه المتكسرة . آثار نزيف الدم ما تزال تكسبه اللون الأصفر . صوته واهن هامس . حولت بصرى عنه ، حتى لا يضايقه فضـولى . كان اللهب يلسع شريانى أو وريدى لا أعرف ، لأنهما أصبحا يصبان فى مجرى نهر دماء واحد . هذه ثانى عمليـة بعد عمليـة أخذ عينة من الكلية . يبدو أن جسدى سوف يصبح أرضا خصبة ، ومسرحا طيبا ، للعمليات والتحليلات والفحوص . شملتنى لحظة احباط عميقـة جدا . ماذا تفيد هذه العمليات ؟ ! . العمر واحد والرب واحد .. ولن يستطيع الطب أن يطيل فى عمر الانسان ثانيـة واحدة ! . الألم الفظيع ينشر ذراعى كله . يجف حلقى من العطش . اشتاق الى المـاء بغير حدود . طلبت كوبا من المـاء دلقته فى جوفى ، فاذا الطعش يزداد حـدة ! . مـاذا أفعـل .. لن أرتـوى أبـدا .

بسم الله الرحمن الرحيم .. وخلقنا من المـاء كل شيء حي . تذكرت هـذه الآية من القرآن الكريم . يتماوج الألم فى ذراعى نابضا وحيا . وكلما ازداد لهيبه قاومت وتحملت أكثر . وهـذا هو التحدى الذى أواجهه . وخزة ألم تقابلها ضربة مقاومة عنيدة متى يرحمنى الله ؟ ! . لا أعرف ! . الحجرة تضيق فى عينى . أكاد لا أرى شيئا . تركزت كل حواسى عند الشريان الذى وصـل بالوريد . شعرت بنبض الدم يسرى حارا متدفقـا . وضعت أصبعى علي شاش الرباط ، فاندهشت خائفا . كيف حـدث هذا ؟ ! . ان الذراع ينبض سريعا حارا مثل تيار كهربائى متدفق الشلالات ! . هل أعيش بهـذه الكهرباء الجديدة ، تسرى فى ذراعى عند المعصم ؟ ! . هـذا دليل على نجـاح العملية . عدت ففرحت بالنبض الدافق رغم الألم . هذا دليل الحيـاة . لمحت رفيقى يسترخى نائما بعمق ، وكان يتحدث معى منذ لحظات . دعوت له من قلبى . أصغيت الى أصـوات الممرضات الهامسة . أحببت الأصوات وصاحباتها . رف طيفهن فى قلبى . فتذكرت أمى وجميلة المحيا . كنت داخل خيمة من الحنان تشملنى . طرت من سريرى الى عوالم أخرى مسحورة بنبل الانسـان ونقائه . طوفت بعيدا عن حجرة الانعـاش . تفتحت عينى على حدائق واسـعة كنت قد نسيتها فى زحام السنين . أشـجار المـانجو والبرتقال واليوسفى ، التى كنت أسبح تحت جذوعهـا فى انشاص ، أقطف ثمارها على مهل ، وأختار وأرى بعينى الألوان والأحجام ، وأشم رائحـة زهورها .. وطزاجة لمسها لأول مرة. لم أكن أشعر بالعطش . كنت أمتص عصيرا ربانيا مركزا وريانا ونقيا . اختلط بالمـاء والأرض المشققة السمراء مباشرة ، أتوه فى الخيرات . تمنيت ، وما تمنيت على الله الكثـير ، أن أعـود لأشجارى ومياهى وأرضى وثمارى عما قريب ! .

* * *

- ٢٥ -

الآن يشرق الأمل فى نفسى . زالت بعض الكوابيس التى جثمت على صـــدرى . عدت الى زهرة الحياة اشمها من جديد. فتحت نافذتى ، فاذا الضـــوء يجتـــاح الحجرة . عيناى تغوصان فيه الى النهاية . اقترب يوم شم النسيم . ســـوف نقعد فى قلب الحقل . يركب خالد حمارا . فى هـــذه اللحظـــة بالذات يطير قلبى على جنـــاح من الخضرة اليانعة . بلادنا هى الأمـــل الباقى . عشرات التفاصيل تدق صدرى . أمنيتى أن أرقد تحت ظل شجرة من أشجار التوت الذى احبه منذ الطفولة . ليس كل أشجار التوت ، انما شجرة أو اثنتين واحدة .. يستحيل أن انساها . كان أبى يقعد تحتها معظم ساعات النهار . يتفرج على الرائح والغـــادى . ودود وطيب . أما الثانيـــة ، فهى توتـــة عبد العال الشاذلى بانشاص . كنت أقعد تحتها ، آكل الطماطم ، وازرع القلقاس ، والتقط حبـــات الفراولة من الأرض : أرقد وسط الشجيرات الجميـــلات الأنيقـــات .. المـــانجو والبرتقال

واليوسفى . وكان عبد العال يقدمها الى وهو فرحان ، كالخبير الواثق من نفسه : هذه شجرة أنثى ، تطرح كل عام ! . عبد العال من الصابرين . خجول وهامس الخاطر ، يعانى فى صمت أشعر الآن بحنين زائد اليه . الماضى يختلط بالحاضر بالمستقبل . اكاد أتبين الخيوط بعضها من بعض . لابد أن يؤمن الانسان بأن أحداث الحياة لا تجرى كلها حسب هواه . فهى تفجؤنا فى بعض الأحيان ، بما لا نريد أن نعترف به . وعلينا أن نروض انفسنا على تحمل المفاجآت ، حتى ولو كانت مفزعة ! الآهات تنبعث من حولى . اللون الأصفر يفرض وجوده . الرائحة الكريهة تنتشر فى الهواء . الضيق يأخذ بالأنفاس . لا مفر من التسليم ، ولو الى حين . الذباب يموج فى حلقات حلقات . عذاب المرض أشد قسوة من عذاب السجن ! . تقيأت اكثر من مرة فى هذا الصباح . داخ راسى وثقل ، وكدت اقع على الأرض . هذا المستشفى من تشجيع المشير « ع » الذى اتى اليه فى آخر حياته فاقد الوعى ، بعد أن تجرع سمه بيديه ! . مات وسره فى داخله . الى متى تلاحقنا الهزيمة ؟ ! . تهون الهزيمة الفردية بجانب الهزائم العامة ! . احرك الآن ذراعى فى حرية . يتدفق الدم عنيفا وقويا من شريانى أو وريدى على حد سواء . ما هى الخطوة القادمة يا ترى ؟ ! . انى أترك لهم جسدى يجربون فيه ما يريدون ، وكيفما يشاءون . وبالكاد التقط بعض التعبيرات الطبية الانجليزية ، فأجرى للقاموس لأفك رموزها ، رغم أنها لن تفيدنى فى شىء . التقط الايماءات والحركات والعيون والأيدى ولحظات الصمت الطارىء .. ولا أريد أن اعتمد على حواسى وحدها .. لأن فطرتى تخيب فى بعض الأحيان . كلما لمحت جراح

عينة الكلية أو جراح توصيل الشريان بالوريد ، أشعر بالعرفان بالجميل . فى داخلى ترفرف أجنحـة الرحمة من أجل البشر جميعا ، عانى بعضهم مثلما عانيت ، وتعذب مثلمـا تعذبت . اصبحت أخاف أن يشكو مخلوق من جرح أو حمى أو حتى من صداع أو خدش صغير ! . لا اريد أن أرقد فى المستشفى . احب أن اهرب منه اليوم قبل غد . العمليـة نجحت والحمد لله . ماذا يريدون منى ؟ ! . دعونى اشم هواء نقيا .



- ٢٦ -

قبعت فى سريرى . كالفأر المقرور انتظر بقية التحليلات والتجارب الطبية . كرهت المكان وعذابه . آه لو أحطمه بيدى ! . طاقتى التدميرية الفاعلة تنبعث من داخلى . عندما وضعونى فى السجن كنت أعرف السبب . أما اليوم فأنا أسجن نفسى بنفسى ، واعرف السبب أيضا . جئت باختيارى ، على قدمى . انه اختيار صعب يدس الروح . لا بأس أن أسجن نفسى شهرين أو ثلاثة ، حتى أواصل الحياة . هل يستجيب عقلى الى هذه المعادلة ؟ ! . تهت وسط طواحين الضباب الكثيفة . كنت أريد أن أمسك خيطا ، ولو واهيا من الضوء ، دون جدوى ! . بدات الأورام تنتشر فى جسدى . اتقيأ ساعة وراء أخرى . الطعم المر العلقم لا يفارق حلقى تطلعت الى وجهى فى المرآة ، فرأيت انسانا غيرى ، مخطوف اللون ، مذعور الروح ، تطوف على وجهه سحابة الموت ! . جريت ووقفت تجاه النيل ، والأفق الممتد على مرمى البصر . فكرت فى الأيام المقبلة . لم استطع أن أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود بعد ! . الرؤيا يكتنفها الظلام الحالك . وأنا أسقط وسطه فاقد الوعى

بعض الأحيان . أعطانى الطبيب سبعة انواع من الحبوب ، كنت اتناولها فى كل وجبة . يعترينى صـــداع فوق صداع ، يتفتت جسدى الى نتف صغيرة تتألم ، ثم تتجمع كلها لتضرب بشدة ، ومع هـــذا فأنا اشعر بالخمول الدائم . بالكاد افتح عينى ، حتى أحس بوجودى . ودورة وراء دورة ، من الغثيان والقيء والضيق الشديد ، افلت من واحـــدة لأعرق فى الأخرى . هـــدنى الألم والحمـــد لله . كان الموت يطرق بابى ، فأرده واهنـــا وراجيـــا ومستجيرا . يتراجع فى خطوات بطيئة متنمرة ، يرمقنى بعينين خبيثتين حاقدتين ، فى حين يرعانى الله بعطف ومحبة . تعود الى الروح من جديد . أضحك مع الممرضة قائلا :

ـ هل انت مكلفة أم متطوعة ؟

تبتسم وهى تقول :

ـ مكلفة ومتطوعة فى نفس الوقت .

اقـــول :

ـ يعنى ايه ؟ !

قـــالت :

ـ يعنى كده .. كلمنى فى حاجة تانية .

كانت كلماتها ولهجتها تنم عن أصلها الشعبى ، فعاودت ســـؤالها :

ـ طيب انت منين ؟

قـــالت :

ـ من مصر طبعا ..

قــلت :

ــ من فين يعنى ؟

قــالت :

ــ انت حتخطبنى .. أنا من حارة السكر والليمون .. وحط عليهم شوية ميه تبقه حارة الليمونادة ..

وضحكت سعاد ضحكة طويلة عالية ، جلجلت فى أنحــاء الحجرة . وفجأة وجدت الجراح فوق رأسى . رفع ربــاط الشاش من فوق الذراع . جس مكان توصيل الشريان بالوريد . ابتسم ، ثم قــال .. عال .. عــال .. كله تمــام .. قلت فى سرى .. هل نضجت الآن للكلى الصناعية ؟ ! . هدهد الجراح وساوسى دون أن يدرى وهو يقول : تستطيع الآن ان تطمئن .. سوف أخبر الدكتور « ز » الذى يشرف على علاجك . وتركنى الجــراح لهمومى أجترهــا من جديد ! . ما حــكاية الــكلى الصناعية ؟ ! . قال لى الدكتور « ز » فى البداية ، ان الوصول الى الكلى الصناعية مثل الوصــول الى القمر ، ولو .. انى أريد الوصول الى القمر ! . مغامرة جديدة من مغامرات العمر . لن أخسر شيئا اذا واجهتها . أشعر أنها زوغان من الموت بمعنى من المعــانى . لا بأس أن انتظر . طالمــا انتظرت القطــــارات المتأخرة ، ونتائج الامتحانات ، وأمام المكاتب دون جدوى ! . تعودنا الانتظار . ها هى الأورام تشــمل جســـدى كله . أقراص « اللاسكس » لم تعد تجدى . أصبحت الخــلايا مشبعة بالمياه . الدنيــا حر ، وانــا اشرب كالمجنون ، وكلما أحسست بالعطش جن جنونى . دورة التحــاليل لا تنقطع . والأمل فى انخفاض نسبة البولينــا لا يغيب عن الذهن . اختلط الحزن بالأســف

بالندم ، مع انبثـاق ارادة داخلية غريبة تصر على الحياة . ألفت المكان والوجوه ، والرؤى الصباحية والمسائية .. حتى الذين يموتون كنا نتقصى أسماءهم والطريقة التى ماتوا بها ، والمرض الذى كان يصيبهم .. نضحك عندما تسرى اشـاعة الميت الذى وضعوه فى الثلاجة ، ثم صحا من جديد ، يفتح عينيه ! . كنت افكر فى صـورة المستقبل بكل ما أملك ، أحلى أوقات التفكـير عند الفجر ، حيث الهدوء يلف المستشفى ، وعبق زهور الربيع ، يهب على النوافذ والشرفات . فى تلك اللحظـات ، استطيع أن أستنشق الهواء بدون روائح المخـدر « البنج » . أنات المرضى ما زالت هاجعة . لم يصح المتعبون بعد . هنا يحلو لى على مهل صياغة الأمنيات الآملة ، وانتزاعها من براثن الاحباط والعدم ! . أود أن تطول فترة انبثاق الصباح ، حتى أستغرق فى تأمـلاتى المتفائلة . من أين تجيئنى هـذه التأملات ؟ ! لاشىء يدعو الى التفاؤل أو الأمنيات ، أو حتى أحلام اليقظـة العابرة . كنت أسبح فى بحر المـاضى ، وعلى شواطئه ، فتعبرنى الذكريات الدافئـة ، كأن الأيام تسرع خطواتها من الحـاضر الى المـاضى . ولم يكن لى اختيار فى هـذا الطريق . ان المـاضى ليس عسلا كله ، كما أن الحـاضر ليس عذابا كله ! . فتحت نافذتى التى تطل على النيل . طرت على جنـاح الخيال الى أيام انشاص . كنت أصحو من النوم ، على اللون الأخضر المتعدد الدرجات . أحدق بعينى فى أشجار الكازورين والكافور ، ثم شجرات البرتقال واليوسفى ، والبرسيم والأذرة . كنت دائمـا أحب أن أرى لحظـة انبثاق الفجر . كما أحب أن أرى لحظـة غروب الشمس ، خاصـة عند اللسان فى راس البر . أمد بصرى عبر الأفق لأتابع لحظة ذلك الغروب . آه من السجن الذى اعيش فيه الآن ! . من يطلقنى من أسواره ؟ ! . هل تطول مدة هـذا السجن ؟ ! . متى أرفرف

طائرا على الأماكن التى أحبها من جديد ؟ ! . هنـاك أشـياء أليفة الى قلبى ، تعودت عليهـا منذ سنوات طويلة . انى فى حاجة ملحة الى أن أدخل بيت أحد أصـدقائى من الفلاحين ساعـة العصر . هناك نشعل النار ، ونضع وعـاء الشاى وسط راكية النار المشتعلة باللهب والأاوان ، ثم ندردش فى أى شيء يخطر على بالنا . اشتقت الى اللهب الطبيعى ذى اللون الأزرق القرمزى الذى يتلون بألوان قوس قزح المشع الى أن يخمد ويصبح رمادا. هنا نعيد اشـعال النـار من جديد ، بحطب جديد ، وشـاى جديد ، واحاديث جديدة . فى تلك اللحظات استرخى من كل الهموم والمشكلات . كنت أنطلق مع الصحاب على بساط الأرض والنار والهواء والمـاء . ولكن ما حكاية الكلى الصناعية ؟ ! . يأكلنى عقلى حتى أعرف . العمر واحد ، والرب واحد .. لكن الله يأمرنا بالمعرفة والعلم .. نظرت الى النائمين حولى ، فانتابنى قرف مفاجىء ، ممزوج بعطف ، لم أستطع أن أعبر عنه فى تلك اللحظة . عبقت الحجرة بالروائح الكريهة والأنات غير الواعية ، رغم أنى فتحت نافـذتى منذ فترة غير قصيرة ! . قررت بينى وبين نفسى أن أذهب الى قاعة الكلى الصناعية فى ذلك اليوم ، حتى تتضح الصـورة فى ذهنى . شعرت بالراحة بعد هـذا القرار . كنت مقبلا على قرارات عديدة ، دون أن أعرف ! . انتفضت من السرير ، وفتحت الباب المطل على الشرفة التى تواجه النيل . جلست مسترخيا ، وقد بدأ هواء الصباح يحتضن المستشفى . الآن طابت عمليـة توصـيل الشريان بالوريـد التحم الاثنـان ليواجهـا الخطر والعمل معا ! . كنت أشعر بالنبض المتدفق العالى الخفقات ، وأنا سعيد . انها عمليـة دقيقة ومهمة فى مسار وضـع المريض على الغسـيل الكلوى ! . كنت محظوظا حقـا لأن شريان الذراع ووريده متسعان ! . تمثلت التقاء النيـل

الأبيض بالنيل الأزرق ، عند أرض المقرن فى السودان ! . هناك أحسست الأرض تختلط بالميـاه ، بالأشجار ، بطيبة السودانيين وحنانهم . هكذا ظللت أتمثل كل زوجين اثنين . رأيت عصفورين يحلقـان فوق رأسى ، ثم يهبطان على حافة الشرفـة . تبـادلا الهمسات والقبل ، رفرفا بأجنحتهما فى السماء ، فتفاءلت خيرا.
كان ناظم حكمت يقول الشـعر فى عصفورته ، التى تحط على نافذة سجنة ! . أمسكنى ناظم صاحب الوجه الأبيض الرائق من ذراعي وهو يزور القـاهرة . كان يضحك ويتحدث الفرنسية ، أخذتنى الدهشـة من بساطته .. كانت عيناه تضيئان باشعاع نابض ودافىء بالحيـاة . كنا نجلس فى شرفة فندق شبرد التى تطل على النيل أيضـا . يحدثنى عن الشـعر ، كيف يكتب ، والألفاظ التى يستخدمها ، وقصـيدته التى كتبها فى تمجيـد بطولة بورسعيد ، ممثلة فى صبى أسمر لم يتجـاوز الثانية عشرة من عمره ! . هل أهرب من الكلية الصناعية بأن أطير على جناح ناظم حكمت . والشعر والذكريات ؟ ! . ربما .. ربما .



- ٢٧ -

في الساعة الحادية عشرة تماما ، وقعت الفاس فى الراس كما يقولون . كان جمع الأطباء فى حجرتنا . وقفوا بجوار سريرى يناقشــون ويقررون . رفع الدكتور « ز » يدى ليرى عمليــة توصيل الشريان بالوريد . جس نبض الدم المتدفق . نظر حوله الى عيون زمــلائه ، واردف وهو ما يزال يضــع أصبعه على النبض السريع :

ـ العملية ناجحة تماما .. واقترح أن يبدأ تجربة الكلى الصناعية اليوم .

أومأ الأطباء موافقين . وقال واحد منهم :

ارجو أن تنزل الى الدور الثــانى فى قاعة الكلى الصناعية .. لا تخف .. ســوف ترى الفرق قبل العمليــة وبعدها .. انك محظوظ ، لأن الدكتور « ز » ، قرر وضعك على الكلى الصناعية .. نراك هنــاك ! .

وترك الأطبــاء الحجرة ، وانــا احــدق فى ظهورهم عند الباب . كانت موجات الخوف السريع تتلاحق على صــدرى ،

بطريقة قاتلة . اجتاحنى شعور بعدم الرضى والتمرد الداخلى المفاجىء . ضاع فضولى وترقبى وجراتى السابقة . انقلبت أخشى اللحظة التى أدخل فيها عالم الكلى الصناعية . يممت وجهى الى النيل . كان الضحى مشرقا ودافئا ، وثمة طيور تحلق فى السماء ، والسحابات البيضاء تملأ قبة الأفق . خرجت من عالم المستشفى الضيق ، الى العالم الرحب الواسع . كنت أريد أن أهرب بمعنوياتى من الضعف والخذلان . رأيت عملية الكلى الصناعية بعينى قبل الآن . كان المريض أمامى يعانى مذبحة دامية ، محكمة التنفيذ . الدم القانى على ساحة المعركة ، يتدفق من الذراع ، ثم يعود اليه ، بعد رحلة علمية فى الأنابيب والكلية الصناعية نفسها ! . ولم أدع الاحباط يعشش فى نفسى طويلا . نهضت وارتديت ملابسى . نزلت . وعلى باب القاعة تسمرت قدماى . كان هناك باقتان من الزهور والورود عند المدخل . شممت الرائحة ، التى ضاعت من أنفى بمجرد أن دلفت الى الداخل . هنا اذهلنى المشهد . تسللت الى أنفى روائح الدم وزخمه ! . لم أشم دم الانسان قبل اليوم . كانت الرائحة تنفذ من الأنابيب والكلية . رائحة مكتومة ونفاذة ، كلما لامست أغشية أنفى ، شعرت بالغيثان . كيف تذوب روائح دم المرضى فى هذا المزيج الغريب المركب ، المضمخ بالحياة والموت معا . كنت زائغ البصر ، لا أعرف الى أين أتجه ؟ ! . المشهد كله أكبر من طاقتى ! . جلست على المقعد انتظر صامتا ومتأملا . كل ما حولى يجرى فى صمت واستسلام تام .. انات المرضى تئز فى ايقاع ممل رتيب ! . امرونى ان أستلقى على السرير . تمددت وأنا خائف مذعور . وضعوا قطعة من الشاش تحت ذراعى الأيسر . أحضروا عربة متنقلة ، عليها المعدات اللازمة ، ثم جاء الطبيب يبتسم ، وقال :

ـ خلاص .. أنتم مستعدون ؟ ..

قالت رئيسة الممرضات :

ـ خلاص .. الماكينة جاهزة مع الكلية .. لم يبق غير وضع الابر ..

شمر الطبيب عن ذراعيه . تناول ابرة طويلة ، تتبعتها بلهفة وخوف . كانت تضوى تحت أشعة الشمس ، فتزداد لمعانا . توافد بعض الأطباء على ساحة العملية . ها هو نصل الابرة يغوص فى جلدى ، ثم فى الوريد نفسه . ارتعش جسدى ارتعاشة ساخنة . زاغت عينى . لم أعد ارى شيئا حولى . وغاصت الابرة الثانية . أحسست بروحى تنسحب من صدرى . انه شىء أكبر من الألم . شعرت بأنى لا أوجد . ينتهى منى الخوف نفسه ! . أسبح فى الرؤى الضبابية ، فلا أعرف ما يحدث لى . اقسى اللحظات أن أكون فى البداية . ضاعت أسلحتى كلها ! . الدموع لا تجدى . العينان تستعطفان دون كلام . دخلت الى اعماق صمتى . انحصرت بين الخوف والألم والرجاء . وفى لحظة انفك كربى . سال الدم فى الأنابيب . بدأت مضخة الدم بطيئة السرعة . تطلعت وتجلدت ، لكن أعصابى خانتنى فبكيت . هذا البكاء له طعم ولون ورائحة . قيدونى بهذه الأنابيب ، فلا استطيع أن اتحرك . وضعت المصحف تحت راسى ، ورحت انسحب الى داخلى . ادور ابحث فى وجوه الأطباء والممرضات عن المعانى التى أريدها ، فلم ار وجها باسما او منشرحا . كل الوجوه فى حالة ترقب . توهمت أن روحى قد ضاعت منى ، فتنفست لأتأكد من وجودى . طاوعنى صدرى واستجاب ، لكنى مازلت افتقد امان الروح . مات زميلى « خ »

وهو على الماكينة بعد أن تحدث معى فى الصباح . كان فرحا وسعيدا ، لأنه حين سمع الطبيب يأمرنا بألا نضع ملحا على الطعام ، سأله : عن الشطة .. فقال الطبيب .. لا بأس أن تضع القليل منها . فهتف « خ » : طظ فى الملح ويحيا الشطة . وبعد فترة سألت عنه لأعطيه قطعة من الشيكولاته المسموح بها وهو على الماكينة ليأكلها ، فوجئت بموته . اذن هل انا مقدم على مغامرة ، غير محسوبة العواقب ؟ ! . حقيقة لا اعرف شيئا. رايت الأنابيت الحمراء تهتز ، فيخفق قلبى فى صدرى مذعورا . انه دمى الذى يجرى فى الأنابيب . الآن تتحول دورته لتجرى فى دورة أخرى ! . أشعر بنبض قلبى فى الفم ، الذى يتجمع فيه الدم . انه يخفق تماما كضربات القلب فى داخلى . أستطيع أن المسه ، وأن أشعر به . ما الذى يحدث ؟ ! . وكم ساعة سوف أبقى مقيداً الى هذه الماكينة المعقدة ؟ ! . هناك مؤشرات وأزرار ومضخات وانوار مختلفة الألوان . تذكرت الدكتور « ز » فى بداية زياراتى له وهو يقول لى : ان الوصول الى الكلى الصناعية مثل الوصول الى القمر . ماذا كان يعنى ساعتها بالتحديد . هل لأنها باهظة التكاليف أم مخاطرة مدهشة ؟ ! . لماذا يتحلقون حولى هكذا ؟ ! . اصبحت ذرة فى التجربة ، مطفأ الروح . همست فى ضعف :

ـ الأنابيب تهتز يا دكتور ! .

قال الطبيب :

ـ هذا شىء طبيعى .. لا تخف .

قلت :

ـ وكم تستمر هذه العملية ؟ !

قــال :

ــ لم نحــدد بعد .. ربما ست أو ســبع ســاعات .. استرح الآن .

قــلت :

ــ ومن أين تأتى لى الراحة ؟ !

قــال :

ــ الله معك ..

المصحف تحت وســادتى . جف حــلقى . اشــتقت الى المــاء . طلبت كوبا باردا . كنت أتذوق طعم المياه على مهل . أشعر بنهم غريب اليها . تمنيت أن أظل استمتع بجرعة المــاء التى اطلبها . توهجت رائحة الدم فى انفى . لم اعد اميز دمى من دم الآخرين . ليتنى أحضرت معى زجاجة كولونيا .

وفجأة أعطت المــاكينة انذارا ، وتوقفت مضخــة الدم . ما الذى حدث ؟ . ارتبكت . توقفت دورة الدم فى الأنابيب عن السريان . فكوا أربطــة الذراع فوق الابرتين . كشفوا عن موضع احداهــا . عدلوا من وضعهــا ، بعد جهد طويل . ربطوا مرة آخرى . أخــذت نفسى من جديد . رأيت العرق يتصــبب على عنق الطبيب . كانت عينــاى مثبتتين على مسار الدم . أراقب ما يحدث دون أن اهمس بكلمــة . لا فائدة من اى كلام الآن . انعقد لســانى ، ولم أعد راغبــا فى شىء . الأوامر الا أحــرك ذراعى ، حتى لا تتحرك الابرتان . كنت مستلقيا على ظهرى ، ووجهى الى سقف القاعة الفسيحــة . عيناى تبحثان عن شىء أتوه فيه لأنسى . هنــاك ساحة بيضاء تغشى بصرى . تعلقت

بنسمة هواء عابرة ، آتية من الخــارج ، فانعشت روحى فى لحظة سريعة . كانت كل أمنيتى وقتهــا أن أرى ، ولو شجرة واحدة من الأشجار التى تحوط المستشفى ، لكنى لا أستطيع أن أتحرك على جنبى . ارتحت فى وضــع المسيح ، مصــلوب الذراعين . غير أن صوت عبد الحليم حافظ انتشلنى من كآبتى . وكان يغنى بصوته الحنون :

حلوة يا دنيا .. حلوة .



- ٢٨ -

قمت فرحا بالحيـاة بعد فك قيودى . خف جسـدى . احسست راسى رائقا . طاوعتنى قدماى فى المشى بسهولة رايت كل شىء بوضـوح أكثر . انتصرت على حالة الركود ، التى كانت تشملنى . استعدت روح السخرية فى حديثى . قال لى الطبيب : انت سـوف تعيش على الكلى الصناعيـة . رائحة الدم ما تزال فى أنفى نفاذة . كنت أريد أن أخرج من جب الاحباط واليأس بكل قواى . أفكر باستسلام فى مصير أيامى المقبلة . بانت صفحة الأفـق فى عينى مثقوبة الجـدران ، ضبابيـة الرؤى . توكأت على أمل واهن غامض ، لا أدرى الى أين يقودنى ؟ ! . جريت الى زهـور المستشفى ، أتنفس بين ورودهـا بعمـق . مكان الابرتين ما يزال يؤلمنى . رحت أسبح وحدى فى بحر مالح .. الألم الحياة .. الأمل .. الواقع .. المستقبل أشيائى الحبيبة .. التى تعودت عليها .. انكسـاراتى المزمنـة وقهرى .. رؤى متعددة الأطيـاف والألوان .. كل ذلك كان يتدفـق فى عقـلى وروحى ، دون أية تفاصيل واضحة .. بسم الله الرحمن الرحيم .. وخلقناه فى أحسن تقويم .. ان السمع والبصر والفؤاد .. كل

أولئك كان عنه مسئولا . هنا تختلط الحياة مع الموت ، عند نقطة واحدة . الى أين يحركنى الموج ؟ ! . لا بأس انا متأكد من وجودى الآن ، رغم جروحى النازفة الى متى يستمر هذا النزيف ؟ ! . العلم عند الله وحده . لكنى لا أنزف وحيدا ما أحلى النزف من أجل الحياة ! . فى الماضى كنت أنزف حزنا من أجل بلادى . الآن أنزف بسبب بلادى ! . الآن تحاول تجارب الحياة أن تنضج وتتكامل .. الميلاد والموت والسجن والحب والسفن والزواج والمرض القاتل .. وماذا بقى ؟ ! . امامى ؟ الدم والابر وقليل من الشجاعة والصبر والأمل . ليتنى أفوز فى هذه المعركة . ربما لأن الألم مع الأمل فى حزمة واحدة . ذراعى ما تزال تؤلمنى . الصداع يحطم راسى ، لكن عطر الأحباب ينعشنى استلقيت على ظهرى على ارض الحديقة . وجهى الى السماء الصافية . مددت ذراعى عن آخرهما . تنفست عميقا من صدرى . هذه النومة تريحنى . أنا لا أخشى العودة الى الأرض . أرجو ان اكون غذاء جيدا لوردة أو عود أذرة أو شجرة برتقال . كيف أواجه المستقبل ، دون تذمر أو ضجر ؟ ! . اتمنى — وما أتمنى على الله الكثير — أن يلهمنى حسن التلقى والصبر ونفاذ البصيرة مازلت أبحث عن معنى الحياة من خلال أشياء عديدة ! . ليكن المرض أحد أسلحتى فى هذا البحث الطويل المضنى . شمسى الآن تحتجب وراء السحاب . فهل أطمح أن تشرق من جديد ؟ ! . وانا على مشارف المستشفى كنت أفكر . هل يقدر لى أن أفلت من الموت داخلها . كنت أعرف أن الداخل الى قعاة الكلى الصناعية مفقود .. مفقود .. مفقود ! . اهتزت منى الخطوات . وقفت لحظة اتهيب الدخول . كدت اتسمر فى مكانى . تراجعت الى الخلف ، دون أن أحرك قدمي . كان المبني قائما فى نفسى كسجن مقيت ، أفضل الفرار

منه . لماذا لا أذهب الى العمل لأرى الأصدقاء والأحباب ورائحة المطبعة ؟ ! . انداحت فى أذنى أصوات حلوة تنادينى . نسيت كل المتاعب التى أعانيها فى العمل . اننى أحقق ذاتى فى هذه الكلمات . امسك الصحيفة فى الصباح ، فتنعشنى الحروف السوداء . تقدمت غير واع بخطواتى اللاارادية وعندما أصبحت بين الممرات ، ضاع الخوف من قلبى . وعلى باب قاعة الكلى ، اختلط خوفى بشجاعتى بتردد باستسلامى ، بابتسامتى ، بكرامتى ، بكبريائى بضعفى ، بقوتى ، ثم قلت :

ـ صباح الخير ..

قالت « ن » :

ـ لا اعرف الى الآن دورة الدم فى هذه الأنابيب المعقدة ..

وقالت « م » :

ـ سوف تتعلمين هذه الدورة بالتدريب لكن مشكلتى انى لا أستطيع ان أتحمل مشهد المريض والدماء تنزف منه الى الكلى ..

هتف الدكتور « ع »

ـ دعونا نعمل .. انها مسألة خبرة وعلم .. ولا نريد أن تدخل الرعب الى قلوب المرضى ..

واشار الى فى حياء أن استريح ..

جلست على المقعد اراقب خطواتهم وأصابعهم ووجوههم .

كنت كالضحية التى تنتظر مصيرها الغامض القلق المؤلم .

أخرجت علبة سجائرى . ووجعلت أدخن واحدة بعد الأخرى ، دون توقف . كل دقيقة أو ثانيـــة تمر تأكل من أعصـــابى ونفسى الكثير . غرقت فى الصمت والانتظار الممل القاتل . قمت لاجتاز الخط الأحمر الى داخل القاعة ، فمنعونى من الدخول . عـــدت أدراجى منهار الخطى ، خافت نبضات القلب ، منكسر الخاطر .. متى ينتهون ؟ ! . لمأعد أطيق الانتظار . انه سجن من نوع غريب لم يرغمنى عليه أحد . هـــذه الخليـــة من الممرضـــات والأطباء يحـــاولون مساعدتى لأعيش ، فكيف أتمرد عليهم ؟ ! وشيئا فشيئا دق صـــدرى براحة مفاجئة . شربت جرعة ماء باردة . رددت دعائى الدائم .. اللهم انى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه يارب العالمين . ازدادت الطمأنينـــة فى نفسى . باق من الزمن دقـــائق . وأخيرا تمددت على السرير من جديد . غرز الطبيب الابرتين فى ذراعى . تدفـــق الدم قانيـــا وغزيرا . أشحت ببصرى حتى لا أرى ، ثم عدت وتجلدت كاتما فزعى ، ثم قلت :

ـ كم تستمر هذه العملية يا دكتور ؟ ! .

قـــال الطبيب :

ـ ثمانى أو تسع ساعات .. سوف نرى ! .

قلت مندهشـــا :

ـ تسع ساعات .. المرة السابقـــة كانت أربع ســـاعات فقط ! .

قـــال :

ـ كانت مجرد تجربة ..

وفى ثوان ، كان الدم يتدفق فى الأنابيب المهتزة ، مارا من ابرة الشريان الى الكلية الصناعيـــة ، عائدا الى ابرة الوريد . كنت موثوق الذراع والروح معا . طلبت جرعة ماء فقد كان حلقى جافا . وكان اشـــتياقى الى المـــاء جارفا وعنيفا فى هـــذه اللحظات . هل أحرم منه بعد ذلك ؟ ! كنت منكفىء المقصد ، لا أعرف الى أى اتجاه أســـير ؟ ! . يكاد الظلام يشملنى يطبق على صـــدرى كابوس ثقيل سخيف . أطرق .. أبحث عن منافذ للضوء ، فتصـــدمنى مضخة الدم بدورانها السريع اللاهث ، واهتزاز دمى ، ونقط الهيبارين كأنها تحسب ثوانى الحيـــاة لى قطرة من وراء قطرة ، ثم دوران رأسى مع الدورة كلها ! . ولاشىء يبشر بأمل قادم . فمن أين انحت أملى وتفاؤلى ؟ ! . ولم أتعود على الآمال الكاذبة ، أو الملفقة ، المصنوعة على أكتـــاف الآخرين . كان أملى دائمـــا من عرقى وجهدى وأفكارى . وكنت حريصـــا الا يختلط أملى بالكلمـــات المعسولة أو المجاملات الرخيصـــة التى تطرق أذنى ! . وكنت بدأت اتبين الشفقة الكاذبة التى يبذلها اصحابها ذرا الرماد فى العيون ، وبين المواقف الأصيلة التى تصاحب الطبع . ولهذا كنت اشحذ كبريائى وكرامتى دائما لأواجه بهما هـــذا الضعف الزاحف على روحى وجســـدى . وللأسف فان محاولتى كانت تخيب فى بعض الأحيان ، فأصحو من جديد ، اتمســـك بصخرة سيزيف فأســـقط مرة أخرى ، لأصـــعد من جديد ! . هل اظل فى كل عملية كلى صناعيـــة هكذا ، موثوق الجسد ، خامل الرأس ، مكتئب النفس ، مكبل الأفق ، الى أن تبدأ الساعات الأخيرة فى الانفراج ، فينفك كربى ، ينشط رأسى ، ينشرح صدرى ، تنزاح السموم من دمى . هنا أعود أمشى على قدمى

كالآخرين ، أفكر وأمسك القلم ، واقرأ واضحك قال لى الطبيب ان هناك ٧٠٪ يصابون بالاكتئاب ، ويفضلون الموت على أن يستمروا فى عملية الكلى الصناعية مدى الحياة . وهذا الاكتئاب لا يستأذن انما يتسلل الى الأرواح والنفوس كالموت نفسه . ولكن الذى أفزعنى حقا هو عدم القدرة على التركيز ، فعندما اردت ان أقرأ فى أحد الكتب ، لم أستطع ان أكمل قراءة صفحتين، ووجدت رأسى خاملا .

ومنذ تلك اللحظة جريت الى الطبيب لأعرف ما حدث ؟ ! . الآن اعيش داخل التجربة . أراقب ، وأعرف على مهل ، فى لحظات السكون والهدوء . هل أنجح فى ذلك أم أفشل ؟ ! . كل شيء بأمر الله . المشهد كله أمامى معقد ومتشابك . وقد تعودت على مشهد الأرض البراح ، والانسياب مع الزرع والشجر والحيوان والمياه فى القرية . المساحة هنا ضيقة ، وكل شيء محسوب . الطبيب الاسكندرانى يضحك ملء فمه . وانفراجة صغيرة تشمل القاعة المتجهمة . يحكى العسكرى « س » عن ذكرياته ، قبل أن ينقل من كتيبته الى المستشفى . الحياة هنا نعمة ، لم يكن يحلم بها . تنظيف المكان وعمل المراسلة التقليدى . اصوات المرضات تدغدغ قسوة الواقع . الابتسامات تعلو الوجوه الصبوحة ، تشرق فى عينى كل ابتسامة لطيفة . أحاول النسيان ولا انسى ، أسرح ، فلا أستطيع ، أعود الى أعماقى المبطنة بالاحتمالات الكئيبة ، أحاول طردها الواحدة بعد الأخرى دون جدوى ، تلف وتدور كالقدر المخيب للآمال ، كضربة السيف الحاد فى اللحم الدامى الحى . وماذا بعد أيتها الدنيا الغريبة الخبيثة ؟ ! . السخط والضجر ليسا من طبعى ، ولكن الحمل ثقيل فوق كتفى . وانثال فى قلبى حزن بارد ، لا يعرف

الحدود ، بلورة وراء بلورة ، يقتل الحيــاة بدفئها وعنفوانها ، يريد أن يصرع الأمل الذى عشت عليــه طويلا ، ليس لى وحدى ، وانما للناس جميعا . انى مريض بالأمل ايضــا وقد تلاقى مرض الأمل ، مع المرض الحقيقى ، وكلاهما يحــاول أن يقضى على الآخر ، فأيهما ينتصر ؟ ! . يسح نقطــة وراء نقطة فى الأنابيب ، والأمل ايضــا يرقد فى صدرى بجوار الحزن يتدافعان ! .



- ٢٩ -

وفى يوم شم النسيم خرجت الى عين حلوان . كان الربيع يفرش طبيعته على جدول المياه المعدنية . شربت حتى ارتويت . أكلت الترمس ، والفول ، وجلست أتذوق فنجانا من القهوة . سرحت ببصرى من شرفة الربوة الى عمق الوادى وسهوله التى تنساب فيها المياه . كان ابنى يقفز بجوارى فرحا ، يمص عود قصب . وصمتت المحبوبة تتأمل كعادتها . انعكست أشعة الشمس على الوجه الوديع ، فلمع نقاؤه ، وازداد ثراء فى قلبى . انسال فى صدرى بلورات من البهجة المفاجئة التى تجيئنا على غير توقع . ومددت ساقى الى منطقة الشمس ، فشعرت بحرارتها تدغدغ جسدى . انه خدر لذيذ اشتقت اليه منذ زمن بعيد . أخذت نفسا عميقا من الهواء النقى ، ثم قمت وجريت وراء ابنى نلعب معا . لأعش لحظتى الحاضرة كما أريدها . اعرف انى سوف أعود الى قاعة الكلية الصناعية غدا . هذا هو العالم أمام عينى رحبا وفسيحا ، ولا يحد الأفق شىء ، الا مداخن المصانع من بعيد ! . بلادى بكل ما فيها من متاعب ، انام ملء جفونى فى حضنها . لا اشعر بالخزى على يوم مر بى . توغلت

فى الوادى حتى وصلت الى الحشائش الشيطانيــة . هتفت فى الخلاء الطلق ، فجاءنى رجع الصــدى ، أحبك ايتها الدنيا ! . ضحكت من حماقتى ، فلا شىء يستحق الحب الســاذج الذى يحتوينى . وعدت أدراجى مسرعا الى العين التى تتدفق بالميــاه الدافئة . غسلت وجهى وساقى ، كأنى أتوضــأ . وارتشفت المــاء ، « فكركر » فى معدتى . وقال الجميل :

ـ تعال نأخذ صورة ..

ووقفنا نبتسم للزمن فى لحظة ذكرى . وصورة وراء صورة شعرنا أن لنا ماضــيا فى هــذا المكان . كان النسيم يحمــل أرواحنا الطائرة فى الأفق . ومن الشمال الى اليمين الى الأعلى رأيت أجنحة الود ترف فوق رؤوســنا ، نحن منها ، وهى منا . من أين يجيئنا هــذا الود ، ربما يحمله الأثير من ناس لا نعرفهم يعيشون فى مكان ما من هــذا العــالم ! . تطير أجسادنا ، ثم ترسو على الأرض ، وأنا دائما أحاول أن أتسامق بقامتى . غدا ســوف أقيد الأنابيب فى سجنى . اذن ، فلأبسط جســدى الى ما لا نهايــة . أتحرك كمــا أريد . ألعب ، أضحك ، أجرى ، أتحدث ، أطلق لحواسى العنان ! . أدخل باب السجن برغبتى واختيارى غدا ! . لا يهم أن ندخل السجن ، الأهم أن نعرف لمــاذا دخلناه ، وما هى الضرورة فى أن نسجن ؟ ! . وهنــاك يبين عنصر الانسان الأصيل ، فاما أن ينهار ، واما أن يثبت . جربت السجن الحقيقى ، وهــذا هو سجن الأرض الذى لا مفر منه . هل هو سجن مؤبد ، لن أخرج منه أبدا . ربما .. ولم أفكر فى زرع الكلية الى الآن . هنــاك كلمات متناثرة تدور حولى فى المستشفى حول زرع الكليــة . كيف واين وممن ؟ ! . ولا اريد ان اعود الى الدائرة المفرغة . وقال الجميل :

ـ هل تصمت من جديد ؟ ! .

اقــول :

ــ لاشيء .. هيا نلعب او نعبث ..

حملت الولد بين ذراعى الى أعلى وأنا أضحك ، فضحك هو الآخر . جريت فجرى ورائى ، اسرعت فأسرع يريــد ان يمسك بى . وقفت فجــأة ، فقفز الى رقبتى منشرح الصــدر . احتضنته بعنف وانفعال ، قلبى يقول : آه يا خالد لو تعرف كم احبك ! . حملته على كتفى ، فلامست قدماه الصغيرتان انفى وفمى ، فاحسست بأنفاسه ، وشممت رائحته . هــذا هو عذابى وفرحى معا . وقال المحبوب :

ــ أما تعبت بعد ؟ ! .

قــلت :

ــ لن اتعب معكم ابدا ! .

وجلسنا على الرمال نبنى بيوتا وعمــائر ونأكل نثرثر فى شئون الحياة . نشرق ونغرب . يأخذنا موج القلق الى بحوره العميقة . نخــاف الغرق فى يم التفكير فى المستقبل . نحــاول أن نعيش اللحظة الحــاضرة البسيطة ، النابضة بالحياة . نتقلب على الجمر دون شــكوى . نحــاور الأمــل ويحــاورنا بالعيون والأفئدة والأرواح . كانت الأسرة الصغيرة تلتئم حول ينبوع العين التى تتدفق بالمياه الدافئــة . تنتزع اغنياتها من بين الضجيج الثائر حولها . وفى هداة واحدة ، ترنو الى احساس مشترك ربما يغطيها بالسلام والطمأنينة التى تتوق اليها . أربعة قلوب فى طريق واحد . وكانت البنت ذات الثلاثة عشر ربيعا اكثرنا انطلاقا على أرض الربوة . تضحك وتغنى اغنيــة لفيروز . كانت غضة مثل وردة يانعة ، يتفتح صــدرها على اشتياقات ونبضات

جديدة ، معجبة بنفسها تخطر بآلة التصوير فى يدها ، تسجل اللوحات بألوانها الطبيعية ! . رمقتها ، فاذا حبات من العرق تنساب على جبينها . حميت اشعة شمس حلوان ، فاسترخينا على الأرض ننسى الهموم والأحزان وبين الحين والآخر ، تنفرج السماء عن سحابة بيضاء تظللنا . أخاف أن أحرم من ظل المحبوبة ، والوجه الذى تعودت عليه . اختلست النظر اليه من وراء أوراق الشجر . الرمال والشجر ووجه المحبوبة ، ويمامتان ترفان فوق رؤوسنا ، كل ذلك أدلف فيه الى النهاية ! . وتنفست سعيدا باللحظة التى لا أحب أن تفلت منى . ومددت ذراعى اعانق المحبوبة والابن . واختلطت قبلاتى مع دموعى ، بفرحى باكتئابى بجيشانى العاطفى المنهمر ، فشعرت بجسدى كله رقيقا ومنساب الارادة . كنت أشرب الأمل من عيونهم ، والرخاء من روحهم ، ربى ، انى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه يارب العالمين . واحتضنت المشهد كله فى نظرة واحدة شاملة داعيا .. أن يديم الله هذا الوجود على البشر .



- ٣٠ -

فى الصباح جمعت أشيائى فى حقيبتى . نظفت حذاء الولد ، وقبلت البنت ، وودعتهما وهما ذاهبان الى المدرسة . وجلست أتناول فطورى على المائدة . كانت الشمس تعطى المكان دفئا لذيذا ، وطبق البيض الطازج يفتح الشهية ، لكن شهيتى مسدودة . شيء ما اصابنى ضد الطعام . أعرف أن جزءا من البيض الشهى يتحول فى دمى الى سموم ، والسموم تصيبنى بالخمول . أكلت لقمتين وتوقفت هأنذا أعذب نفسى بنفسى ! . هل أستطيع أن أعيش بلا بروتين ؟ ! . قمت وامسكت بالصحيفة ، فلم أجد بها جديدا . جلسة الكلى اليوم تبدأ فى الحادية عشرة ، لكن التحضير لها يحتاج الى وقت ، وفى قسم حسابات المستشفى ، اقف انتظر التأشيرات . هل هناك رصيد لدفع التكاليف ، مائة وثمانية جنيهات فى الجلسة الواحدة . هل أرسلت الصحيفة شيك النقود ؟ ! . تنقذنى ابتسامة الطبيب « ز » من أزمتى . لا اعرف سر تعاطفه معى ؟ ! . يؤشر وقت الحاجة .. يدخل طوارىء على أن تخطر الصحيفة بدفع التكاليف ! . وفى كل جلسة كانت لى « علقة » نفسية ، لا مفر

منها . اذن لابد من ضمان العلاج الدائم . لو كنت ضابطا لدخلت الى قاعة الكلى الصناعية بسهولة . أغلقت الحقيبة ، وارتديت ملابسى ، وتأهبت للخروج . وقفت أمامى المحبوبة ، لا تريد أن تتركنى . شملنا الصمت لحظات . رفعت عينى أمهد للرحيل ، فلم أجد موافقة منها بالعين ايضا . عدت وجلست على المقعد حتى تهدأ روحها . هنا البيت واوراقى ، وساعة قدوم الولد والبنت من المدرسة ، وركنى المفضل حيث أفتح كتابى لأقرأ ، وزيارات الأصدقاء المفاجئة السارة .. كل ذلك أفكر فيه أثناء تلك اللحظات . قدماى مسمرتان ، وروائح أليفة تعبق فى صدرى ، لا اريد أن احرم منها ! . رمقت صورة زواجنا فى لمحة خاطفة . كنا معا دائما منذ تلك الليلة . لم يستطع اى شىء أن يفرقنا .. حتى فى الأيام القليلة التى سافرت فيها الى غزة أو السودان او انشاص ، كنا معا ، كنت أشعر انى أستطيع العودة فورا ! . الآن ، انتزع قسرا من محبوبتى ، لأغرق فى البنج والدم وروائح المرضى من كل لون وصنف ! . قمت الى المطبخ لأعمل شايا . الموت أرحم من هذا الرفض الذى يشملنى . والغريب لاشىء يبدو على السطح ، أتماسك من الخارج ، لكن داخلى يموج بالتمرد والتمزق ! . الألم وحده لا يعذبنا . ولكن شعور المحبين نحونا بالقلق ، هو الذى يعذبنا ويشقينا فى بعض الأحيان . ما ذنب المحبوبة معى ؟ ! . تمنيت أن تعطينى الاذن وهى راضية ، تدرك ما أنا مقبل عليه فى الأيام القادمة ! . ولا أحب أن اندفع ، تاركا اياها ورائى ، تمضغ التأملات الحزينة القلقة ! .

وفجأة ، همست بجوار كتفى :

ـ اذهب حتى لا تتأخر ..

قلت :

ــ ان شاء الله حالا .. انهم يستغرقون وقتا فى التحضير للعملية ..

قالت :

ــ خذ بالك من نفسك ..

قلت :

ــ حاضر ..

وامسكت حقيبتى متوجها نحو الباب . وقبلتها وقدماى على السلم .

* * *

- ٣١ -

بدات رحلة الذراع الذهبى تشق طريقها الشاق . كبر حجم الشريان مع الوريد ، وزاد النبض فيهما . قال لى الطبيب .. حـافظ على ذراعك الأيسر ، فهو حيـاتك التى تعيش عليهـا ما زالت قشور الجروح السابقة تترك بصماتها عليه . نجحت العملية ، رعايتها تحتـاج الى الحذر ، وأى تخثر فى خلايا الدم يسبب كارثة . الجلطة تحدث ، خاصـة اذا كانت نسبة الهيبارين قليلة . اذن لابد أن اتبع التعليمات . انا فى بداية المشـوار . ما هى الحكاية ؟ ! . هل أفهم ما يدور فى هذه الأجهزة والتركيبات المعقدة ؟ ! . ان اقل خطـأ يفقدنى حيـاتى . الهيبارين يحتـاج الى ضبط دائم . ولابد ان توضـع الابرتان فى داخل الوريد الذى يلتحم مع الشريان . هل لدى طاقة وصبر حتى اتحمل ؟ ! . لم اكن أفكر بعمق ، كان كل همى أن اسـلم جسـدى اليهم ، وأتحلى بنوع من الرضى والصبر والقهر الذى لا حيلة لى غيره . وكان بعض الأطبـاء لديه الخبرة ، وبعضهم ما يزال يتعلم فى ذراعى ، وانا اشاهد فى صمت مكبوت .. غير أن سيلا من الفرح يمور فى داخلى ، لأنى اخرج من كل جلسة أمشى على قدمى ،

ورائقا من السموم ! . اتخفف من الأورام التى تبزغ فى جسدى فجأة ، مرة فى الكفين ، ومرة فى القدمين واخرى فى الساقين .. أو فى الجبهة .. وهكذا .. أصبحت اتوقع ورما فى كل مكان من جسدى ! ، حتى بت الليالى مؤرقا مهموما ، لا ادرى أين تجىء الضربة القادمة . أما التقيؤ ، فقد أصبح من عاداتى اليومية بعد كل طعام ! . وفى معظم الأحيان تصاب معدتى باسهال شديد ! . جربت مرة ، فامتنعت عن البروتين ، فاذا المعدة تأكل نفسها بنفسها . نزل البراز به شرائح صغيرة من اللحم والدم القانى . وعرفت الحقيقة المرة عندما حكيت للطبيب ما حدث ! . واثناء ذلك كله ، كنت أبحث عن وسائل العلاج بطريقة آمنة ومستديمة . أتوه بين قسم الحسابات بالصحيفة ، وكتابة المذكرات ، اشكو ولا مجيب ! . ذهبت الى القومسيون ذات صباح . جلست على المقاعد الخشبية المتواضعة ، انتظر دورى . كنت اتأمل المرضى حولى وأرثى لحالى . انقذنى زميلى الصعيدى مندوب وزارة الصحة ، بأن ادخلنى بسرعة . تمنيت لحظتها الا يقع انسان فريسة المرض القاتل ، باهظ تكاليف العلاج ! . دخلت وزميلى قاعة الكشف الطبى ، وقال لى الطبيب :

ـ مم تشكو ؟

قلت له وأنا ضجر :

ـ التقرير امام سيادتك ! .

نظر فيه ببرود ، ثم نظر الى زميلى مبتسما ، وهمس :

ـ سوف نرى .. سوف نرى !

قلت بلهفة محتدمة :

أرجوك يا دكتور .. أن الصحيفة تحملت فوق ما تطيق .. أكثر من مائة جنيه فى الأسبوع الواحد ! .

قــال الطبيب :

ـ القرار فى يد اللجنة ..

قــلت :

ـ ومتى تجتمع اللجنة ؟ .

قــال :

ـ غدا .. أن شاء الله ..

ولم أتمالك نفسى ، ففرت الدموع من عينى . صعب على حالى . ربت الطبيب على كتفى وهو يهمس : لا تنفعل .. أنت فى عينى . قمت شاكرا ، وخرجت أجر قدمى ، لا أرى شــيئا امامى . أسندنى زميلى على كتفه ، وهو يقول : لا تحزن .. ربنا كبير .. ربنا كبير . وتذكرت رفيقى « م » الذى كان يكرر هاتين الكلمتين دائما ، ثم تراءت أمام عينى صورته وهو يسجد على أرض الحجرة يصلى ، ثم يواسينى آخر الليل .. ثم همست فى رضى وصبر .. طبعا ربنا كبير .. ربنا كبير . ! .

* * *

- ٣٢ -

جرح القومسيون لم يلتئم بعد . ظل ينزف يوما بعد يوم فى نفسى لم يكن همى انتظار قرار اللجنة بقدر ما كانت همومى الاسيانة من اجـل زمـلائى المرضى . من ينقـذهم من آلامهم وحيرتهم ؟ ! . كنت أمر أو أفكر أو أتأمل صـورا كثيرة فى حياتى اليومية ، ولكن صورة مرضى القومسيون الآن تغطى كل الصـور التى رأيتها . تبزغ فى عينى ، ولا تفـارق عقلى ، علامة التخلف والقهر . رائحـة المكان التى تزكم الأنف . المقـاعد الخشبية المتآكلة تستجير بالزمن ! . السـاعى الوحيد الذى يقفز ، وصوته المشروخ يزعق كأحد الجنرالات المهزومين ، ينادى علينا الواحد بعد الآخر . ومع هـذا ، عندما أتأمله ، أشفق على حاله . ان جلبابه المتواضـع ، ومعطفه الكالح ، وعينيه الزائغتين ، وجسده النحيل ووجهـه العليل .. كل أولئك يشحننى بالغضب والرثاء معا ! . حتى الأطباء والموظفون شعرت أنهم يؤدون مسرحيـة ، ربما مثلوها عشرات المرات ! ، ولكن بممثلين مختلفين وأوقـات مختلفة ، بنفس الديكور والدراما الكئيبة ! . هـذه المسرحيـة

جرعتنى كأس القهر والتخلف والملل الفظيع ! . الحركة فيهـا فى منتهى البطء ! . وكان دورى فيها صفيرا ومتعبا للغاية » اديته بواقعية مؤلمـة . كشفت ذراعى للطبيب حتى أريه مئات الندوب التى تركتها الابر ، بعضها لامع ، وما يزال حيـا ، تجمد الدم فوقه ، وبعضها مات الجلد تحته وتليف . وهنـاك أيضا مساحة أصبحت ممفنطة لتلقى قبلات الابر الصلبة ، التى تفتح فمهـا لالتهام الدم ، ثم لاستقباله ! . دعوت الطبيب أيضـا لتحسس أورام القدمين والكفين والجبهـة ! . وكان الرجل يتألم بفمه ولسانه وعينيه . وفجـأة قررت أن ادخل الى مديرة القومسيونات العامة . كانت قصـيرة القامة ، عجفـاء الوجه ، عجوز ، تضع على عينيها نظارتين سميكتين ، وعلى راسها « زعبوط » كخفراء البلد . تتحدث بلهجـة سريعـة ، تأكل الحروف ، لا تنظر الى من يحدثهـا ، عيناها فى الأوراق دائما ، حولها على المقـاعد فى الحجرة الفسيحة ، جلس بعض المنتظرين الفرج . رفعت عينيها عن الأوراق وهى تقول :

ـ نعـم ؟ !

قـلت :

ـ انى لا أستطيع أن انتظر ! .

قالت بحدة :

وماذا أفعل لك .. انها قوانين يا أستاذ ..

قـلت :

انا لا أخالف القوانين ولكن هـذه رابع مرة وانـا اريد أن احصل من القومسيون على حق العلاج فى الخارج ..

قـالت :

ليسبت مسـئوليتى .. افعل ما تشـاء .. دعنى الآن انتهى من عملى .. ليس لدى وقت ..

اخذت مقعدا وجلست بجوارها ، ثم همست :

ـ اصل المسألة ...

قالت وهى تضع عينيها فى الأوراق من جديد :

ـ لا اصل ولا فصل .. انتظر حتى يصدر قرار اللجنة.. ليس لدى وقت لأضيعه معك ..

قمت مكسور الخـاطر ... صفقت الباب ورائى ، كنت أقول فى سرى ... هـذه المراة لا تريـد ان تسمعنى ... فقط تسـمعنى !!



- ٣٣ -

واخيرا جاء الفرج ... صدر القرار ... يسافر المواطن ... للعلاج فى لندن على نفقة الدولة بتكاليف ... لمدة شهرين ، ليتدرب على نظام الكلى الصناعية فى المنزل .. وشراء جهاز له ..

أمسكت القرار فى يدى .. لا أدرى ما الذى أصابنى ؟ ! .. هل هذا هو القرار الذى حفيت من أجله ؟ !

انى لا أريد أن أترك وطنى .. لأمت هنا فوق أرضه .. لكن عين المحبوبة لمعت ببريق الفرح الخاطف .. ارتعش قلبها بالأمل بعد عذاب ممل ؟ .. كنت أحب أن أسافر الى لندن فى رحلة عمل أو سياحة .. هأنذا لا أقوى على جر قدمى .. الاستسقاء يقتلنى .. وكنت بدأت كتابة رواية الوداع الأخير بفصل جنائزى حزين .. لم أنم ليلتها .. صحوت أتأمل وأقلب فى كتبى وأوراقى وفى ركنى المفضل للقراءة ! .

كنت أريد أن أقضى شيخوخة هادئة فى هذه الحجرات

الفسيحـة ، وتحت أعمـدة البهو الذى افتح عينى عليـه كل صـباح .

أمشى فى الصباح الى العين المعدنيـة ثم أعود الى مكانى الدافىء فى حضن الكلمـات .. أدعـو الأصـدقاء الى ندوتنـا الأسبوعية يوم الخميس من كل أسـبوع .. نشرب الشـاى بالنعنـاع على الطريقـة المغربيـة فى أكواب صغيرة ، نستعيـد الذكريات ونثرثر معا ! .. لكن هـذه الشيخوخة تجىء مبكرة جدا .. هل هى شيخوخة حقا أو موت محقق ، أم محنة شديدة، ربما تنجلى على طاقة نور ؟ .

هل أعود بالأمل أم تنتهى كل الأحلام مرة واحدة على أرض غريبة ؟ ! أو تكتب لى حياة جديدة قصيرة أم طويلة .. لا يهم .. انى لا أعرف .. لا أعرف .. لا أعرف ..



المطـــــرود

مسرحية فى ثلاثة فصول

فاروق منيب ومسرحية المطرود ————

● يعد الفلاح المصرى من اكثر الشخصيات ظهورا فى أدب فاروق منيب .. وتمثل القرية المصرية أرض ميعاد الروح بالنسبة للكاتب .. حتى اننا لنستطيع ان نقرر بصدق أن معظم انتاج الكاتب يستمد صوره من الحقول الممتدة على مدى البصر فى الريف المصرى وقضاياه من حياة الفلاح ومن نضاله الذى استغرق آلاف السنين .

● وفى الأعمال الأولى للكاتب اختار الواقعية اسلوبا للتعبير ، فصور حياة الكادحين والفئات المهضومة من الطبقة الوسطى.. وعلى الرغم من الحياة الجافة القاسية والنضال اليومى المرير الذى كان على بطل قصصه أن يخوضه .. الا انه كان بطلا متفائلا قويا صلبا .. ثم اخذ الكاتب يمزج الواقعية بالرمزية فكتب مجموعته القصصية « زائر الصباح » ثم « أحزان الربيع » .. ورأينا الحلم يختلط عنده بالواقع واصبح البطل

أكثر ميلا للتأمل الحزين .. وواصــل تقديم صوره المعبرة ولكن ملفوفة فى غلالة من الأسى الرقيق .

- عندما حصل الكاتب على فترة التفرغ الأولى عام ١٩٦٥ قرر أن يرتاد ميدان الكتابة للمسرح وذلك بحثا عن مجــالات فنية جديدة بعد أن قدم لقرائه عشرات القصص القصــيرة .. ولكنه وهو يجرب الكتابة للمسرح انما يريد أن يبرز صورته المفضلة صورة القرية المصرية وبطله المفضــل الفلاح المصرى فى اطار فنى جديد .. وعاد الى قريته انشاص .. ومن هذا المكان الذى كان أحد قواعد الحكم الملكى البائد ومن ذكريات الاستبداد الملكى والسلطة الاقطاعيــة استلهم الكاتب هــذه المشكلة المهمة التى تعالجها مسرحيــة المطرود .. مشــكلة الحرية قبل ثورة سنة ١٩٥٢ .

- قدم فاروق منيب مشكلة الحرية فى هذه المسرحية من خــلال رؤية مصرية ريفية خالصة فالكاتب عندما اختار أن يعــالج مشكلة الحريــة وضعها فى الاطار المحبب اليه وهو الريف المصرى .. وعرضها من خلال الشخصية الريفية .. من خلال محمــد المصرى وابو دراع وعربكش بدلا من عرض هــذه المشكلة المهمة من خلال فئات المثقفين فى المدينــة لأنهم كما قد يتبادر الى الذهن لأول وهلة أكثر فئات المجتمع انشــغالا بمشكلة الحرية ولو فى شكلها النظرى ..

- على الرغم من الثراء الفنى الكامن فى أعمــاق الشخصــية

الريفية .. وعلى الرغم مما يتجه التركيز على الشخصية الريفية ـ فى جذب وتشويق واثارة بالنسبة للقارىء أو المشاهد .. الا ان الكاتب لم تكن الشخصية همه بقدر ما كان همه الفكرة فى المقام الأول .. والشخصية فى المسرحية رموز لمعان أكبر منها .. محمد المصرى « المطرود » مثلا يرمز لملايين الفلاحين بل للشعب المصرى كله فى ذلك الحين بينما يرمز المفتش والحاكم الى السلطة التى كانت قائمة فى ذلك الوقت والتى كانت تبطش بالشعب ..

● تطرح المسرحية سؤالا مهما .. وهو : هل يدافع الثائر عن حرية الجماعة فيفقد بسبب دفاعه هذا حريته هو الشخصية .. أم يسكت ويرضى فى مواجهة السلطة .. ان محمد المصرى فى المسرحية اكتشف بفطرته السليمة الاجابة الصحيحة .. انه لو اختار حريته الشخصية فلن يكون لها اى مغزى بدون حرية الجماعة .. وكان حكم السلطة فى ذلك الوقت على المصرى قاسيا بقدر عظم جرمه فى حقها .. لم تحكم عليه بالموت أو تزج به فى السجن انما حكمت عليه بما هو أقسى من ذلك بالنسبة له .. أن يطرد من بلدته ويحرم عليه أن تنعفر أقدامه فى ترابها طوال حياته .. أن يقتلع محمد المصرى من جذوره فيصبح هشيما تذروه الرياح وتصور المسرحية ايضا نضال جماعة الفلاحين ووقوفهم الى جانب بطلهم المطرود ودفاعهم عن حقه فى العودة الى بلده ..

● وعلى الرغم من ان هذه المسرحية تعد تجربة الكاتب الأولى فى عالم المسرح الا أن الكاتب قد استطاع الافادة من رصيده

اللغوى .. والحق أن لغة فاروق منيب تعتبر ركيزة أساسية فى أدبه لا يمكن اغفالها .. فالفلاحون الذين يتكلمون العاميةفى المسرحية يستخدمون لغة فنية فى جوهرها وان كانت عامية فى شكلها .. وفى الفصل الثانى من المسرحيـة أجرى الكاتب مقابلة لغوية لها أهميتها بين الشخصيات ، ففى الوقت الذى كان الحـوار يدور بالعاميـة بين الفـلاحين طوال فصـول المسرحية .. أجرى الكاتب حوارا بالعربيـة الفصحى بين ممثلى الارستقراطية فى المسرحية وهم الأمير والحاكم والمفتش والباشوات الاقطاعيون..واختار مكانا مناسبا لذلك تماما .. اذ جرى هـذا الحوار فى معرض الحيوانات والطيور الذى افتتحه الحاكم للترحيب بضيوفه الكبار .. وربما قصـد الكاتب من وراء ذلك الى ابراز التناقض الواضح بين طبقـة الفلاحين الكادحين وبين طبقة النبـلاء الاقطاعيين .. تناقض يبدو واضحا فى كل شىء .. حتى فيما يتمتع به السادة من ترف لغوى .. فبينما يستخدم هؤلاء لغة بسيطة جافـة يستخدم أولئك لغة غنية مليئة بالزخرف والترف اللفظى..

نجلاء حامد

الشخصيات :

- محمد المصرى
- أبو دراع
- الحاكم
- عربكش
- أم الفيط
- الأمير
- لهلوبة
- موظف
- شحات
- عجوز
- مجموعة عساكر .
- مجموعة باشاوات .
- مجموعتان من الفلاحين .

الفصـــل الأول

المنظر الأول :

المكان ساحة أشبه ما تكون بجرن ، بها جميزة عجوز وبعض الأحجار وبقايا نورج قديم ، ومن الخلف تظهر لوحة على امتداد البصر بألوانها الخضراء والصفراء والزرقاء . الوقت ساعة الأصيل، مجموعة من الفلاحين والفلاحات على المسرح ، يحدثون لغطا ، بعضهم يقعد على النورج ، والبعض على الصخور ، والآخرون يقفون متوترين . تتحرك هذه المجموعة رغم وجود تلك الأشياء في مساحة أقرب الى الفراغ أو الضياع . يوجد أربعة من حليقي الرءوس ، يقفون فى ثنائية ، وجه كل منهم للآخر ، لا يتكلمون . وفلاح عجوز يدور حول المجموعة ، يكون بمثابة الصدى الضجر للجماعة . يدور الموقف فى هذا المنظر حول غياب المصرى ، البلد كلها مشغولة عليه ، قلقة من أجله ، حزينة مكتئبة لفراقه الذى تم رغما عنها . يركز الضوء على فلاح نحيف ، متغضن الوجه بذراع واحدة ، يعتلى أحد الأحجار ، يشير بذراعه الصحيحة للجمع المحيط به أن يصمت ، لكن الضجة تستمر ، يظل هو ساكتا بضيق . وفجأة ينفجر صوته المشروخ بعد أن ينفد صبره .

أبــو دراع : باس .. باس .. (تهدأ الضجة بعض الشيء ، فيهدىء هو من صوته أيضا) باس .. باس .. (يتأهب للحــديث ، يمسح شــاربه الكث ، ويشد كم جلبابه عند ذراعه المقطوعة) قايلها من زمان .. أنى قايله .. وللا يعنى الراس الكبيرة ملهاش قيمة عندكو ؟ !

فـــــلاح : وانا راخر قايله والله ..

فـلاح آخـر : ونا والنبى ..

فلاحـــــة : يا نضرى والنبى صعبان على .

أبــو دراع : (بتشنج مكتوم) حنرجع للفوضى تانى ؟ ! .. بس يا غنم ..

فـــــلاح : (باحتجــاج ضعيف) احنــا مش غنم .. آه احنا مش غنم .. مش غنم .

أبــو دراع : قايله ان الميــه متطلعشى العــالى .. عــاوز يطلعها .. (بضعف) كنت عاوز اطلعها قبله .. مقدرتش .. لقيت جبــال قدامى .. وحفر تحت رجليه .. كتموا أنفاسى .. قيدونى .. وعمــلوا ربطيــه عليــه .. حدفونى بالزلط والطــوب .. لطخونى بالطــين .. وسفخونى بالكلام الرزل .. كله عشان كنت عاوز أطلعها العــالى .. (يصــمت بأسى) نفسى كــانت تطلع .. لكن وقعت .. اتحدرت من فوق قبل ما وصل .. (بيأس) آدى حال الدنيا .. يفضــل الواحد طالع .. طالع .. طالع .. وبعــدين يدعور على وشــه .. يا ريتنى ..

غايتــه مفيش فايــده ! (يشــير الى حليقى الرؤوس) أهم .. ســاكتين .. متكلموش ولا كلمــه .. ومش حيتكلموا أبدا .. انتو عاملين زيطه .. انما دول خلاص .. اتأدبوا.. شالولهم الدوشه من دماغهم ..

احد الفــلاحين : (مقاطعا) .. انت جاى تدينا وعظ هنا .. محنا عارفين الكلام ده كله .

العجــــوز : (وقد بدأ يدور حول الجماعــة) .. ســيبه خليه يفضفض عن نفســه يمـكن يرتاح .. سيبه يا شعب .

فــــلاح : راح فين يابو دراع ؟ !

ابــو دراع : علمى علمك .. والله مانى عارف !

الفــــلاح : يابو دراع .. اعمل معروف .

ابــو دراع : يعنى حيروح فين .. فى الدنيا الواسعة ..

الفــــلاح : محنا عارفين انه فى الدنيا الواســعة .. بس فين يعنى ؟ فى الشرق .. فى الغرب .. بين الشرق والغرب .. يمة الترعه .. وللا عنــد الجبل .. فى الغيط وللا عند المحطة ؟ !

ابــو دراع : سبحان الله .. وانى كنت مخاويه ! .

الفــــلاح : يابو دراع .. عاوزين نعرف طريقه ؟ ! .

ابــو دراع : وللا مشفته من نهار ما وصلته ..

الفــــلاح : طب كان فين ؟ كان فين والنبى ؟ ! .. سايق عليك النبى يا شيخ ؟ !

ابــو دراع : فى الغيط .. ليــلة مانطرد .. قالوله عاوزينك فى كلمتين صغيرين .. وبعــدين رحــلوه على الكوبرى على طول .. وصلتــه .. مقدرتش اسلم عليه فى الآخر .. كان فيه عساكر زى النطره.. الدنيا كانت برد .. والليل ضلمه .. ضلمه .. غطيس .. قالى سلامو عليكو من بعيــد .. انحبس الكــلام فى حنكى .. والله ما رديت عليه السلام .. رجعت زى اليتيم.. مقهور .. مكسور .. زى الطير اللى انضرب فى جناحه ..

الفــــــلاح : ما خدشى معاه هدومه ؟ ! .

ابــو دراع : لا .. ابدا .. مشى بالجلابيه على اللحم .

الفــــــلاح : ولا منديل فيه لقمه يتقوت بيها ؟ !

ابــو دراع : لا .. ابدا ..

الفــــــلاح : أمال خد ايه ؟ ماخدش حاجه أبدا ؟ ! .

ابــو دراع : مفيش غير الكيس اللى بياخده معاه كل مرة ينطرد فيها ..

الفــــــلاح : كيس ايه ده ؟ .

ابــو دراع : متعرفوش ؟ ! .

الفــــــلاح : لا .. معرفوش .

ابــو دراع : امال عامل نفسك محموق عليه ليه ؟ .

الفــــــلاح : كيس ايه ده ؟ .. قولنا عليه ..

ابـو دراع : كيس قمـاش يابنى عامله مخصـوص لأيام الطرد .. تو ما يحس بالطرد قرب .. هـوا يا فكيك يروح يملاه رمل من الأرض .. ويعلقه على سدره.. يقولك زكرى .. عشان مينساش البلد .. من ريحتها .. مخـه مش مريحـه (يسكت) ضرورى ياخـد الكيس معاه فى كل طرده .. صعبان عليـه .. أخوى وصاحبى اللى عاشرته العمر كله .. لو يلين مخه ؟ ! .

ام الغيـــط : (تقفز من وسط المجموعة ، زاحفة على ركبتيها ويديها كالقرود) شايفاه .. والنبى شايفاه .. (بتشنج مضـحك) كان لابس لاســه حرير بيضه ، وماسك فى ايده عصايه توت ، وشايل مخله بالأماره ..

ابـو دراع : مين هوه يا وليه ؟ ! .

ام الغيـــط : (بعد صمت قصير) محمد المصرى ياخوى .. هو انى عبيطه .. وللا عبيطه يعنى ؟ ! .

ابـو دراع : شفتيه فين يا وليه ؟ ! .

ام الغيـــط : (فى شبه حلم) فى المنام يابنى .. جانى على هيئة انس ، وشــه منور ، منور » يبك منه الدم .. وايديه بيضه .. بيضه زى اللبن الحليب . قعـد معايـه .. قلت له : مالك يا محمد .. قال لى مفيش .. تحايلت عليه كتير : مالك يا حبيبى .. مالك يا ضناى ؟ فى الآخر عينيه دمعت .. طبطبت عليه .. عملت

له كوباية شاى .. وحطيت قدامه لقمة فطير .. مرضيش ياكل .. شرب شفطتين شاى وقام هوا .. قال لى : انى مستعجل .. مش فاضى .. قلت له : رايح فين ؟ ! .. قال لى : معرفش بلاد الله لخلق الله .. يمكن أوصل السيد البدوى أو السيدة زينب أو الحسين .

ابو دراع : (مغيظا) يعنى هوه مش مطرود .. محدش طرده ؟ ! .

ام الغيط : مين حيطرده ياخوى ؟ ! هوه قال لى انه زهقان بس .. حيشم شوية هوا ويرجع .. حد يقدر يطرده .

ابو دراع : (موجها الكلام الى المجموعة بضحك) الكركوبه بتخرف يا خلق ! والله يا قرشانة الكلب ان ما سكتى لاوريهم الطربوش .. هه ؟ ! .

ام الغيط : ياخى .. حقلب روحى ليه .. بكره تعرفوا كل حاجه ..

عربكش : بقى الراجل يتخطف من وسطينا زى الشعره من العجين كده يا ولاد ! .

ابو دراع : قايلها .. حسى انضبح .. كل ماقعد فى حته أقولها (يصمت لحظة ، ثم يضرب كفا بكف متحسرا) غنم .. غنم استرالى .. عصايه تهشهم .. وعصايه تلمهم .. شاطرين فى الزمبليطه بس ..

عـــــربكش : (بضعف) يابو دراع..مش وقت البستفه.. دبرنا ان كنت تقدر تدبرنا .. رجلينا اتشققت من المشي .. تهنا فى سكك كتير ..

ام الغيـــط : مفيش غيرها هى سكة واحدة يا نضرى .

ابـــو دراع : (ضاحكا) يا وليه اسكتى لاوريهم الطربوش.. والنبى أخليكى مضحكة قدامهم .

عـــــربكش : يعنى خلاص .. انقفلت الدنيا فى وشنا ؟! .. معدشى فيه امل ؟ .

العجـــــوز : (وهو يكمـل دورته) متحملش هم .. بكره يظهـر ..

ام الغيـــط : شايفاه .. شايفاه يا عالم .. هوه انى حكدب نضرى (صمت) ابن حلال (ترفع يديها الى السماء) .. الهى يجعل فى وشه جوهره وفى حنكه سكره ويكتب له فى كل خطوه سلامه ..

عـــــربكش : (بضيق) يعنى خلاص .. مش قادرين تدلونا على سكه نمشى فيها . ! .

العجـــــوز : (بيأس) لسه حندور على سكه نمشى فيها .. فات الكتير وما بقيش الا القليل يا عربكش .. ياللا حسن الختام ..

ابـــو دراع : (نازلا من على الصخرة) يا عالم هى دى أول مرة ينطرد فيهـا حد .. ياما انطرد ناس .. واحد ورا واحد..منهم اللى راح ومارجعش.. ومنهم اللى رجع .. ومنهم اللى مات فى الطريق

قبل ما يوصل (يصمت) أروح أستسمحهم ؟!
يروح يبوس راسهم ! .

عــــربكش : تستسمح مين يابو دراع ؟ ! هى الحكاية هانت لغاية كده .. والله لو طقوا قدامه يستحيل حيبوس راس حد فيهم .. كان باس راس ناس كتير من زمان .. دا ياما انهــان فى عمره .. لكن عمره ما باس راس حد أبدا .. جاع وانزل وبات فى الطل ، وتغرب وسوح فى بلاد بعدد شعر راسه .. وانضرب بالكرباج (بأسى) شال هموم زى الرمل .. لكن عمره ما هانت عليه نفسه أبدا .. أبدا ..

أبــو دراع : ودى شطاره يا عربكش .. الدنيا عاوزه اللى يطــاطى .. يفضل يطــاطى لغايــة ما ينفد بجــلده .. دانيتنى أطــاطى .. أطــاطى .. (يخفض نصفه الأعلى الى الأسفل الى أن يصل الى الأرض) أطاطى لغاية ما وسطى انقسم .. لكن أعمل ايه .. التلحمه وحشه .. والرووس مش زى بعضها .. قلت ايه بقى ؟ ! .

عــــربكش : فيه ايه ؟ ! .

أبــو دراع : أروح استسمحهم ! .

عــــربكش : الراجل منهان يابو دراع .

أبــو دراع : (بجديــة) ما هو كلنــا منهانين يا عربكش .. (يتمشى وســط المسرح) اتحملنــا أيام زى القطران .. اتبهدلنا فيهــا آخر بهــدله ..

رجلينا اشققت من الحصى والشوك والزلط..
وايدينا اتهدت من الردم أيام ما كانت الحتـه
دى كلها برك .. ياما شلنا مقاطف الطين على
كتافنـا فى الليـل .. وجرينـا على طراطيف
صوابعنا فى النهار (يقلد من يصلح الأرض)
دب .. دب .. دب .. هات .. هات ..
دب .. دب ..

العجــــوز : (منحنى الظهر) .. مفيش فايده .. انى عاوز ارفع ضهرى مش قادر .. عاوز أصلب حيلى مش عارف .. خلاص معدشي فيه رمق .. نفسى أمشي عدل مره واحده بس .. أشوف قدامى بدل مانى طول عمرى ببص فى الأرض.. (يقلد من يصـلح الأرض) دب .. دب .. هات .. دب .. هات .. دب .

ام الغيـط : (فجأة) شايفاه .. والنبى شايفاه .. بالأماره كان لابس أخضر فى أخضر .. ماسك مصحف فى ايده اليمين .. وعصايه فى ايده الشمال ..

عـــربكش : (مقتربا منها) يا وليه كشي لكشف قرعتك ؟!.

العجــــوز : (يلتقط أنفاسه) سيبوها تتكلم .. غلبانه .. ملهاش حد تشكيله .

(ينضم الأربعة حليقو الرؤوس منكسيها فى صف واحد ، يدورون نصف دورة فى المسرح ، ثم ينضم اليهم العجوز ، يرقص الجميع رقصة المهانة والقهر) .

عـــــربكش : لغاية وقتيه يابو دراع يفضـلوا يطردونا كده زى المعيز ؟ ! .

أبـو دراع : (بحكمــة) نتحمـل يابنى .. الدنيـا عاوزه كده .. الصبر .. مفيش غير الصبر ..

(تعود الرقصة من جديد معبرة فى نفس الاتجـاه) .

عـــــربكش : لا حول ولا قوة الا بالله .. يعنى كل ما نفتح حنكنا تكتموه ! (بحسرة مكلومة) قربنا ننخنق يا عالم .. العساكر رايحين جايين فى البلد زى النمل .. محدش قادر يرفع عينيه فيهم .. بيمسكوا الناس يضربوهم .. وينزلوا الغيطان يقلعوا الزرع .. وبيهجموا على الجناين ياكلوا الفاكهه .. (بنغمة مرتفعة) قربنـا نهج .. نطفش فى اى بلد تانيه .. (بضيق) مسيرنا نلاقى اللقمه والهدمه .. أرض الله واسعة .

أبـو دراع : (يقترب منه ، واضـعا أصبعـه على جانب راسه) العقل .. العقل يا عربكش .. مفيش حاجه بتمشى عبيطى كده .. لو كان المصرى سمع كلامى ما كانش حصل اللى حصل .. أهـه تلاقيه داير ســواح فى البلاد دلوقتى ، محدش عارف له جره .. قايله يا محمد الميه ما تطلعشى العالى .. الميه ما تطلعشى العـالى أبـدا ..

عـــــربكش : (بسخرية) يعنى الميه تنزل الواطى بس ؟ !

ابــو دراع : أيوه يا عربكش .. ماحــدش قدهم .. دول معاهم فلوس وعسـاكر وبنادق ميزر .. وحنا ماحلتناش اللضا .. محمد معاه ايه يا حسره ؟ عصايه توت ناشفه ! (يعــاود الاشــارة الى راسه) العقل .. العقل يا عربكش ! .

عـــربكش : (بغيظ) يعنى نسيبهم يركبونا .. الف سنة وهمه راكبينــا .. معلقينــا زى التيران من رقبينــا ، مغمضــين عينينا عشــان منشفش حاجه ، مكتفين ايدينا ورجلينا عشان منعرفش نتحرك (بصيحة) التيران تعبت يابو دراع .. كفايه بقى .. العرق بيشر منها .. (يصمت) عصلجت خــلاص .. كل شىء له آخر .. له حدود .. كانت بدور (يدور حول المجموعة فى دائرة صغيرة) دانها تدور وتدور .. وهمــه ورانا زى اللهلوبه .. عا يابتاعة اللئيمه .. حى يا منكوده .. عا .. حى .. عا .. حى .. (يستمر فى الدوران ، ثم يقف فجأة بعد أن يمسح عرقه) تعبنا يابو دراع .. تعبنا (يضع يديه فوق وجهه ، وينشج بعنف) .

(يتسلل بعض الفلاحين من المسرح) .

أبــو دراع : (بسخرية) طب بس .. بس .. انت اتعلقت حاجه .. أصل الحكايه دى زى الطاحونه ، لازم كل واحــد يتعــلق فيها عشــان يعرف الدنيا .. أبوى كان متعلق فيها .. وجدى كان متعلق فيهــا .. وجد جدى اتعلق فيها ..

وجد جد جدى .. وجد جد جد جد جدى..
وانى اتعــلقت لغايــة ما رقبتى شرت دم ..
والكرابيج علمت فى جسدى (يصمت) أهــه
دلوقتى مش عاوز حــد يقولى عا ولا حى ..
بدور لوحــدى .. حر نفسى .. محــدش له
عندى حاجة .. ســلطان زمانى .. عاوزينى
أدور آدينى بدور .. أقف آدينى بقف ..
مش خسران صــلدى .. اتعــلمت خــلاص
ياعربكش ، دى بلد لسه بدوى عليها (يصمت)
بتاكل الجزم .. حاجــه تكســف اللى عمره
ما تكسف .. (صمت) امبارح واحنا قاعدين
عند الدكــاكين كان واقف شــعبان ابو قتب
والحاج ملوخية .. قام شعبان شاف الحاج
لابس جزمه جديده .. قاله : جايبها منين
يا حاج ؟ .. الحــاج قاله : اتنيل على أمك
يا شيخ .. يعنى تقدر تشترى زيها .. دى
أجلسيه .. ضحك شعبان وقاله .. لأ ..
انى أقدر أكلها .. قاله : تاكلها ازاى ؟ ! انت
اتجننت ياله .. قاله : أكلهــا وخلاص ..
انت مالك ؟ بس تدفع كام ؟ .. قاله أدفع
جنيه .. وان معرفتش تاكلها تدفع تمنها ..
(يجلس على الأرض مقلداً شعبان) شعبان
قعد زى مانى قاعد كده أهــه .. طلع موس
من جيبــه .. الظاهر انه كان مســتعد ..
مخمن على الحكاية من زمان .. قعد يمزع
فى جلد الجزمة حته حته .. حته حته ..

ويأكل .. وياكل .. وياكـل .. (يقـلده بامتعاض) لغاية مخلصها كلها . وبعدين اكرع كأنه واكل خـروف .. يا راجـل دى بـلد يا عـربكش .. الحمـد لله اتعلمنـا خـلاص يا عربكش .. اتعلمنا .. أودى نفسى فى داهيه بايدى ؟ ! .

العجـــــوز : (وسط المسرح) رجليه..آه يانى يا رجليه.. اتكسرت من الدوران .. قلبى حيسقط من سدرى .. سبعين سنة وانى ألف وأدور .. نفسى انكرش وحسى انحاش (يسعل) مقلتش جاى (يســعل أكثر فأكثر ، ثم يقعـد على الأرض) البلد متساويش خرده بعد محمد .. عامله زى الخرابه .. صفصفت على روســنا ومش قادرين نقول بم ..

عـــــريكش : (متـــأثرا) طب قـــوم روح يابوى .. المصرى برضه مسيره يرجع بلده !

العجـــــوز : (وقد نحل صوته من الكحة) حيغيب قد ايه.. سنه .. سنتين .. تلاته ! أربعه..خمسين.. ميت سنه .. ألف .. ألفين..تلات تلاف .. ماحنــا طول عمرنا مستنيين .. اشــمعنى حنستعجل على آخر الزمن ؟ ! .

عـــــربكش : (يطبطب عليـــه) محمد يمكن يغيب شــويه يابوى .. قوم انت استريح .. باين عليك عيان قــوى ..

أبـو دراع : (ملتفتا حوله) .. أمال فين الناس اللى كانوا هنـا ؟ ! ..

عـــربكش : مشـــيوا ..

أبـو دراع : كلهم ؟ ! .

عـــربكش : كل واحد وراه حاله ..

أبـو دراع : كل واحد راح يعلق نفسه قبل ماحد يعلقه .. هى دى الأصـول .. يستنوا ليه لمـا حـد يبستفهم بكلمة كده والإلا كده ؟ ! .

عـــربكش : يعنى أنى وانـت اللى حنشـيل الحمـل يابو دراع ؟ ! .

أبـو دراع : لأ يا عم .. يفتح الله.. كل نفر يشيل حمله.. محدش يقدر يشيل حمله وحمـل غيره .. (بحسرة) ياما الواحـد وقع فى مصايب .. مشفتش حـد وقف معـاى .. كلهم بيجروا ساعة المصايب .. عاوزين يعيشوا .. (فجأة يحاول الكشف عن ذراعه المبتورة) خافوا لمـا لقيـوا الدم .. هربـوا منى .. مصمصـوا شفايفهم.. كل ما قابل واحد يقولى مسكين.. تعبان .. ربنـا يشفيك .. (صمت) كنت بحارب ليه ؟ ! عشانهم كلهم .. زحفت على بطنى فى عز الليـل .. الكنـابل كانت فوق روسنا.. والمدافع قدامنا .. واللغم تحتينا.. لكن برضه ماشيين .. فاكرين انها بلد تقدر !، طلعت خيخـا (يأخذ نفسه وكأنه يسترجع ذكريات بعيدة) .. نقلونى الاسبتالية .. كنا مترصصين زى الغنم المدبوحة (يشير بيده)

كده لا مؤاخـذة كـده .. صفوف طويلة .. طويلة .. طويلة .. اللى مضروب فى رجـله ، واللى فى ايده ، واللى فى بطنـه .. كل واحد بيقول جاى .. جاى .. وفى لحظـه واحده تبص تلاقيهم كلهم فى نفس واحد عمالين يقولوا جاى .. جاى .. جاى .. اللى عمره ما خاف بقى فى اللحظة دى لازم يخاف .. يترعب .. عنبر طويل .. طويل بيقول جاى .. جاى .. كلمه جاى كانت تنفد من الحيطـه لبره .. للسما وتنزل تحت فى الأرض .. غايته ماكنتش حـاسس بنفسى .. بصيت لقيت جسـدى مخدل .. كله مخدل .. زى ما يكون عشرين واحد اتلموا على وضربونى لمـا عدمونى .. (يصمت ثم يلمس ذراعه) صحيت عطشان .. عطشـان .. مديت ايدى ونـا مغمض أجيب الميـه .. ورجعتها عشان أشرب .. مفيش ندعة ميه جت فى حنـكى .. مديتها كمـان وكمان .. ورجعتها مفيش فايده برضه .. فتحت عنيه .. ما صدقتش نظرى .. قعدت أبحلق .. أبحلق .. وانى مش مصدق ؟ ! .. (يتنهد مستسلما) لقيت دراعى مقطوع .. مقطوع .. مقطوع ..

عـــريكش : احنا فى البلد دلوقتى يابو دراع .. الحـرب خلصت من زمان .. الرجاله بيناموا من المغرب زى القطط .. بيمشوا وشهم فى الأرض .. مفيش فرح اتعمل من نهار ما انطرد .. ناويين يادبوا البلد المرا دى ..

ابـو دراع : طيب نستسمحهم وخـلاص .. مش حنخسر حاجه .. عشـان نلايمهم بس .. انى عارفهم طيب ..

(يدخل فلاح مهرولا مذعورا) .

الفـــلاح : يا عـربكش .. يابـو دراع .. المصـرى فى الجبـل .. بيقولوا محاصرينه فى الجبل .. ربطيه عليـه .. موقفين عسـاكر زى الرز ، دايرن داير حوالين الجبل..وعلى الكوبرى.. وعلى شط الترعة ..

عـــربكش : (بلهفة) مين اللى قال كده ؟ ! .

الفـــلاح : كل البلد .. كلهم بيقولوا .. الدنيـا بتشفى بره ..

ابـو دراع : (بيأس) والله انى عارف حتبقه ضلمه .. سنه نحس انشاء الله .. (يرتعش) احنا مصدقنا نرتـاح شـويه من تعب زمان ، نرجـع تانى للغلب .. (يتساءل بأسى) ليه يا مصرى كده ليه ؟ ! طول عمرك معاند كده .. تعبتنى معاك طول العمر .. أطلع من ورطه توقعنى فى ورطه تانيه ، (برجاء) عيب يا مصرى .. عيب دانى تعبـان .. مخلع .. مفيـاش نفس للشـقا تـانى ! ..

عـــربكش : وبعدين يابو دراع .. احسن العسـاكر يقربوا منه .. حيمسكوه ! .

أبــو دراع : همه مش عاوزين يمسكوه يا عربكش .. دا همه عاوزين يراضــوه .. أصــله مدوخهم سنين وسنين .. هى دى أول مرة يحاصروه فيها .. ياما حاصروه قبل كده .. مرة فى الجبل .. ومرة عند الكوبرى .. ومرة وسط الترب .. وبعد ما يمسكوه .. يستفرطوا بيه .. نفسهم يهبطوه عشان يسكت .. ينقطهم بسكاته .. (صمت) يسكت خمس ست سنين .. وبعدين يرجــع زى ما كان .. عاوز يشــاكل دبــان وشه .. يقوم فى البلد زيطه ..

الفــــــلاح : أبــدا يابو دراع .. المرة دى ناويين يقتــلوه بصحيح .. معمرين البنادق ومستنيين .

أبــو دراع : (بهدوء) يابنى انت مش فاهم البلد .. احنا مزروعين فيها .. بقالنا ألف سنه .. جدود جدودنا مدفونين هنا ..

عــــــربكش : انى خــايف ليقتــلوه يابــو دراع .. والنبى حيقتــلوه ..

أبــو دراع : متخفش يا عربكش عمر الشقى بقى .. كان انقتل من زمان .. دا الموت بيهرب منه .. بيخاف .. كان معايه أيام الحرب .. بقى يدفن عشره عشرين يوماتى .. يشيلهم على كتفه .. ويشــاهد عليهم .. ويفحــر لهم القبــر .. ويدفنهم .. وبعــدين يقوم ياكــل ويشرب ويضحك ويتنطط زى القرد .. وأيام مانسجن آخر مره .. الناس قالوا مات خــلاص ..

قرينا على روحه الفاتحة .. وعملنا له ميتم بصوان وفقها وقرفه وجنزبيل .. يعنى ميتم بصحيح .. وبعد شهرين بصينا لقيناه قدامنا .. هرب من السجن .. دا فرعون .. عمره ما يموت أبدا ..

ام الغيط : (تزحف الى مقدمة المسرح) مفيش غيره هوه اللى حيعرفنا طريقه .. لتقولوا فى الجبل ولا فى حته ثانيه .. هوه اللى حيقول فين ؟ ! .. مجرباه .. والنبى مجرباه بدل المرة ألف .. (تخرج من جيبها منديلا أحمر ، به بعض الزلط والرمل والودع ، وتفرشه أمامها) .

عربكش : (بغيظ) هوه مين يا وليه ؟ ! .

ام الغيط : ترفع اليه ودعة) .. الودع يابنى .. خد وشوش الدكر ..

عربكش : (يرميها بشدة من يده) يامره بلاش هلوسه.. ينعل أبو قرعتك .. (يقترب منها محاولا الامساك بها / أنى حوريهم الطربوش ، قربى راسك قربى .. ناوليها لى .. ناولينى الزنه عشان أضحكهم عليكى (يضحك) .

ابو دراع : (مبتسما) سيبها يا شيخ .. دى غلبانه .. (يقترب منها ليأخذ الودعة) هاتى الودعة يا أم الغيط .. أنى اللى حوشوش الدكر ..

ام الغيط : خد يا خوى .. خد .. الهى يستر عرضك ..

أبــو دراع : (يردها اليها بعد أن يقربها من فمه بين كفيه لحظة) خلاص يا أم الغيط .. خدى .

أم الغيــــط : (تصمت وهى تبحــلق فى الرمــل) يا نضرى دا طريقه طويل قوى .. شايفــه فى ســكته عراقيل كتير .. حيخطى ترع ويطلع جبال .. ويبات فى الطل (تصمت) فيه واحــد عاوز يضربه على راسه أهه .. (بحدة) أهه .. نضرى عليــه .. ناس مقابلينــه .. عاوزين يقتلوه .. يطخوه بالنار .. بيجرى قدامهم .. وهمه بيجروا وراه .. هوه بيجرى وهمــه بيجروا وراه .. يا عينى وقع من طوله .. اتمــدد على الأرض .. باينــه مجــروح .. (تبحلق فى الرمل) بس فيه شوكه دخلت فى رجله .. قعد أبدا مش مجروح .. الحمــد لله .. حيقوم تانى .. اهه بيزحف على بطنه عشان يوصل .. بس فيه شــوكة دخلت فى رجله .. قعد يطلعها .. (تشهق بفرح) تمام زى ما شــفته فى الحــلم .. لابس أخضر فى اخضر .. ماسك فى ايده عصاية التوت .. وشه أبيض زى اللبن الحليب .. وقورتــه بتضوى زى القمر ليلة أربعتاشر .

أبــو دراع : (بمرح) وبعدين يا أم الغيط ؟ ! .

أم الغيــــط : وبعدين تســلم ياخــوى عنيــك ما تشــــوف الا النور .. حيركب جمل عالى .. والنبى حيركب جمل عالى .. جمل عالى عليه شبريه،

زى العروسة .. وناس زى النمل حتزفه .. ماشـــيين وراه أهم ، بيرقصـــوا ويطبلوا .. (بأسى) بس اياك يعرف يطـلـع الشـــوكة يا نضرى .. فيه ناس عاملين ربطيــه عليــه عشان يطفشوه من البلد .. واحد خنيس .. ســهن .. زى غــراب البين .. داير ينقــر حواليه .. تعبان بيبخ السم من حنكه .. عمال يحجل زى البومه .. لكن الزفه مغطيه عليه .. ماشيه .. هوه عمال بيبخ وهيــه ماشيه .. بيبخ وهيه ماشيه .. بيبخ وهيه ماشــيه (تشهق بفرح من أعماقهــا ، ثم تلم الودع ، تربــط المنديــل ، ثم تتراجــع الى الوراء) .

عـــــربكش : والكلام اللى عليه العقد والربط يابو دراع ؟!.

ابــو دراع : مانى قلت يا عربكش !

عـــــربكش : قلت ايه ؟

ابــو دراع : قلت لا اله الا الله .. قلت الميــه ما تطلعش العــالى ..

عـــــربكش : طلعت ولا عنها ما طلعت .. احنا فى الراجل اللى محاصرينه ده فى الجبل .. البلد لابد تعمل حاجه .. اى حاجه ..

ابــو دراع : البلد عمــاله تمأمأ زى المعزه .. بتوحوح من الصقعة .. مفيهــاش حيل .. تعبت رخرة يا عربكش .. كتر خيرها. استحملت كتير..

تطلع من نكبة تلاقى نكبة..هيه شافت قليل.. دا ياما اتمرمطت تحت الرجلين .. (يصمت) وانهانت وانقهرت .. ادغدغت .. فات عليها ايـام زى القطـران .. جـاعت وعطشـت واتبهدلت .. وانكسر جناحها . عاوزه ترتاح بقى .. كتر خيرها ..

العجـوز : (يلف نصف دورة) الصبر..الصبر يا خلق.. كله يهون ويعدى .. استحملنا الكتير ومبقيش الا القليـل .. حكم الزمن مامنوش مفر .. (بضجر) يحاصروه وللا ما يحصرهوش .. يقتلوه واللا ميقتلهوش .. المكتوب لابد منه .. نفسى أشوفه قبل ما موت .. (يحـاول أن يرفع قامته ، فلا يستطيع) وحشنى قوى.. وحشنى قوى ..

عـربكش : (بعصبية) يعنى نسكت يا خلق .. والله لمـا يكون على رقابينا .. يستحيل نسـكت .. حيحصل ايه يعنى ؟ ! مش حنخسر حاجه .. ببصلة واكلينها ، بملحة واكلينها ..

ابـو دراع : انت الحمـاس واخدك يا عربكش .. اعقـل أحسن لك .. محدش حينفعك .. (يشير الى جانب رأسه) العقلَ يا عربكش .. العقل ..

عـربكش : (بضيق) يعنى نسيبه فى الجبل لوحـده .. يتحاصر هناك وحنا نقعد هنا زى الأرانب .

ابـو دراع : (بسخرية) طيب يا سيدى ورينا الشهامه .. ربنا ينفخ فى صورتك ..

عـــــربكش : (يقترب منه برجاء) يابو دراع .. انت كبيرنا برضه .. ملناش حد غيرك .

أم الغيـــط : (بصوت متهدج) راكب جمل عالى والنبى .. بيزفوه أهم ..

أبــو دراع : انت فاكر انهم محصرينه فى الجبل صحيح ؟ !

عـــــربكش : امال يعنى ايه ؟ !

أبــو دراع : يابنى دا خايفين منه .. خايفين يجى عن طريق الجبل .. المصرى مش جبان .. لو كان عاوز يرجــع لا يمــكن يرجــع عن طريق الجبــل أو الترب .. ضرورى يرجع من طريق الكوبرى قدام الناس كلهم .. تلاقيه عاوز يرجع هوه والمطرودين .. أنى سمعت انه بيفوت عليهم فى البلاد ، واحد ورا واحد عشان يجمعهم ..

عـــــربكش : يابو دراع كل واحد بيدور على نفسه .. والبلد لايصه .. مفيش حد باكى عليها..محاصرينها من الجبل والكوبرى والترب والترعه..وكلهم نايمين فى البيوت .. قاعدين على المصــاطب بيشربوا شاى (بلهجة مرتفعة) البلد حتضيع يابو دراع .. البلد حتضيع..البلد حتضيع!.

احد الفلاحين : انضربت يا خــوانا .. انضربت لمــا دخت .. مدونى على رجليه .. جلدونى .. قعــدوا يجــلدوا فيه لمــا الدم شر من رجليــه ! .. (يتألم) آه .. آه .. آه ..

فـلاح آخـر : حمارى يا ناس .. حمــارى من غير ديل ..

آه يانى يا حمارى .. (يبكى) حمارى من غير ديل .. حمارى من غير ديل ..

أبــو دراع : ماله حمارك يا راجل ؟ !

الفــــــلاح : كنت عاوز أفوت من الكوبرى .. مرضيوش.. قعدت أناحر معاهم لغاية ما قالولى اطلع أنت وسيب الحمار هنا .. طلعت ماشى .. وبعد ما رجعت جيت أركب الحمار لقيته من غير ديل .. خلعولى ديله .. شدوه ..

أبــو دراع : بس .. بس يا شعب .. (يظل يشير بيديه).

احد الفلاحين : أصل اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى ..

فــلاح آخــر : لا .. أصــل اللى بنى مصر كان فى الأصــل فكاهــانى ..

العجـــــوز : لأ بقى .. اذا كنتو عــاوزين تسمعوا مواويل أسمعكو أنى .. نمول بقى.. برتاح فى المواويل قوى .. اسمع يا جدع انت وهوه ..

أحد الفلاحين : آه والنبى .. عاوزين أدهم الشرقاوى ..

فــلاح آخــر : لا .. لا .. عاوزين الزناتى خليفة ..

فــــــــلاح : (بصفاقــة) انى عــاوز أبو زيد الهــلالى .. آه أبو زيد الهلالى .

العجـــــوز : طب انى حمولكو حتــه حــلوه قــوى .. بس اسمعوا ؟ !

الفــــلاحون : طب قــول ..

العجـــــوز : الصبر طيب ولو كان مر نصــبر له
واللى اكل حلو أو كل مر يصبر له
واجب علينا لحــكم الله نصبر له
والصبر عجبو فرج احلى من المنعاد
والرزج ماهوش بكتر الجرى دا أوعاد
كلام بترتيب من مدة سمود أو عاد
واللى انكتب ع الجبين لابد نصبر له

(أصوات استحسان من الجميع وطلب الاعـادة) .

أبـو دراع : (يضحــك) يا شــعب .. بس يا شــعب (مستفسراً) مش استمخيت ؟ ! كفايه بقى !

فــــلاح : (صاحب الحمار) حمــارى من غير ديل .. حمارى من غير ديل ..

عــــربكش : انتو جايين تطمنوا على الراجــل وللا جــايين تسمعوا مواويل ؟ !

فــــلاح : يا عــربكش اســتنى علينــا يا أخى .. دحنــا محرومين من الأفراح .. كل ما نعمــل فرح يفضــوه .. عــاوزين نفــرح حبــه .. قول يا حاج .. قول ..

العجـــــوز : عملت معروف مع الأندال شــتامونى
وعابوا فيا فى كل مكان شتامونى
من قلة الأصل من غير اسباب شتامونى ..

الجميـــــع : الله .. الله .. الله .. أعد .. أعد ..

ابــو دراع : خلاص يا رجـاله .. انتهى المغنى بقى ! .. نسمعوا لمـا تشبعوا .. خلينـا فى الحكاية . حد انطرد تانى ؟ !

فــــــلاح : طردوا السيد على ..

فــــــلاح : وابو عطيفة الطناملى ..

فــــــلاح : وبسيونى العش ...

فــــــلاح : (بعد فترة صمت) وعــرابى ابو اســماعيل ابو عوده ..

عــــربكش : (وقد كاد صبره أن ينفد) يعنى كل يوم عمالين يطردوا ناس .. البلد حتصفصف يا خلق .. حتبقه على الحديده .. مشحطه زى العربية اللى مفيهاش بنزين .. وأبوه دراع يقولى الميه ما تطلعشى العالى (يمسك راسه بيديه فى عصبية) يا عالم .. احنا محبوسين فى حتــه مقطوعه ، لا احنــا قادرين نطلع ننفس عن روحنا .. ولا احنا قادرين نرجع الغايبين .. البلد دراعاتها مكتفــه ، ورجليها متقيده .. ونفسها منحاش .. بطالع فى الروح..عاوزين نلحقهــا قبل ما تموت بين ايدينــا (يصمت مأخوذا ، ناظرا الى حليقى الرؤوس) واخدينها حلاقــه من الأول للآخر .. خاصــوا ع نص البلد الفوقانى .. لسه النص التحتانى .. خلصــوا على الرجـــاله .. حينــداروا على

الحـريم .. (يعـاود وضع رأسـه بين يديه متحسرا) .

العجـــوز : النهـارده بيطردوا النـاس .. وزمـان كانوا بيتحايلوا علينا عشان نعمرها .. ولمـا بقيت خضرا .. خلاص .. عاوزين يروموها نفايه .. ويجيبوا ناس تانيين (يشير بيده نحو الأفق البعيد ، محـاولا رفع قامتـه ، مسـتعيدا الذكريات) فين أيام الحته دى ما كانت كلها برك .. كانت الميـه للـركب .. والحلفـا فارشاها .. جدايل .. جدايل .. زى شعر المره المجنونة .. وطول الليل الضفادع عماله تنق .. الواحد كان يفضل ماشى .. ماشى عبال ما يقابله انس يقوله السلام عليكو .. دلوقتى خلاص .. اتنظمت وبقت زى الورد اصبح ليها كتبه ونظار وخفرا وافنديه رايحين .. جايين .. يشخطوا وينطروا .. وحدود محدش يقدر يعتب ناحيتهـا .. وبيطردونـا منها كمان .. سبحان المنظم .. الخديو كان يمر راكب فرس..والست الوالده قاعده فوق فى الدهبيه .. بس أيام زمان كانت رخـا .. الواحد كان يشترى من التعريفه رغيفين عيش وبضتين وسجارتين وياكل برتقان كمان .. الجاموسه كانت بعشره جنيه ، والبقره بخمسه وتلاته .. هيه .. ملك ومنظمـه سـيدك (ينحنى مرة اخرى) .

عـــــربكش : اللى فات مات يابوى .. خلينا فى النهارده ..

العجـــــوز : قـال جـايبين مكن قـال مالهـا السـاقيـــة والطمبوشه .. مش طول عمرنا بنسقى بيهم .. لزومه ايه المكن ؟ ! .. محدش فاهم فيه السما من العمى ! .. لو عطـل ، الأرض تبور .. الساقيه محناش غرمانين ليها حاجه .. نعلق فيها الجاموســة أو البقره .. ان مشيوا كان بها .. وان وقفوا .. وراهم بالفرقـله على طول .. عا .. حى .. عـا .. حى عـا .. حى ..

عـــــربكش : ما هى الساقيه اللى علمتنا الدوران يابوى .. (يبدأ يدور حول نفسه) هيه اللى خلتنا بقر .. جاموس .. علمت كل الناس يدوروا حوالين نفسيهم .. (يقف) مش عاوزين يتحركوا .. واقفين زى الخشـب (مخاطبـا الجميـع فى صيحة) يا بلد عيب .. عيب يا بلد .. قومى بقى .. كفايه كسل .. صحى النوم .. الدنيا كلها ماشيه لقدام .. وانت لوحدك مكسكسه لورا .. محدش حيطبطب عليـكى ، ويقولك معلش والنبى .. ان ما وقفتيش مع المصرى النهارده حيخلصوا عليكى ، حياكلوا لحمـك قبل عضـامك .. الحقى يا بلد قبل ما ييجى الطوفان ويغرق كل حاجه .. الأرض والزرع

والعيال والنسوان .. القمح والدره والبرتقان واليوسفندى .. الحقى مدى ايدك لمحمد فى غربته .. ساعديه يرجع فى وسطينا بدل ما هو مشرد بره .. متسمعيش كلام العجوز وأبو دراع .. عيب يا بلد .. يا بلد عيب ..

(ينشج بعنف) .

ستار

المنظـر الثـانى :

كوبرى بسيط يحكم منفذ البلدة الوحيد الى الخارج . الأصل الا يمر عليه الا من يحمل تصريحا . وهناك قائمة بأسماء المطرودين. وهذا الكوبرى يشبه باب السجن الى حد كبير . امامه منصـة زجاجية عالية يجلس فيها الحاكم الذى يسمح بمرور الفلاحين . وتحت يوجد خفير قزم كحيلان يثأثأ فى الكلام ويتهته . كما يوجد مجموعة من العساكر المتأهبين للانقضاض فى اى لحظة ، وموظف ضنين البصر ، يمسك بيده كشف المطرودين . ومجموعتان رمزيتان من الفلاحين احداهما تريد الخروج من البلدة ، والأخرى مطرودة تريد الدخول اليها . يبرز محمد المصرى بعد مدة ، طويلا ، عريضا فى عنفوان تدفقه الروحى ، لكنه متعب ضجر من أثر الغربة .

الوقت بعد المنظر الأول بيوم ، ساعة أصيل أيضا .

العسـكرى : (ممسكا بأحد الفـلاحين) كله يحـاذى .. (يهتف) حذا .. حذا يا شعب .. النظام .. النظـام .. (ينظر فى المجموعـة) انتو طالعين وللا داخلين وللا قاعدين ؟ ! غلبتونا كل يوم..

حذا يا شعب (يتجمع صف صغير أمامه هادئا ذلولا) .

فـــــلاح : طوابير .. طوابير .. طـول عمرنـا واقفـين طوابير .. غلبنا من الطوابير .. مفيش حاجة من غير طابور .. فى استلام الكيماوى طابور .. وعند الدكان طابور .. وفى القرعه طابور .. الواحد ضلعه انهدم من الطوابير ؟ !

العســـكرى : (شاخطـا) بس يا بهيم .. لازم تتنظموا .. الحياة نظـام .. بلاش أمور الفوضى والهمج دى .. (للأول) اسمك أيه ؟؟ .

الفـــــلاح : عبد المعبود عبد المولى عبد البصير .

العســـكرى : (ملتفتا الى الخفير) بس .. بس..عبد المعبود عبد المولى يا لهلوبة ! .

لهلوبـــــة : (ناحيـة المـوظف) عبد المعبـود عبد المـولى عبد البصير ..

المـــوظف : (يفحص الكشف فى يديه) أيوه يا سيدى .. عبد .. عبد .. عبد الله .. عبد العـال .. عبد الرسول .. ماشى .. يعدى .

العســـكرى : غيره .. اسمك ايه ؟ !

فـــــلاح : صابر ابو طاحونه ! .

العســـكرى : طالع من البلد ليه ؟ ! .

الفـــــلاح : لامؤاخذه ، بنتى ماتت ، طالع اجيب لها حتـة كفن .

العسكرى : استنى شويه بلاش لؤم .. مش انت برضه اللى بنتك ماتت امبارح وأول امبارح .. هى بتموت كل يوم ؟ ! .

الفلاح : لا والله يا شاويش ..

العسكرى : هس .. مش عاوز لماضه .. أحسن ألبك بالقايش على نافوخك .. بلاش غلبه .. غيره؟.
(يهرول الى الناحية الأخرى حيث ينظم طابور المطرودين ، يلحق به الخفير والموظف) .

الحاكم : (من المنصة) مضيعوش الوقت .. هاتولى الراس الكبيرة بتاعتهم .. هيه المهم !

لهلوبة : (مرتعشا ، يشير بأصبعه علامة الحيرة)
حا .. حا .. حاضر .. اص .. اص .. اصل ..

الموظف : (رافعا الأوراق الى عينيه ، وبصوت مضطرب مشروخ) محمد المصرى عبد الرسول .. محمد المصرى عبد الرسول .. لسه مجاش ؟ ! ما تردوا .. هوه كل يوم يقرفنا كده ؟ ! .. ملناش شغله غيره .. ميدخلوه بقى ويفضونا .. حض الله الواحد بطنه زغردت من الجوع ..

لهلوبة : محمد المصرى عبد الرسول ..

(يسود الصمت والدهشة بين الجميع ، يتبادلون الهمسات)

الموظف : لسه مجاش يا أفندم ..

الحاكم : خلى بالكو منه تمام أحسن عامل اشاعه انه فى الجبل ..

العسكرى : (ممسكا بفلاح من مجموعة الخارجين من البلدة) وانت عاوز تطلع ليه ؟ ! .

الفلاح : (بخوف) مليش نفس أقعد هنا .. حاكل لقمة عيشى فى حته تانيه ..

العسكرى : (يضحك) والحته دى مالها .. ماهى مليانه خير أهه .. كلها جناين ..

الفلاح : (باصرار) مش قادر خلاص .. اطلع بره يمكن ربنا يفرجها .

العسكرى : انت مسدد الايجار ؟ !

الفلاح : عن داير مليم .

العسكرى : أمال زهقان ليه ؟ !

الفلاح : (محاولا أن يتخلص منه) يستحيل .. يستحيل .. أوعى سيبنى كده .

العسكرى : (يتشبث به) يابنى ارسى (ينظر فى وجهه ضاحكا) هات سيجارة هات .

الحاكم : مش عاوز ضرب النهارده يا عساكر .. بالراحه يمكن يعقلوا .. الضرب ما عدشى بيحوق فيهم .. أجسامهم بلدت خلاص .. دول ابالسه .. مكدرين عليه عيشتى .. بقالى ست ايام ونا

صاحى (بتؤدة واوامر) الأمير جاى .. البلد لازم تكون نضيفه .. زى الفل .. مفيهاش ولا عفشايه .. الكشافه تقف على الجنبين .. والنسوان تزغرد .. والشجر يندهن بالأبيض والرجاله تهتف .. عاش الأمير .. عاش الأمير .. والعيال يغوروا من وشى عشان حافيين (يحك أذنه وأنفه بعصبية) آه .. فاهم يا شعب ؟ ! .

العسكرى : (مع نفس الفلاح) .. محفظة ؟ ! .. فيها كام دى (يأخذها منه) خليها معاى عبال ما ترجع .. (يفتحها فيجدها فارغة) فاضيه الله يفقركو كمان وكمان (يرميها فى وجهه) خد جتك البلى .. غيره ..

الحاكم : (من فوق الى العسكرى) متخلوش حد يطلع بحاجه أبدا .. خدوا الفلوس والدهب والقمح والدره والرز .. اللى عاوز يطلع يطلع بطوله بس (يضحك تشفيا وحقدا) .

لهلوبة : (يجرى وسط الجميع) فاهم يا شعب .. فاهم ..

احد الفلاحين : (بفرح وهو فى جانب المسرح) فاهمين ايه .. بلاش ذل بقى .. المصرى باينه جاى غادى أهه (يضع يديه على عينيه حتى يرى جيدا) .. هوه .. هوه .. والله ! ..

احد العساكر : (متطلعا) دا واحد على باب الله يابنى ..

الفـــــلاح : (مبحلقا أكثر) والله هوه .. هوه ..

الحـــــاكم : (ينزل من على المنصة) اوعى ونا أشوفه .. أنا عارفه كويس ..

الهلوبـــــة : (والحاكم ينزل) اوعى يا شـــعب .. وســـع شويه .. وسع ..

الحـــــاكم : (يتأزم) آه هوه .. المنكود (الى العســـاكر) اعملوا نفســـيكو مش واخدين بالكو منـــه .. سيبوه .. خلينى انشف جلده .. أنا اللى حتفاهم معاه .. (موسيقى ثم يدخل المصرى ، ويسود اللغط ، وتسرى نغمة التوتر والترقب، ثم تتجمع جماعة المطرودين فى مكان واحد) .

الحـــــاكم : أهلا .. أهلا .. أهلا ..

المصـــــرى : (يصمت) .

الحـــــاكم : بقولك أهلا .. مبتردش ليه ؟ ! .

المصـــــرى : أهـــلا بيك .

الحـــــاكم : ايه الغيبـــه الطويلة دى .. بقالك مدة أهـــه محدش شافك ؟ ! .

المصـــــرى : يعنى عاوز تشوفنى قوى ؟ ! .

الحـــــاكم : طبعا .. طبعا .. أمال ؟ ! .

المصـــــرى : شافتك العافيه .. آدينى قدامك أهه ..

الحـــــاكم : الله ومالك كده بتتـــكلم وانت مطحلب .. ؟

المصـــــرى : (مبتسما) انى بس اللى مطحلب .. (يشـير حواليه) والناس دول كلهم مش مطحلبين ؟! .

الحـــــاكم : دول مشكلتهم سهلة .. الدور والبقيه عليك انت .. لو لينت راسك كلهم حيلينوا ..

المصـــــرى : اياك على الله .. يسمع منك الكريم ..

الحـــــاكم : وايه المـانع يعنى ..

المصـــــرى : مفيش مانع..بس أخش شهرين تلاته وبعدين انطرد تانى .. وتشردوا الناس معاى ..

الحـــــاكم : لا .. لا يا شيخ .. تنطرد ازاى ؟ ! .. دى كانت غمة وانزاحت ..

المصـــــرى : على الله تكون غمة ..

الحـــــاكم : (يقترب منه فيلاحظ كيس الرمل على صدره فيفزع) .. ابعدوه .. ابعدوه .. امسكوه.. امسكوه بعيد عنى .. بعيد عنى .. ايه اللى معلقه على صدره ده .. (يتقدم العساكر اليه يحوطون المصرى ، فيهدأ الحاكم بعض الشىء) شـوفوا ايه اللى معلقـه فى صـدره ده .. مسدس ؟ وللا سكينه .. وللا ؟ ! .

أحد العساكر : (نازعا الكيس من على صـدره ، ثم يفتحـه ضاحكا) دا كيس فيه رمل ! .

الحـــــاكم : (بدهشة) رمل ! .

المصـــــرى : أيوه رمل .. رمل من بلدنا ..

الحـــــاكم : بقى انا بقول عليك عقلت .. يطلع فيك لسه عرق اللحسه .. لزمته ايه الرمل تحطه فى الكيس .. الرمل ما هو فى كل حته .. حبك يعنى ؟ ! .

المصـــــرى : دا رمل من بلدنا .. رمل من بلدنا عشان منسهاش طول مانى متغرب .. (بحنان وكبرياء) يعنى عاوزين تحكموا على أعيش طول عمرى متغرب ؟ ! .. ربنا ما يحكم على واحد يتغرب .. وحشتنى التوته اللى كنت بقعد تحتيها فى أيام الصيف ، أحط البلغه تحت راسى وأروح فى النوم .. ياما نفسى أشوف اليممتين اللى كانوا معششين فوق الصفصافه .. وحشنى عربكش وام الغيط وابو دراع .. (وكأنه فى حلم) فين أيام ما كنت بلعب الطاقيه فى العب والقال والسيجه والاستغمايه .. (يصمت) أيام راحت كنت فاكرها امبارح ووشى للسما فى عز الليل .. صفارة قطر الساعة خمسه الصبح .. كنت أصحى عليها .. أسحب الجاموسه والبقره قبل الشمس ما تطلع (يصمت) .. خلاص انحرمت من كل الحاجات دى .. وتغربت فى البلاد .. بقيت زى اليتيم اللى مات أبوه وامه .. وماعدش له حد فى الدنيا يحن عليه .. (يستيقظ) لكن لا .. أنا كل الناس أهلى وحبايبى .. روحى متشعلقة فى روحهم .. وقلبى على قلبهم .. وحياتى هيه حياتهم (متطلعا الى الحاكم)

ودا رمل من بلدنا عشان منسهاش ابدا .. منسهاش ابدا ! .

الحاكم : آه .. لأ فلحوص ياله .. بتفهم برضه .. او كان منك عشرة فى الدنيا كانوا خرابوها .. الخلاصه عاوزين نرسى على بر ؟ ! .

المصرى : ربنا يجيب اللى فيه الخير .. اهه انت عارف .. والعارف لا يعرف .. والشكوى لأهل البصيره عيب ..

الحاكم : (الى العساكر) سيبوه .. سيبوه .. أنى بدى أفهم بس انت عامل شوشره ليه ؟ ! .

المصرى : يعنى مش عارف ؟ مانى قلت لك .. الشكوى لأهل البصيره عيب ..

الحاكم : نشطب اسمك من المطرودين .. وادخلك على ضمانتى .. بس دى آخر مرة .. مش عاوز لعب كده ولا كده .. موافق ؟ ! .

المصرى : لو كنت عاوز أخش البلد كنت خشيتها من زمان ..

الحاكم : مش فاهم ؟ أمال نفسك فى ايه ؟ ! .

المصرى : نفسنا تحلوا عنا .. أحسن طولتوا قوى ..

الحاكم : انت حجحش من الأول .. شغب مانيش عاوز شغب .

المصرى : محناش مشاغبين .. لا سارقين ولا ناهبين..

طول عمرنا متأصلين .. لكن دماغنا مغروســه في الطــين .

الحـــــاكم : الله .. الله .. الله .. أنتو حتشتغلولي أناشيد .. اعزنها مدرسه بقى .. باين الكلام الذوق ما منوش فايده معاكو ! .

مجموعةالمطرودين : محناش مشاغبين .. لا سارقين ولا ناهبين.. طول عمرنا متأصلين .. لكن دماغنا مغروسه في الطــين .

(يســود اللغط نتيجــة احتــكاك بعض العساكر بالمطرودين) .

الحـــــاكم : (صـــاعدا الى منصـــته) باس .. باس يا شعب .. أنا حقول كلمتين .. لكن تحطهم في دماغــك كويس أوى .. وانت حر .. دى مش أول بلد بأدبهـــا .. أنا ادبت بلاد كتير قبلها .. كانوا متفرعنين زيكو كده واكتر .. لكن قــدرت أكتم أنفاســهم .. أشكمهم .. اقيـــدهم بالحبـــال .. **ماكنتش أمشى في** حتــه الا لمــا الاقيهم زاحفــين على ايديهــم ورجليهم وبطونهم .. زى السلاحف تمام .. (يصــمت) ســاعات كانــوا يصعبوا على لمــا اشوفهم عمالين يعيطوا .. اقولهم قوموا على حيلكوا .. مشــوا رجليكو .. ميرضوش .. ميقدروش .. رجليهم اتأكسدت .. خــلاص خــدت على الزحف .. والله بقم يصعبوا على صحيح .. اقولهم قوموا شموا هوا لفوق ..

يقولوا الزحف حلو .. حلو .. لذيذ مفيش أحسن منه ..

الشحـــــات : (متقدما تحت المنصـــة زاحفا) انى مستعد أزحـــف للصـــبح بس طلعـــونى .. والنبى تطلعونى ..

أحد الفلاحين : (يتقدم نحو المنصة زاحفا) وانى راخر .. اذا كنتوا عاوزينى أزحف .. آدينى بزحف اهــه (يزحـــف) .. بس طلعـــونى .. زهقت .. ماعدش فيه حيل ..

(ينضم الشحات الى الفلاح ليؤديا فروض الطاعة للحاكم كما لو كانا يؤديان صــلاة بالأيدى والأرجل) .

الحــــــاكم : (منتشيا وهو يتأمل الراكعين) ارفع البوابه يا عسكرى .. معلشى عشان الغلابا دول ..

احد العساكر : (الى الشحات) فوت يا منكود .. مالك ميت على نفسك كده ؟ ! .

الشحـــــات : (باستعطاف) شحات يا شاويش ..

العســـــكرى : معاك فلوس ؟ ! .

الشحـــــات : لا والله .. يستر عرضك ..

العســـــكرى : قعدت فى البلد قد ايه ؟ ! .

الشحـــــات : دخلت امبارح وطالع النهارده أهه ..

العســـــكرى : (ينظـــر عن قـــرب ليكتشـــف كذبـــه) يابن الرفضى .. ولميت كام أمال ؟ ! .

الشحــــات : ولا صلدى وحياة الحسين ..

العســـكرى : طب ورينى الشوال ده فيه ايه ؟ ! . اوعى يكون فيه ممنوعــات .. رز وللا قمــح (يده حول راسه) وللا حاجه كده وللا كده ؟ ! . (يدلق محتوياته فتنفرط ، قطع من العظم والزجاج المكسور ، وخرق من الخيش القديم ، يضحك) ايه بتلم روبابيكيا زى بتوع مصر (يذهل حين يرى جمجمــة بين المحتويــات ، فيتراجع الى الوراء مذعوراً) يخرب بيتك ! .. راس بنى آدم .. جايبها منين دى ؟ ياما تحت السواهى دواهى صحيــح .. وداير تقــول حســنه لله يا أسيادى .. جايبها منين دى يا مدعوق ؟ ! .

الشحــــات : (بتلعثم) لا .. لا .. لاقيها فى السكه ..

العســـكرى : (بسخرية) يعنى روس الناس كده مترميه فى السكك على قفا من يشيل .. يا كهين الغبرا .. يا تعيس (يحملها أم عينيه) دا باين لســه ميتــه جديد (يضرب عليهــا بأصبعــه كأنــه يفحصها) .. العضمة طريه . غلبانه ، يا ترى كانت راجل وللا ست .. (بصيحة مقــلدا المجاذيب ، ضاحكا) حى .. حى .. سبحان الحى الذى لا يموت ..

الحـــــاكم : (بصيحة) جمجمه .. لقيتو جمجمه (بشوق) هاتوهــا .. هاتوهــا لى .. بحب اتفرج على الجماجم .. نفسى أعيش فى وسطيها من زمان وابعد عن البلد دى .. كان نفسى أعمل معرض

جماجم للرجاله والنسوان والعيال ، لكن ربنا ماطولنيش .. وروني الجمجمه دى (يجرى اليه العسكرى ليقدمها اليه) .

العسكرى : (بمرح) يا ميت ندامه على اللى حب ولاطلشى ياولاد ! .

الحاكم : (يبحلق فيها وهو يتشفى) آه .. باين عليها كانت عصبيه .. العند لابد فى عينيها أهه .. الشرار بيطق منها بعد ما خلصت (يقذفها الى اعلى ، ثم يلتقطها بانبساط) انتو خايفين من جمجمه واحده .. ياما كان مناى الم عشره عشرين تلاتين .. واحطهم على المكتب قدامى .. واقعد أتفنن بقى (بتؤدة) أعمل واحده منهم نجفة كبيرة مزوقه بالأحمر والأخضر والأصفر والبمبى .. وأعمل واحده تانيه طفاية سجاير .. وواحده مقلمه .. وواحده دوايه .. وواحده علبة بمبون مودرن أقدم منها للزوار .. أمال .. أصل الحياة تفنن .. خليها جنبى اسلى بيها .

(يسود جو الذعر والخوف أرجاء المسرح ، يذهب تحت قدميه بعض المنوعين من الخروج ، يدورون حول المنصة صامتين ، وكأنهم يسيرون فى جنازة ، او مصير محتم لا نهاية له) .

احد العساكر : شعب ميخفش الا بعينه .. تسايسهم يركبوك .. تبين لهم العين الحمرا يركعوا ..

(مشـــيرا الى الدائــرين حول المنصـــة) .. اركع .. اركع .. اخشع .. اخشع ..

المـــــوظف : (مقربا الكشف من عينيه) معاى شوية أسامى اهم .. همه عارفين نفسيهم كويس .. يفارقونا من سـكات .. من غير أحم ولا دســـتور .. يرجعوا زى ما جم .. يستحيـل حيخشــوا النهارده .. بتنبحث حالتهم .. النتيجة بعد بكره .. همه وحظهم بقى .. لا دخلوا .. لا مدخلوش .. اللى ما يلاقيش اسمه متعلق يرجع من غير مطرود .. الهلضمة ممنوعة .. وعنـدى أوامر صريحــه .. مفيهــاش نقض ولا ابرام (يصمت ، ثم موجهـا حديثـه الى المصرى) المصرى ممنــوع طـول العمـر .. فاهمين ؟ ! .

المصـــــــرى : كده .. كده .. افصحوا عن نفسيكو بقى ؟ !.

المـــــوظف : انى ماليش دعوة .. دى أوامر وتعليمات . عندك أهه (مشــيرا الى المنصـــة) له الأمر والنهى ..

المصـــــــرى : يعنى انت طرطور يعنى ؟ ! .

المـــــوظف : طرطور طرطور بس ربنا يبعدنا عن ولاد الحرام اللى زيك ..

المصـــــــرى : انى ابن حرام يابن المذلول .. طول عمـرك حتعيش عبد كده ؟ ! .

المـــــوظف : انى عبد يابن .. (مقتربا منه) ..

احد العساكر : (محجزا عليهما) بس يا جدع .. اوعى يا محمد .. بس يا جدع ..

الموظف : يشتمنى ، يقولى يا عبد .. طيب .. والله لا يمكن أسكت له . (يتقدم نحوه) .

المصرى : عبد وستين عبد كمان .

الموظف : اوعى كده .. سيبنى عليه .. يشتمنى واسكت له .. والله لاممكن .. والله لاممكن !.

العسكرى : (بمرح) يا سيدى متزعلش .. انت عبد المأمور .. انت عبد المأمور وللا لأ ؟ !

الموظف : (بتخاذل) أنى عبد المأمور صحيح .. لكن مش عبد .. عبد المأمور صحيح .. لكن مش عبد ..

المصرى : (يتقدم هو والجماعة ناحية بوابة الكوبرى) ياللا يا رجاله .. ياللا بينا .. ضرورى .. نخش النهارده !

الحاكم : (ينزل من منصته مهرولا) خبريه يا مصرى .. انت انهبلت .. عاوز تبوظ لى البلد .. اثبت مطرحك .. متتحركشى .. ولا خطوه .. ولا خطوه .. (يخرج مسدسه من جيبه مهددا) ان اتحركت خطوه حاضرب بالنار .. حاضرب بالنار بقولك .. انت حر ..

المصرى : (معرضا له صدره) اضرب لو كنت راجل .. اضرب ادينى واقف قدامك أهه !

الحاكم : حاضرب بقولك .. متحطش نقرك من نقرى ، انا عصبى وعندى جنان .. ابعد .. ارجع لورا .. ارجع أحسن حتضيع الناس دول كلهم معاك !

(يتراجع المصرى ومجموعة المطرودين قليلا ، فيهدأ الحاكم بعض الشىء) .

المصرى : (بحقد) بقى عاوز تضربنى بالنار ؟ !

الحاكم : أعمل ايه .. مادام عقلك راح من دماغك .

المصرى : اللى عاوز يرجع بلده يبه عقله راح من دماغه؟!

الحاكم : ترجع على العين والراس .. بس مش بالعافيه .. بالذوق .. فيه شروط عشان ترجع ..

لهلوبة : (جاريا اليه بطيبة) اسمع الشروط .. اسمع .. يمكن شروط سهلة !

المصرى : أمرنا لله .. ايه هى الشروط يا ترى ؟ !

الحاكم : مالكشى دعوه بحد .. ولا حد له دعوه بيك ..

المصرى : طب مانى ماليش دعوه بحد .. ولا حد له دعوه بى .

الحاكم : لأ .. يعنى ما تقعدشى مع حد .. ولاحد يقعد معاك .

المصرى : خالص يعنى خالص ؟ !

الحاكم : آه خالص يعنى خالص ! .

المصـــــرى : امال أدخل البلد أعمل ايه بقى ؟ !

الحـــــاكم : يا اخى تخليك فى حالك .. من الغيط للبيت .. ومن البيت للغيط ..

المصـــــرى : آه .. بهيم يعنى .. بهيم ..

الحـــــاكم : ماهه كلهم كده .. على دى الحال .. يعنى انت اللى عامل بز فيهم ...

المصـــــرى : لا بز ولا حاجـه .. انى اتأخرت فى الايجـار سنة واحدة ؟

الحـــــاكم : لا .. ابدا ..

المصـــــرى : وللا قصرت فى زراعتى ؟ .

الحـــــاكم : لا .. أبدا .. لا سمح الله ..

المصـــــرى : امال طاردنى كل سنه والتانيه ليه ؟ !

الحـــــاكم : ما هو احنا كل ما نقول ربنا هداك .. ترجع تانى زى فرقـع لوز .. تتنطط وتشـبح فى البلد .. تقوم الفلاحين علينا ..

المصـــــرى : سبحان الله .. امال انتو عاوزين تسـوقونا زى التيران قدامكو طول العمر ونسكت ؟ !

الحـــــاكم : (بحدة) انتو اللى وش نكد .. غلبنـا ننضف فيـكو مفيش فايـدة .. بنينـا لكم دبليوسى رفضتوا تتبولوا فيها .. سـديتوها بالدبش والرمـل وقعدتو تكتبوا اساميكو عليهـا .. وبعدين ردمتوها .. كان نفسنا نعلم أولادكم

كشافــة بقيتو تهربوهم .. علقنــا لكم راديو على الشجرة عشان تسمعوا المغنى والحاجات الحــلوه .. كسرتوه .. انشأنا جمعيــة البر والاحسان ودفن الموتى .. رفضتوا تاخــدوا مليم منهــا .. وزعنا عليكم جزم وملابس فى العيد رمتوها فى الترعة..حطينا لكو صندوق بوسطه صبحنا الصبح لقينا فيه فردة بلغــة قديمة .. خلاص ! . احنا غلبنــا فيكو .. وآخرة المتمه جاى تخش البلد بالعافية ..

المصـــــــرى : (بكبرياء) يعنى عاوزين تحكموا علينا نعيش متغربين طول العمر ؟ !

الحـــــــاكم : انتو اللى بتحكموا على نفسيكو بالغربــة .. لينو روسكم (مشيرا الى البوابة) والبوابة اهه مفتوحة على الآخر .. فى دقيقــة واحدة تكونوا جوه البلد .. (بتحــذير) بس ناخد عليكون التعهد ! .. حسيبكم شــويه عيــال ما تفكروا .. هه (يعود الى منصته) .

المطرود الأول : الفرج يا صاحب الفرج ..

المطرود الثانى : هيه .. دنيا وأخرتها الموت ..

المطرود الثالث : (يخــرج من الصف مسرعــا) ايه هوه ده .. انتو ناويين تحنطونا فى الوقفــه دى .. بقالنــا ســاعتين واقفين كده .. ايه هو ده ؟ ! ايه هو ده ؟ !

(يضحك بحركات ظريفة مهرجا) .

الحـــــاكم : أوعوا يفلت منكو .. كل المطرودين الا هوه .. حجزوا عليه تمام .. (وكأنه غائب عن الوعى) محدش دوخنى فى كل البـلاد اللى حكمتهـا غيره .. كلهم مسيرهم يركعوا تحت رجليه .. يبوسوا ايديه .. أضربهم يقولوا حـاضر .. أقولهم اقعـدوا على قرافصـكو يقعـدوا .. امشوا .. يمشوا اجروا .. يجروا .. حطوا عينيكو فى الأرض يوطوا زى الخرفان المذلولة .. ناموا على جنبكو يناموا .. طاعـة تمـام زى القرود المتعلمـة .. كل قرد عارف اللعبـــة بتاعته ..

احد العساكر : حذا يا شعب .. حذا .. كله يحـاذى على ايدى اليمين هنا .. (ثم الى المصرى) ما تدخل تاكل اللحمة .. أحسن لك ؟ ! (بظرف) بكره فيه دبح عجول .. الأمير جاى بكره .. حندبح تلات عجول .. ادخل كل اللحمـة وشـوف عيالك ومراتك ..

الهلوبـــــة : ادخل يا مصرى .. كل اللحمة ..

الحـــــاكم : (وكأنه لايزال غائبـا عن الوعى) متتعبوش نفسكو معاه .. مفيش فايده منه .. أنا عارف صنفـه كويس .. عـاوز يمشى الكون على مزاجه .. لازم يندق عشان مخه يتفتت .. نقدر نمشيه بعد كده ! على العموم أنا خلصت ذمتى من الله .. وكل حى ذنبه على جنبه .. أنا حامسك الكرباج فى ايدى اليمين ، واللقمة

فى ايدى الشـــمال ، والجـــدع اللى يستحمل الشـــوط كله .. فى الأول حاجوعهم كلهم .. لغاية ما يقولوا جاى .. وبعدين حارمى لقمة واحدة بس (مقـــلدا من يرمى لقمـــة) كلهم حيجروا عليها .. الباقيين حيعملوا زيطه .. طبعا حيهتفوا .. عاش .. عاش .. عاش .. عاوزين لقمة .. عاوزين لقمـــة .. عاوزين لقمة (يصمت) هيه . استنى شـــويه لمـــا ربقهم يجرى .. أقول واحد اتنين تلاته .. وهب ارمى لقمة تانيه .. واللى حصل فى المرة الأولانيه يحصـــل فى المرة التانيـــه .. والمرة التالتـــه .. والرابعـــــه الى مشـــاء الله .. بالطريقة دى أفضل ماسك نفسهم فى ايدى .. (يضحك بهستيرية وكأنه يستيقظ) أمال هيه الحكايـــة لعبه .. أن كنتو نايمين فوقوا .. (يمســـك الجمجمة بين يديه يقبلها مناجيـــا اياها) جمجمتى .. حبيبتى .. اعمل بيك ايه ؟ ! .. يا سلام .. نفسى أزرع فيك شجرة قرنفل او فل أشـــمه كل يوم الصـــبح .. وللا بلاش .. أقولك .. حاحطك فوق البيانو عشان لمـــا آجى اضرب مزيـــكا .. اســـتلهم منـــك .. بـــلاش .. انت زعـــلانه .. طب متزعليش يا حبيبتى .. حزوقك بالكريستال الأصلى واشرب فيك الوســـكى .. (يضحك بجنون) زى القرون الوســـطى .. تمـــام زى القرون الوسطى .

احد العساكر : (باستخفاف وهو يقف أمام طابور المطرودين) حذا يا شعب..حذا هنا على ايدى اليمين.. متحاولش تدخل المصرى النهـارده .. الأمير جاى بكره ومعاه الكبرات .. البلد مرشوشة ظبط الظبط .. الكشافة مترصصه فى السكك على الجنبين .. والســجن مدهـون بالأبيض والأحمر والأخضر .. والناس مزقططين .. مستنيين اللحمة .. (يصمت وهو يتطلع الى المصرى) حياكلوا اللحمة .. وان مرضيوش ياكلوا ، حينضربوا بالكربــاج .. أمــال .. يا اما اللحمة .. يا اما الكرباج !

المصـــــرى : لا اللحمــه ولا الكرباج .. يتهيألكو .. بلدنا لا يمكن تموت زى ما انتو فاكرين كده ؟ ! . (وكأنه غائب عن الوعى أيضا) مرات كتيره قلت خلاص ماتت .. طلع منها السر الالهى.. اتشاهد عليها .. أسبل لها عنيها .. وأحط لها الميه من الفنجان .. ندعه .. ندعه .. أبص الاقيها تقولى : انت هنا .. مش عيب لمــا تســيبونى وتدوروا تصرمحوا من هنــا لهنا .. اقولها أنى جنبك أهه يامه .. جنبك أهه .. تملس عليه بكفها وتطلب منى بوسه : هات بوسه يا حبيبى تعا فى حضنى يابنى .. واحشنى قوى .. وتفضل تبوس فيه وهى بتعيط .. دموعها نازلة على خدها .. أقرب ودنى من قلبهــا أحس بالنبض ضـعيف .. ضعيف .. تفضــل تنازع .. تنازع .. وانى

احطلها الميه .. وابوس فيهـا .. واعيط ..
ابص الاقيهـا سكتت .. بطلت عيـاط ..
تقولى .. متخـافش عليه .. طول ما فيكو
الروح انى لاَ يمكن اموت .. اقولها : احنـا
معاك يا أمه .. معاك طول العمر .. تاخذنى
فى حضنها أكتر وأكتر ، أقرب ودنى من قلبها
تانى ، أسمع صـوته عمال يعلا شويه بشويه
زى ما يكون ماكنه مشحطه ، كل ما حطيت لها
بنزين كل ما صوتها يعلا .. يعلا .. يعلا ..
لغايـة ما يبه زى ضربة الفاس العفيـه فى
الأرض .. دب .. دب .. دب .. دب ..

مجموعةالمطرودين : (يقلدون من يزرع) دب .. دب .. دب ..

الحـــاكم : قلت بلاش أناشـيد يا غجر .. احنا مش فى مدرسة هنا !

أحد الفلاحين : (المنوعين من الخروج يخرج من الصف ليدور حول نفسـه بتشنج وعصـبية وهو يهتز)
دوخينى يا لمونة .. نفسى أشوف أبويا ..
دوخينى يا لمونة .. نفسى أشوف أبويا ..
(يكررها عدة مرات ، ثم يضحك بصفاقة) .

العســكرى : ادخـل مطرحك يا جحش احنـا حنقرد .. حنفضـل نكبس فيـكو زى كيـاس القطن لو قتيه .. عيب يا أمه .. يا شعب .. (يشير باصبعه الى فوق ، ثم ينادى على الشحات)
راسك فوق انت وهوه .. راسك فوق ...

الشحـــات : وحياة أبوك يا شاويش ..

العسكرى : ياللا يا حيوان ..

الفلاح : الهى يستر عرضك يا شيخ ..

العسكرى : (بحدة الى الشحات والفلاح) ياللا .. راسك فوق انت وهوه .. حاقول راسك فوق يعنى راسك فوق .. تحت يعنى تحت .. يمين يعنى يمين .. فاهمين ؟ ! (يضحك ليسرى عن نفسه ، ثم بكفيه)هه .. فوق .. تحت .. يمين .. شمال .. واحد .. اتنين .. واحد .. اتنين .. قف .. جماعة .. استعد .. الى الأمام .. سر .. واحد اتنين .. واحد .. اتنين (يظلان يدوران من تلقاء نفسيهما حول المنصة بعد أن يسكت هو ، ناظرا اليهما ، ثم يتساقطان حول المنصة من التعب كالفراشتين ، ممثلين حركة الكائن الحى فى انتفاضة الحياة فى جسده ، ثم تعبه وشقاءه ، ثم خموده الهادىء) .

لهلوبة : (يجرى الى الشحات) ايه يا منحوس .. وقعت ليه .. قوم خلينا نشوفلك صرفه .. أمال عامل ديك ليه ؟ !

الحاكم : (وهو شبه غائب عن الوعى) فكرتونا بالقرون الوسطى .. وليالى الشرب العظيمة .. والانطلاق الرائع .. مفيش أحسن من الانطلاق .. لكن ماقدرش أنطلق الا لما أقيدكو الأول .. أجهز سلاسل طويلة .. طويلة .. طويلة .. زى ما هنا لمصر .. أقيدكو واحد

ورا واحد .. رقبـــة فى رقبـــة .. ودراع فى دراع .. ورجل فى رجل .. (بحدة) لازم تبقوا كتلة واحدة متقيدة .. ودى الطريقة الوحيدة اللى تخلينى انطلق (بانزعاج وكأنه يفيق من حلمــه ، نازلا من على المنصــة فى مواجهــة المصرى) هه .. وصــلتوا لحــل وللا لسه ؟ !

المصــــــرى : ما انتو عارفين الحل من زمان .. اللى نزيده نعيــده ..

الحـــــاكم : الحل فى ايديكو انتو ..

المصــــــرى : لأ فى ايديكو انتو ..

الحـــــاكم : (بحدة) عاوزين ايه يعنى .. أنا وراى ترتيبات عشان زيارة الأمير والباشوات .. مش فاضى للعك ده ؟ ! .

المصــــــرى : أول حاجه تفكوا الحصار ..

الحـــــاكم : حصار ايه ؟ ! . دا لا حصـــار ولا حاجه .. بلدكو هى اللى كده .. متحوطه بالجبل من فوق .. والترعه من تحت .. حنشارك ربنا فى حكمه بقى .. هيه اللى مخلوقة كده ..

المصــــــرى : افرض ربنا خلقها كده .. لكن ربنا قال محدش يطلع منها أو يخشها ؟ ! .

الحـــــاكم : لأ .. دا عشان النظـــام بقى .. بدل كل من هب ودب يخش أو يطلع ..

المصـــــرى : عشان المحاصيل ما تطلعش بره ؟ ! هه ..

الحـــاكم : وماله .. فيها ايه ؟ ! .

المصـــــرى : واحنا نموت من الجوع .. تاخدوا الايجـار والمحاصيل كمان ؟ ! .

الحـــاكم : ما انت مسدد الايجار .. زعلان ليه ؟ ! .

المصـــــرى : انى مسدد .. وخمسه سته مسددين .. طب والبـاقى ؟ ! .

الحـــاكم : يا اخى يتكفلوا بروحهم .. كل واحد ذنبه على جنبه .. انت وصى على العباد ؟ ! .

المصـــــرى : احنـا طايلين نكون أوصـيا على نفسينا .. ما انتو دارزين البلد عساكر زى النمل ..

الحـــاكم : العساكر عشان الأمن .. يحافظوا على الأرواح.

المصـــــرى : دول بيخنقوا ارواحنـا .. عمرهم ما حافظوا عليها .. غرضهم يسحبوا منا الروح النهارده قبل بكره .. عشان نفضـل غنم .. يسوقونا قدامهم فى اى حته عاوزينها ..

الحـــاكم : غايته .. انت جاى تخرط على قلبى بصل؟!.. والله اللى مش عاجبه يورينا عرض كتافه ..

المصـــــرى : هيه الحكاية لعبة .. فاكرينها لعبة .. أهـل البلد ينطردوا والغرب يترستأوا فيها ! .

الحـــاكم : والله ان كان عليه مانا عاوز أشـوف وشـكم العكر ده .. بس أهه .. ايام بنقضيها لغاية

ما ربنا يفرجها .. (يتفرس فيه اكثر) هي دي
اول بلد أحكمها ، أنا اتلطمت كتير ، قعدت
خمسين سنة أحكم في بلاد ، مرة أشرق ،
ومرة أغرب ، والآخر ربنا حدفني عليكو ..
بلاد فقرى صحيح..ما مرش عليها الذوق..
(يصمت) متخليش لساني يزلف .. خلي
النهارده يفوت على خير .. أحسن حل انك
تتوكل على الله .. تغطس شهرين تلاته
وبعدين تيجي .. يمكن يكون ربنا تاب عليه
من وشوشكم .. تبه تناقر في اللي جاي بعدي
زي ما انت عاوز ..

المصرى : اللي بعدك .. اللي قبلك .. كلكو زي
بعضيكو .. ياما فات علينا حكام .. كل
واحد يعمل تعبان لغاية ما ياخد غرضه
منا .. وبعدين يتملك .. يلف الحبل على
رقبينا .. ويفضل يشد .. يشد .. يشد..
لغاية ما نخاف .. نرجع نتحايل عليه ..
لكن المرادى..حنحاسب على رقبينا كويس..
مفيش حبل حيقرب منها (يتحسس رقبته
ثم موجها حديثه الى المطرودين) كل واحد
يحاسب على رقبته يا رجاله .. أوعوا الحبل
يقرب نواحيها ..

الحاكم : حترجع تندم يا مصرى .. بلاش عند ! .

المصرى : حنندم على آخر العمر ..

الحاكم : مشفتش أبو دراع ؟ !

المصـــــــرى : ابو دراع معذور عشان دراعه .. تعب كتير.. لكن يمكن ترد فيه الروح .

الحـــــاكم : ابو دراع خلاص معدش فيه روح .. عمـال يهلوس حوالين البلد .. ملوش شـغلانه غير حواديت زمان .

المصـــــــرى : يتهيالكو .. بكره ترد فيه الروح ويبه بمب ..

الحـــــاكم : (مشيرا الى كيس الرمل على صدره) ماتخش تتمرمغ فى تراب البـلد زى مانت عـاوز بدل ماتشيل مخلا كده على كتفك زى المجـاذيب .

الشحـــــات : (مقتربا منهمـا) حسـنة لله يا سـيادى .. مسافر ومعيش حق السـفر يا سـيادى .. كنت صاحب شادر خشب وانحرق يا سيادى .. نضرى كليل يا سـيادى (أمام الحـاكم) ياللى تساعد العـاجز يتخلف عليك بالحـلال يا سيدى (يعرج) .

لهلوبـــــة : (يجـرى اليـه) ايـه ده يا مغفـل .. انت انهبلت .. ابعـد .. ابعـد يا منحـوس .. ما تنطقشى ولا كلمة ..

الحـــــاكم : يعنى أرمى طوبتك يا مصرى بقى ؟ ! .

المصـــــــرى : مترميش طوبتى انى لوحدى .. ارمى طوبتنا كلنـا ..

الحـــــاكم : اللى معـاك حيتعبوا بس .. دول غـلابا .. ميستحملوش ..

مجموعةالمطرودين : لأ نستحمل .. لأ نستحمل ..

الحـــــاكم : وان حلقنالكو روسكم ..

المجموعـــــة : لأ نستحمل .. لأ نستحمل ..

الحـــــاكم : (بسخرية) لا .. دانتو جدعان خالص..طب أما نشوف الهمة بقى .. (بحدة) عساكر .. نظموهم يا عساكر ..

(يلتئم حولهم العساكر بسرعة مهددين).

احد العساكر : كلمة واحدة مش عاوزين .. كله حذا .. حذا هنـا على ايدى اليمين .. (بقيـة العسـاكر تشـترك فى تنظيمهم) أصـلب حيـلك انت وهو .. اصلب .. كل واحد يبص فى كتفه اللى قدامه .. حقول محلك سر .. كله معاى على نغمـه واحده .. واحـد .. اتنين .. واحد .. اتنين .. جماعـة .. اسـتعد .. محلا ـ ك..لأ..مينفعش .. كله يحاذى على الأول هنا .. على يمينى .. هه .. جماعه.. محـلا ـ ك .. سر .. (بكفيـه) واحد .. اتنين .. واحد .. اتنين .. هه .. كويس .. عال .. كويس .. عال .. هه .. واحد .. اتنين .. واحد .. اتنين ..

المصـــــرى : (باحتدام غاضب وبعد فترة مشيرا بيديـه) باس .. بس يارجاله .. يعنى تضحكوا الناس علينا .. عيب يا خلق .. خلاص يعنى معدش فينا رمق .. البلد هانت فى عينيكو كده ؟ !

يا خسارة ياولاد .. معدش فينا حيل نتحرك لقدام .. يخلونا نعمل محلك سر عشان يذلونا .. لكن لا ممكن مادام فينا روح .. حتزعل منكو .. كانت بطالع فى الروح .. خدتنى فى حضنها .. قالت لى مادام انتو فيكو الروح انى فيه الروح .. سمعت قلبها بيدق عالى .. عالى .. عالى .. دب .. دب .. البوابه اهه .. قدامنا مقفوله فى وشنا صحيح . لكن مسيرنا نفتحها بايدينا.. (بضعف) بس انى مشوق لبلدى دلوقتى .. مشوق لأرضي وبقرتي وولادى .. مشوق لأبو دراع وعربكش وام الغيط .. مشوق للبنات والصبيان والرجاله .. مشوق للزرع والشجر والنخل .. مشوق للمصاطب والفيطان والأفراح والمياتم .. (بصوت أقوى، به الحنان والكبرياء) مشوق لبلدى يا عالم .. مشوق لبلدى .

ستار

الفصــل الثــانى

المنظر الأول :

نفس المنظر الأول مع نفس الشخصيات فيما عدا الفلاح العجوز الذى مات ، ومحمد المصرى الذى يدخل البلدة عن طريق الترعة متخفيا . الوقت صباحا ثانى يوم محاولة الدخول عن طريق الكوبرى .

ابـو دراع : (متحسرا) يا حـول الله يا رب .. الراجـل يموت فى وسطينا فى غمضة عين .. انا لله وانا اليه راجعون ..

عـريكش : دنيا يابو دراع .. عماله تدهس برجليها اللى فات .. عاوزه تحصل اللى جاى .. كان عجوز مسـكين ..

ابـو دراع : الدور علينا .. دا وهوه قاعد قدامى بيشرب الشـاى ، بصيت لقيت الكوبايـه وقعت من ايده .. سندته على كتفى .. قلت له : مالك يابـوى ؟ ! ، قال لى : جنبى يابـو دراع ..

خلاص .. السلام عليكو .. أنى مش فاضى..
تعبت .. وعنها ومانطقش بعد كده .. أحرك
فى جسـده ميتحركشى .. احط ودنى على
قلبه ، مفيش دق .. (يتنهد بحسرة) هيه..
ربنا يرحمه ..

عــربكش : النـاس بتموت وهيـه واقفـه اليومين دول
يابو دراع .. محدش نفسه يموت وهو نايم
أبدا .. الدنيا لاهيه كل واحد .. مسمعتش
حكاية العريان الحلاق .. قال لمراته طقشيلى
بيضه عبال ما روح لغاية بره آجى حالا ..
طلع يسن المقصات .. سير الماكنه لهفه من ديل
جلابيته .. قعد يلف من فوق لتحت .. راسه
تنخبط من العـرش للأرض .. ومن الأرض
للعرش .. ومن العـرش للأرض .. لغايـة
ما مخه ادشـدش .. البيضـه كانت لسـه
سخنـه .. مبردتش لمـا مرته راحت لقتـه
متغطى بعفش الرز .. والدم سـايل فى كل
حته .. هيه .. دنيا .

ابـو دراع : البنى آدم ما بيخدش أكتر من عمره دقيـقـة
واحده .. صحيح لكل أجل كتاب صحيح .

عــربكش : غايته ربنا يطمنا على المصرى .

ابـو دراع : كان على الكوبرى امبارح .. مفيش فايدة ..
انى مش قايلك ؟ ! ضرورى يطـاطى عشـان
يعرف يفوت .. الحـاكم شتمـه وهزاه آخر

تهزىء .. كان حيضربه بالنار .. مانى قايلها ؟ ! .

عـريكش : الميه متطلعشى العالى برضه ! .

ابـو دراع : أمال يا عريكش .. دول مسلحين يابنى واحنا غلابا .. الشماريخ متنفعش .. معاهم ميزر وعساكر ودليل يدلهم على الأثر .. انما احنا محصورين فى جبل.. عايشين فى جبال.. لو زنقونا حيخنقونا ..

عـريكش : ما هم زنقينا زنقينا .. لسه حيزنقونا أكتر من كده ؟ ! .

ابـو دراع : يقدروا يا عريكش .. يقدروا يمنعوا عنا الميه والهوا والعيش كمان . .انا عارفهم طيب .. مقروص منهم بدل المرة الف .. هو انى انسى الجلد طول عمرى . (يشير الى حليقى الرؤوس الذين يدورون نصف دورة فى مقدمة المسرح) أهم .. ترضى تنزل كده .. دول تقدر تسحبهم مطرح مانت عاوز .. تقول لهم .. ارموا نفسكو فى البحر يرموا .. شدوا المحرات يشدوا .. جروا النورج يجروا .. تعلقهم فى الساقيه يتعلقوا .. رجليهم طريت بقت زى الملبن (يضحك) انت عاوز تتمد مرة واحدة بس .. وبعدين تجرى مشوار طويل بعد الضرب على كعوب رجليك عشان تحس (يقترب منه وهو يخبطه على كتفه) لسه

بدرى عليك يا عربكش .. انت لسه ورور ..
فين عيال ما تبقى دكر معتق تفهم الدنيا ! ..

ام الفيـــط : (زاحفة) جاى .. والنبى جاى يا نضرى .. راكب جمل عالى .. عالى .. وهو فى الشبريه زى العروســه .. شايفــاه ، لابس أخضر فى أخضر .. وشــه منور زى الملايكه .. وكعوبه متحنيه ..

عـــربكش : من بقك لباب السما يام الفيط ..

ام الفيـــط : جاى .. (زاحفة الى مقدمة المسرح) جــاى يا خوى جاى ..

(فجـاة يدخل المسرح محمـد المصرى وجلبابه مبلول ، ينهج كانه كان فى رحـلة طويلة بعيدة ، يجلس لياخـذ أنفاســه اللاهثـة ، يتحوطه الجميع مندهشـين مذهولين ، ثم تطلق ام الفيط الزغاريد بعضها وراء البعض الآخر ، كما تســمع أصوات زغاريد اخرى من الخارج) .

عـــربكش : يا خرابى ياولاد .. والنبى الوليــه أم الغيط دى مبروكة .. مبروكه والنبى !

ابــو دراع : جيت ازاى يا محمد ؟ ! .

المصـــــرى : (ناظرا اليه بعتاب) يا اخى سيبنى أما القط نفسى بس .

عــــربكش : (مقتربا من المصرى وهو يخلع جلبابه الجـاف ليلبســه له ، ويبقى هو بالقميص واللبـــاس الطويل) ياه دانت جلابيتك مبلوله قــوى .. قوم .. قوم البس الجلابيه الناشفه دى .. انت عديت الترعه بهدومك ؟ ! .

المصـــــرى : (لاهثا) ايوه .. جيت عن طريق الحلوه (١) فى الفجـر .

عــــربكش : وحد شافك فى السكة ؟ ! .

المصـــــرى : ولا نسمة ..

ام الغيـــط : (تحاول النهوض على قدمها ، فلا تستطيع) مش قلتلكو .. شايفاه .. والنبى شايفاه .. والنبى شايفاه (مقتربة من الحلقة) فى حضنى يابنى فى حضنى ـ (تأخـذه فى حضنهـا ، تقبله بشوق ولهفة) الحمد لله على الســلامة يابنى .. الحمد لله على السلامة ..

عــــربكش : (مقتربا منها) هس..وطى حسك يا أم الغيط احسن لو حد عرف انه هنا حيقتلوه !

ام الغيـــط : يقتلوه .. بعد الشر ياخوى .. بعد الشر .. الهى ايديهم تنشل .

عــــربكش : طب بس .. بس .. بس ..

---

(١) اسم للترعة .. اذ يطلق بعض البـلاد الواقعـة على ضفـة ترعـة الاسماعيلية هذا الاسم عليها .

ابـو دراع : هوه انت صغير يا محمد .. لسه حتجرى على الدنيـا من هنـا ورايح (يصمت) خـلاص يا محمد .. ياللا حسن الختـام .. يادوب الواحد يلقط الركعتين بالعافيه .. دحنـا من عضم ولحم ..

المصـــــرى : (بيأس) اغيب اغيب وارجع الاقيك زى مانت يابو دراع ؟ ! واقف مطرحك برضه .. محلك سر .. الدنيـا بتشفى بره .. كل النـاس ماشـيين .. بيتحركوا .. (ينهض مواجهـا ابـو دراع) منقـدرش نسـكت بعد كـده يابو دراع . دا مجهزين كل حاجه .. الحبال موجودة .. والسجن مفتوح .. والقرافه مش بعيد .. واشتروا نعش جـديد وزوقوه .. وحطوا عليه الورد والفل والياسمين ، معلقينه على حتـه عاليـة على راس البلد .. عنـد الكوبرى .. نفسـهم يفرحوا بيه .. يشيلوا فيه عرسان بلدنا..نسيبهم يفرحوا يابو دراع؟! الحـاكم جاى يأدب البلد ويمشى .. يضرب فى نفوخهـا .. نفســه يدوس عليهـا لغاية ما تطلع روحهـا .. دا صنف تانى غير اللى قبله .. فاكر اللى فات .. عمرك شفته كشر فى وش حد .. كان يقـابل العيل والسـت والراجل يضحك فى وشه .. يزور العيانين.. ويعزى فى الميتين .. ويروح كل الأفراح .. ويعيد على كل البيوت .. (يصمت) مرة فات على واحد فلاح بياكل فجل ومش .. قاله :

بتاكل ايه يا راجل .. قاله .. باكل فجل ..
اتفضل .. قعد كل معاه .. (بسخرية) نفسه
كانت حلوة .. لكن بعد ما يرجع يغسل ايده
بالسبرتو .. عمره ما مسك فلوس فى ايده ..
(بوعى) عامل نمرة علينا يابو دراع ..
ما يزعلشى حد عشان ياخد منه اللى هوه
عاوزه .. لما كان يسجن حد وللا يلم بهايمه،
نروح نترجاه .. يتمسكن .. وشه يحمر زى
البنت الصغيره .. ويزعل .. يقولنا ..
عاوزين تكسفونى قدام الأمير .. (عيناه فى
عينى أبو دراع ، وبعد صمت) بيجربوا فينا
يابو دراع .. مرة بالطرد .. ومرة بالكرباج..
ومرة بالضحكة الحلوة والمحايله .. ومرة
باللقمة .. ومرة باللحمة .

ابو دراع : (باستسلام) يجربوا يا سيدى .. حد واخد
معاه حاجه .. اهى حته قطنه فى الآخر ..
والأمير زى الفقير .. (بشفتيه) طظ ..
حنبكى على ايه ؟ ! دى بلد ما يتمرش فيها
المعروف .. الواحد يعمل المعروف فى الكلب
ولا يعملوش فيها .. مين اللى حارب خمس
سنين عشان ترفع راسها .. مين اللى انقطع
دراعه عشان دراعاتها تفضل سليمة .. مين
اللى قعد فى الوحله ، وتحمل النطره والبرد..
وانحرم من الشمس عشان تدفا وتنام
مرتاحه ؟! اللى عدى بحور ، وطلع جبال ،
وزحف على الأرض ببطنه لغاية ما ضوافره

اتقلعت .. (يصمت وهو يكتم دموعه) أني حطيت صوابعي في الشق منها يا محمد .. ماعدش في حيل .. تعبت .. تعبت ، عـاوز اسـتريح بقى (يقترب منه بحنـان) نفسي أستريح أني وانت يا محمد ! .

المصـــــرى : مش حقدر أستريح الا لمـا كل الناس تستريح يابو دراع .

ابـو دراع : لسه بدرى عبـال كل الناس ما تستريح .. فاضل زمن طويل .. طويل .. امبارح حلقوا للجدعان .. والنهارده حيحلقوا للرجاله ..

المصـــــرى : يعني نستنى لمـا نضـيع .. نغمض عينينـا عشان مانشفش حاجه أبدا .. اني جاى البلد وعارف انى ممكن أندفن بالحيا .. بس أملى في النـاس الأصـلا اللى زيـك .. في رفاقه زمـان ..

ابـو دراع : (بأسى) النـاس كلهـا بقت زى بعضيهـا يا مصرى .. كل واحـد بيقـول ياللا نفسى النهـارده .. عاوز ينفد بجلده قبـل المركب ما تغرق .. زى ما بيقولوا .. أنى وبعـدى الطوفان ! .. والأصالة ماتت يا مصرى وانت مش حاسس .. الراجل العجوز مات امبارح وهو بيشرب الشاى .. النـاس كلهم كانوا قدامى بيمصمصوا شفايفهم .. كانوا بيصعبوا عليه ، اللى يقولك: يا حسرة محدش عـارف له أهـل ، واللى يقولك : يا سبحـان الله : دا كان بركه والنبى .. المهم قمنا .. ندور له

على كفن .. ملقناش حد قدامنا .. اتسرسبوا
واحد ورا واحد .. الحكاية دخلت فى الجد..
كل واحد لازم يعمل حاجه .. مش يمصمص
شفايفه ويتحسر .. (يصمت) تصدق بالله..
قول لا اله الا الله .. قول بس ..

المصـــــرى : لا اله الا الله ..

ابــو دراع : الراجل لغايــة دلوقتى متغطى بعفش الرز فى
الحته اللى مات فيهــا .. لســه ما ندفنشى
(يصمت) قال اصــاله قال .. (ثم بنغمــة
مرتفعة) الأصالة ضاعت من زمان يا محمد..
اتمرمغت فى التراب .. الكرباج خلص عليها..
خوف الناس من سيرتها ..

(يلف حليقــو الرؤوس نصــف لفــة فى المسرح ، ويدخل الشحات فاردا يديه).

الشحـــــات : حسنه لله يا أسيادى..حسنه لله يا أسيادى.
غريب ومنضــام يا أســيادى .. رجعونى من
الســكه .. وخدوا منى عضمى وقزازى ..
ياللى تحن على العاجز يا رب ؟ ! (يعرج) .

المصـــــرى : (مقتربا منه وهــو يضحــك) انت رجعــت
تانى ؟ ! .

الشحـــــات : (مبحلقا فيه) المصرى ! .. يا خبر اسود ..
رحنا فى داهيه .. انت جيت منين ؟ ! .

المصـــــرى : (ضاحكا) من تحت الأرض .. جن وطلع من
تحت الأرض .. مش حتبطل شحاتــه بقى

يا ديوس .. كانز قد ايه على كده ؟ ! طلعهم أحسن الحكومة حتاخدهم بعد ما تموت .. حاطط القدره فين يا ترس ؟ ! .

الشحـــات : (محاولا العرج والمسكنة) .. ع الحديده والنبى .. طالب من الله ولا يكتر على الله رغيفين عيش طرى ، ومترد لبن حليب ، وخمسه صاغ ، وواحد يلمهم لى ..

عـــربكش : وواحد يلمهم لك كمان ؟ ! (يضحك) .

ابـو دراع : سيبوا الراجل بقى .. بلاش نقوره على عباد الله .. كفايه مش عارف يطلع من البلد .. انحزق حزقه مكن .. زى الفار اللى دخل المصيدة ..

ام الغيـــط : (زاحفة الى المصرى) بالحضن يا خوى بالحضن .. واحشنى .. قايلاها والنبى .. والنبى قايلاها .. راكب جمل عالى .. وقاعد فى الشبريه .. وداخل البلد زى العروسة .

عـــربكش : يا أم الغيط أنى بقول عليكى مبروكه .. متخرفيش فى الكلام بقى ..

ام الغيـــط : (بغيظ) أظن حتقول أوريهم الطربوش ..

عـــربكش : لا طربوش ولا حاجه ..

أم الغيـــط : (بغيظ) ايه يعني يا خوى هيه مزلة ولا مزله .. (تزيح طرحتها من على رأسها ، فيظهر الطربوش المجعد على راسها الحليق) اهه يا خوى الطربوش اهه .. ماله ؟ ! ..

بيدفينى فى الشتا .. ويحوش عنى الحر فى الصيف (تنفضه بيديها) ماله الطربوش يا خوى ؟ ! هيه مزلة يعنى وللا مزلة ؟ ! .

ابو دراع : غطى راسك يام الغيط بلاش مسخره .. حد قالك عريها قصادنا ..

ام الغيط : اعريها يا خوى .. أعريها بنفسى احسن مأ حد تانى يعريها .. فاكرين انى حخاف .. وللا حخاف يعنى ! .. قال طربوش قال (تضعه على راسها وهى تزوم بمرارة) .

ابو دراع : وانت زعلانه ليه يام الغيط .. أكمنك قرعه يعنى ؟ ! متزعليش ، دا كل واحد معطوب فى حاجه .. اللى عنده لطف .. واللى بطنه بتوجعه عمال يقول جاى .. واللى صدره بيزيق .. واللى عنده روماتزم فى المفاصل . كله .. كله .. الانسان ميخلوش من المرض.. (يلتفت الى المصرى) قلت ايه يا محمد .. لسه برضه مصلب راسك .. اعقل يابن الحلال خلينا نعيش اليومين اللى فاضلين لنا على ضهر الدنيا وخلاص ! .

المصرى : وانت عايش يابو دراع ؟ ! مش طول النهار بتلف حوالين البلد .. مرة تقعد تحت التوتة تلعب السيجه .. ومرة تركن على المصطبه ، تلم حواليك العواطليه عشان تفتى لهم عن أيام زمان .. (صمت) أيام زمان راحت يابو دراع ..احنا فى دلوقتى .. فى الغلب

اللى حاطط علينا (يشير الى حليقى الرؤوس ؛ فى المذلولين دول ! ..

ابـو دراع : وحد قالهم انزلوا..ماهم اللى زالين نفسهم.. كل واحد يقدر يزل نفسه .. ويقدر يعتقها.. وخد منى كلمتين حكمـة .. فيوم لك ويـوم عليك ومحدش مخلد فى الدنيا .. كله زايل.. زايل .. يدوب تلقط الركعتين وخـلاص .. (يقترب منه) انى بحسـبك جـاى ربنـا هاديـك .. اترنـك جـاى فرعون .. عيب يا محمـد ، انى عاوز أستريح انى وانت ؟ ! افهمنى يا محمد ! .

المصـــرى : والناس يابو دراع ؟ ! .

ابـو دراع : يا سيدى .. كل حى يتكفل بروحه .. احنا حنعـدل الكون .. يمـكن ربنا يفرجهـا عن قـريب ..

المصـــرى : ربنا حيفرجها صحيح .. بس احنا ضرورى نعمل حاجه ..

ابـو دراع : حنعمل ايه يا حسره .. قال يا جحـا عـد غنمك .. قال واحده نايمه وواحده قايمه .

المصـــرى : لأ نقدر نعمل حاجات كتيره يابو دراع ..

ابـو دراع : هو لسه فينا نفس عشان نعمل .. لو كنـا عاوزين نعمل كنا عملنا من زمان ..

المصـــرى : مانت عملت يابو دراع ..

ابـو دراع : يا ريت اللى عملته تمر أمال ..

المصـــــــرى : تمر ونص يابو دراع .. محدش ينسى جميلك ابـدا ..

ابـو دراع : دانت اللى بتقول كده يا محمد عشـان تجبر بخاطرى بس..لكن البلد كلها ناكره الجميل.. فاكرانى هفيه .. كل ما حد يفوت عليه يصعب ويمصمص بشفايفه..انى مش هفيه يامحمد.. انى مش هفيه ؟ .

المصـــــــرى : يابـو دراع لا سـمح الله .. انت لسـه عفى والحمد لله .. بس عاوزينك تشد حيلك معانا بقى ..

ابـو دراع : الشدة على الله يا خوى .. خير الله اما اجعله خـير ..

المصـــــــرى : الأول انت فاكر أيام زمان ؟ ! .

ابـو دراع : فاكر يا محمد ..

المصـــــــرى : فاكر أيام حرب الانجليز ؟ ! .

ابـو دراع : (بأسى) ياه .. دا زمن ! .

المصـــــــرى : والزحف على البطن .. ورمى الكنـابل ؟ .

ابـو دراع : والزحف على البطـن ورمى الكنـابل .. انت بتقلب مواجعى ليه .. ماتخلينى فى حالى ؟ ! (يمسك ذراعه المبتورة) آخرتها أهـه .. نيشـان الشرف والبطولة .. مش كـده ؟ ! (تعمق لهجتـه متهدجـا) كان نفسى اعمـل

حاجه لبلدى .. حاجـه كبيرة .. كبيرة ..
وعملت .. صحيح مش كبـيرة قوى .. لكن
ما تمرش فيها .. رمتنى بعد ما بقيت نفايه..
بعد ما بقيت نفايه يا محمد ! .

المصـــــرى : يابو دراع البلد مقدره كل حاجه عملتهـا ..
بس مش عاوزين نقعد ونصف ايدينا ونفضل
نتحسر على أيام زمان .. نلطم وشوشـنا زى
الأرامل كده .. يعنى نسيب المطرودين بره
والعساكر جوه ؟ .

ابـو دراع : والله يا سيدى العساكر ولاد حلال .. يفضلوا
يلفوا طول الليل .. وفى الآخر ييجوا يشربوا
الشاى عندى جنب المتحف .. الدور والبقية
على ولاد الهرمة الفلاحين.. يا راجل دا ساعات
الواحد يبات من غير عشـا بسببهم .. أروح
ادور على بقرش جبنه يمكن ساعتين .. كل
ما خبط على بيت .. ترد عليه المره من دول..
معندنـاش .. ماكـانش ينعـز .. والنبى
الجاموسه ما حلبت النهارده .. وانى عارف
ان كل واحده تحوش الجبنه وتروح تبيعها فى
السوق .. (يصمت) أنى مش بقولك حكاية
الجبنه دى عشان ضد البلد يعنى .. ما انت
عارف كل بيت فيهـا بيتى .. انمـا الواحد
ساعات بيزعل من لؤم ولاد الهرمة دول ..

المصـــــرى : يعنى نقعد ونصف ايدينا يابو دراع..دا خانقين
البلد خنقه سوده ؟ ! .

ابـو دراع : طب ما انت محزوق هنا أهه حزقة الكلب فى الطاحونة .. ان مستخبتش فى حته حيعكموك زى قرموط الروبا .. انى ليه راى يا محمد بس ما تزعلش منى ! .

المصـــــرى : قول .. قول ..

ابـو دراع : لأ حتزعل .. مفيش لازمة ..

المصـــــرى : يا سيدى قول احنا حنجدد على بعض .. ان كان غلط حقولك غلط .. صح حقولك صح !.

ابـو دراع : لا بلاش أحسن تقول عليه جبان انت راخر ..

المصـــــرى : قول يابو دراع مش فاضيلك !

ابـو دراع : انى رايى انك تسلم نفسك ..

المصـــــرى : هو ده رايك يابو دراع ..

ابـو دراع : هو ده رايى يا محمد ..

المصـــــرى : بقى ده راى يا خيخا ..

ابـو دراع : انى مش قلت انك حتزعل ..

المصـــــرى : ازعل وللا مزعلش .. احنا حنهزر (بجدية) اسلم نفسى يابو دراع .. هو انى حرامى داخل اسرق ! دانى أقعـد وأحط صـباعى فى عين اجعص واحد فيهم ..

ابـو دراع : والحفله النهارده العصر ..

المصـــــرى : الهيئة كلها حتكون موجوده ..

ابـو دراع : طبعا .. الأمير والباشوات .. ويمكن الأميرات كمـان ..

المصـــري : حلو .. حلو تمام ..

ابـو دراع : حسك عينك .. تقول أخوفهم .. اعمل لهم هـزة .. أحسـن تبوظ الحفـلة من أولهـا لآخرها .. تحرم البلد من اللحمة ..

المصـــري : اشبع بيها انت يابو دراع .. احنا مش عاوزين ناكل لحمة .. احنا عاوزين حريتنا الأول .. نستنا زى الكلاب كل سـنة لغاية ما يرمولنا حتة لحمة ؟ !

ابـو دراع : بس كلهم مستنيين اللحمـة .. جعـانين .. مولعين النار وحاطين عليهـا الحلل بتغلى .. بيتلقفوا على عضمـه .. اشبع انت بحريتـك ياخوى .. (يضم شفتيه) طظ .. اللى بيدور على حنكه ما بيدورش على حريتـه .. فاكر عمنـول .. شـفت الزمبليطـة اللى كانـوا عاملينها .. والآخر رسيت على ايـه ؟ ! .. كلهـم جريوا زى الوحـوش الكـاسرة قـدام السرايـة .. وقفوا طـوابير .. طـوابير .. مالهاش آخر .. مش كانوا قاعدين وفى أيديهم القراوانات وغطيان الحلل والصحون .. الليل مش دخل عليهم قاموا ولعوا كلوبات.. الناموس مش قعد يلسوع فيهم .. ولا حسوا بحاجة.. (بنغمـة ساخرة) المرق طعم يا محمـد .. النهارده نهار المرق .. سيبك من الحرية ، واشرب المرق .. (يضحك فى ظرف) .

المصـــــرى : ما هم حياكلوا لحمة الليلة .. وبعدين يرجعوا يجوعوا تانى .. يبه ايه الفايدة ؟ !

ابـو دراع : المثل بيقول احيينى النهارده وموتنى بكره ..

المصـــــرى : ومينفعشى يحييـه النهـــاره ويحييـه بكره برضـــه ..

ابـو دراع : انت حتصـلح فى الأمثـال اللى بقالهـا ميتين ســنة ..

المصـــــرى : انى باذن واحد أحد هاجم عليهم الليلة دى ..

ابـو دراع : هاجم على مين ؟ !

المصـــــرى : على الأمير والباشوات .

ابـو دراع : انت اتجنيت يا محمد ! ..

المصـــــرى : (بحدة) دا انت اللى خواف يابو دراع ..

ابـو دراع : انى خواف يا محمد ؟ ! .

المصـــــرى : أيوه خواف يابو دراع ..

ابـو دراع : انت عارفنى أنى خواف يا محمد ..

المصـــــرى : تعلمت الخوف يابودراع .. تعلمت الخوف.. ما كنتش خواف صحيح زمان..لكن اتعلمت..

ابـو دراع : قسمتى ونصيبى .. هوه البنى آدم له حاجه فى نفسه .. دا كله بتاع ربنا ..

المصـــــرى : ايه التقوى اللى حطت عليك دى .. الله يرحم شقاوة زمان ..

ابــو دراع : تبنا يا محمد خلاص .. ياللا حسن الختام..

المصـــــــرى : احنا عجزنا صحيح .. لكن لسه شــباب .. لا يمكن نعجز طول ماحنا بنحارب ولاد الأبالسة دول ..

ابــو دراع : والنبى النهارده ما تقدر تحرك نمله فى البلد.. كله .. كله مستنى اللحمــة .. النســـوان والرجاله والعيال والقطط والكلاب .. كله .. كــله .. روق .. روق يا شـــيخ .. انت عرفت حكاية التور والبرسيم ؟ !

المصـــــــرى : مش فاضى لحكاياتك يابو دراع !

ابــو دراع : انت تغيرت كده ليه ؟ ! يا اخى ما تهجم عليهم.. بس تروق خلينا نضحك شويه .

المصـــــــرى : نفسى مســدودة عن الضحــك .. مقــدرش اضحك وانى داخل البلد هربان !

ابــو دراع : روق .. روق .. وبعدين خد بعضــك وارجع زى ماجيت ..

المصـــــــرى : ارجــع ؟ !

ابــو دراع : آه ترجع .. فيها ايه ؟ !

المصـــــــرى : نسيب البلد متحاصرة ونرجع ؟ !

ابــو دراع : مانى قــايل لعربكش يا اخى .. نطلب منهم السماح .. نقولهم آخرة مرة .. روق روق يا شــيخ اســمع حــكاية التور والبرســـيم الأول ..

المصـــــرى : مش رايق لحكايتك يابو دراع !

ابـو دراع : روق دقيقتـين بس .. فـرفش تفرفش لك الدنيا .. هوه انت معكبسها طوالى .. دى مش حكاية ، دى حصلت بصحيح .. صلى ع النبى ؟ !

المصـــــرى : اللهم صلى عليه ..

ابـو دراع : كان فيه مرة تور .. تور كبير زى البغل .. هج فى بلد زى بلدنا كده مرة واحدة .. قعد يكسر فى البيوت والزرع..وهات يا خبط طول ما هو ماشى فى العيال والنسوان والرجاله .. النـاس قعدت تجرى وراه عشـان تمسـكه مقدرتش..فحتوا له فحرة عشان يقع فيها.. برضـه موقعش فيهـا .. غايتـه ما طولشى عليك .. ربنا هداه من نفسه .. وقف وشرف النبى من غير ما حد يقرب له .. كان قدامه قطة صفيرة بتنونو .. بصوا لقوه واقف وقعد يشمشم فى القطة .. التموا حواليه .. كان عمال يشخر زى الدبيحة من الجرى .. العرق نازل يشر من راسه ورجليه وجسـده كله .. المهم .. كانوا عاوزين يعرفوا صاحبـه .. معرفوش ابدا .. قام واحد قال نضربه بالنار بقى احسـن لو طلقناه حيفيع فينـا تانى .. وواحـد تانى قال ندبحـه ونفرقـه زكة عن صاحبه .. ويستعوض ربنا فيه ان بان له صاحب .. وفى الآخـر اتفقوا انهم يسحبوه

للدوار عشان يدبحوه .. الخلاصة .. جهزوا
السكاكين والميه والحبال .. وندهوا للدبيح..
وهب خلاص كان حاطط السكين على رقبته
بعد ما كتفوه وطرحوه على الأرض .. لقوا
واحد جاى يجرى من بعيد وينده بعلو حسه .
يا رجاله .. يا رجاله .. متدبحوش التور ..
متدبحوش التور .. وقفوا الدبح .. وقفوا
الدبح .. شال الراجل ايده بالسكين .. كان
الجدع وصل .. قاله : ايه يابنى الهلولة اللى
انت عاملها دى .. قالهم التور ده بتاع الأمير..
اوعى حد يقرب له .. شيل ايدك يا راجل ..
عنها يا عم وكله انفض من حوالين التور..فكوا
الحبال عنه .. وبطلوا لكز فيه .. وقعدوا
يدلكوا مطرح الحبال عشان متعلمش .. وبدل
ما كان بينعر زى الجاموسة العشر أصبح
يضحك ويفرفش زى ما يكون واحد قاعد على
قهوة وحاطط رجل على رجل .. وقدامه
الشاى .. وتحت رجليه الشيشة .. عرف
بقى انه محمى .. صلى ع النبى ..

المصـــــرى : اللهم صلى عليه ..

ابــو دراع : حيث كده بقى الناس تحيرت .. يا ترى
يعملوا فيه ايه بعد كده..دبح طبعا يستحيل..
قالوا احسن حاجه نكتب عريضة ونمضى عليها
كلنا للأمير نقول فيها ان التور اكل البرسيم..
النهاية كتبوا العريضة .. ولموا من وسطيهم

عشر رجــاله .. زى الورد .. شــبابات .. ولبسوا اللى على الحبل .. ودادا .. دادا .. وصلوا سراية الأمير .. وقفوا قدامــه طابور حلو كده لامؤاخذة .. واحد منهم قال : طلع العريضــة يا على . رد على قاله .. عريضــة ايه .. قــاله عريضــة الشــكوى اللى احنــا كاتبينها .. قاله : احنا جايين نسلم بس .. لا عريضــة ولا حاجــة .. قــاله .. طلع .. ماطلعش .. طلع .. ماطلعش .. طلع .. عنها وكلهم هبوا فيه فى نفس واحد عريضــة ايه يا عبيط .. احنا جايين نسلم على الأمير ونحييه بس ! .. (يضحك) آه والله كده يا مصرى .. والله كده تمام !

المصـــــــرى : يابو دراع أنى مش فاضى لحواديتك ! .

ابــو دراع : لسه .. لسه الحدوته منتهتشى !

المصـــــــرى : اعتقنى لوجه الله .

ابــو دراع : تعرف طلبوا ايه من الأمير بعدما شربوا القهوة وانبسطوا .. تقول ايه ؟ ! .

المصـــــــرى : يابو دراع أنى فى عرضــك وراى البلد كلهــا عــاوزانى ..

ابــو دراع : والله طلبوا منه أربعين تور .. الأمير يقولهم متشكر .. ليه أربعين تور بس .. يقولوا له .. أصــل واحــد ما يــكفيش .. واحــد بس ميشرفنــاش .. عاوزين أربعين واحد عشان

يشرفونا .. مش همه دول ناس زى اللى انت حاطط ركك عليهم .. انشاء الله حتكتبهم عريضة .. والآخر يجى يبلموا ، مينطقوش ولا حرف .. وان نطقوا حيقولوا عاوزين أربعين تور .. عشان تور واحد ما يكفيش .. عاوزين اربعين تور عشان نتشرف أكتر وأكتر .. مش كده برضه واللا ايه .. وللاانى غلطان ؟ !

المصـــرى : زمن العرايض راح يابو دراع .. انت قاعد بتحلم .. قدمنا عرايض وشكاوى ملو قفف.. بعدد شعر راسنا .. خمس تلاف سنة واحنا بنقدم فى عرايض .. عريضة وراء عريضة .. وشكوى ورا شكوى .. ومحايلة بعديها محايلة .. مرة للمأمور .. ومرة للشيخ وللعمدة..واشى للمدير واشى للوزير وللأمير.. وللباشا .. ولست أم الباشا وللوالد أبو الباشا .. كله كله مخلناش لما العرضحالجية اشتكوا .. طهقوا منا قالولنا .. خاصتوا الورق والكلام والحبر كله .. كل ما يبروا قلم يخلص .. يبروا .. ويخلص .. يبروا .. ويخلص .. (يشير بأصابعه كما لو كان بيده قلم يبريه) .

ابـو دراع : دراعى مقطوع يا محمد !

المصـــرى : الناس كلها دراعتها مشلولة يابو دراع..مش قادرين يتحركوا ! ..

ابـو دراع : ساعات بينز دم .. بينقح على ..

المصـــــرى : البلد كلهـا بتنز دم يابو دراع .. عيانـه .. عاوزه اللى يشفيها .. حنقف نتفرج عليها ؟ ! حكاية ما تدخلش الراس ؟ !

ابـو دراع : اشفى انى نفسى الأول .. وبعـدين أدور على غـيرى !

المصـــــرى : (يواجهه) حتفضل طول عمرك عيان يابو دراع طول ما البلد عيانه ..

ابـو دراع : ان كان فى ايدك دوا هاته لك وللبلد .. احنا الاتنـين عيـانين .. (يترنـم بأسى) زى ما بيقولوا .. أمانة يا طبيب المبالى هاتِ لكل جرح دوا .

المصـــــرى : الراجـل الجديـد ناوى على الشر بصحيح يابو دراع !

ابـو دراع : ينوى يا سيدى .. ما هى عدمانه عدمانه .

المصـــــرى : حيحلقوا روسنا يابو دراع ؟ !

ابـو دراع : يا سيدى يحلقوا زى ما هم عاوزين .. مش حنخسر حاجة .. راسى كلها زلبطه .. مش حيلاقوا فيها ولا شعره ..

المصـــــرى : حيمدونا يابو دراع ؟ !

ابـو دراع : يعنى حنضرب أكتر ما انضربنـا .. خـلاص جسدنا كلح .

المصـــــرى : الناس تعبانين يابو دراع !

ابــو دراع : (بضعف) تعبان اكتر منهم والنبى ..

المصـــــرى : ما تنشفشى راسى اكتر من كده يابو دراع !

ابــو دراع : (يحتدم فجأة) انى راسى مش ناشـــفة .. انت عمال تلك على قلبى لمـا فلقتنى .. اللى عاوز يعمل بطل يعمل على نفسه .. مايعملشى على الناس .. دى بلد ما يتمرشى فيها خير.. كلتنى لحم ورمتنى عضم ! ..

المصـــــرى : مين اللى رماك عضم يابو دراع ؟ !

ابــو دراع : كلهم رمونى .. مفيش واحد الا لمـا ضربنى بالشلوت .. قالى انت مسكين ، غلبان .. زى ما بيقولوا .. آخر خدمة الغز علقة .. ياما حفيت عشان أجيب لهم ياكلوا..وسهرت الليل أغطيهم .. عاوزين تصريح دفن لميت .. أجرى أجيبـه .. عـاوزين غـوازى عشـان الأفراح هوا تكون الغوازى موجودة .. حاجات كتير وكتير .. ما أقدرشى أعدها .. واخرة المتمة رحت أدافع عنهم . حطيت جلابيتى فى سـنانى وقلت يا فكيـك .. ادونى بندقيـة مهكعة (بسخرية مريرة) زحفت على الأرض.. خطيت السلك الشايك .. وضربت الكنابل.. يا فرحتى بضرب الكنابل .. (بضيق وضجر) هوه أنى ماليش شغلانة الا الحكاية دى كل يوم .. والنبى تريحنى شـويةالهى يريحك ! ريحنى احسن تعبت على الآخر يا محمد ..

المصـــــرى : انى مش حاتعبك ولا حاجــه .. بس عاوزك تشد حيلك معايه ..

ابــو دراع : خير اللهم اجعله خير .. قول بس اللى انت عاوزه وتخلصنى ؟ !

المصـــــرى : تسيب المتحف النهـارده .. تعمل نفســك عيــان ! .

ابــو دراع : واكل العيش يا محمد .. انت عاوز تضيعنى!

المصـــــرى : اهى المرجله هنا بقى يا حظ !

ابــو دراع : المرجـله بعيد عن أكل العيش يا محمــد .. تضرنى فى أكل عيشى وعاوزنى أكون راجل .

المصـــــرى : الناس كلهم مضرورين .. يعنى عشان واحد يستريح لازم الكل ينضر ..

ابــو دراع : حبك حتة المتحف النهارده يعنى ؟ !

المصـــــرى : اصلى هاجم عليهم .. ومش عاوز أشوفك فى وشى ..

ابــو دراع : لأ دانت حتشوفنى فى وشك ضرورى .. وانى اللى حامنعك كمان ..

المصـــــرى : بقى لا منك ولا كفاية شرك .

ابــو دراع : بالشرف لو كنت أقدر أبعد عن المتحف كنت بعــدت ..

المصـــــرى : تقدر يابو دراع..تقولهم كنت عيان يا أخى..

ابــو دراع : حيقولوا اشمعنى يعنى النهارده ..

المصــــــــرى : مش عاوز أزعل معاك يابو دراع .

ابــو دراع : ولا انى والنبى يا محمد ..

المصــــــــرى : طب ابعد عن حتــة المتحف .. بلاش تعمــل خفير يوم يا اخى ..

ابــو دراع : طول عمرى ما عملت خفير .. بس انت عارف أكل العيش مر .. ويومين وآخرتهم الموت ..

(يدخل لهلوبة الى المسرح مسرعا) .

لهلوبــــــة : المفتاح يابو دراع .. المفتاح .. (يرى المصرى فجــأة فتأخــذه الدهشـــــة) يا لهوى .. انت جيت منــين ؟ ! (يبصــق فى عبــه) بســم الله الرحمن الرحيم .. قــل هو الله أحد .. الله الصمد .. لم .. لم ..

المصــــــــرى : جيت من تحت الأرض يا لهلوبة ..

لهلوبــــــة : (بعجلة وخوف) يابو دراع .. المفتــاح .. المفتاح حالا .. أحسن الكبرات وصلوا ..

المصــــــــرى : مفتاح ايه وهباب ايه ؟ ! .لازم المتحف يدردك على روسهم النهارده ..

ابــو دراع : (بذعر) اعقل يا محمد .. خليك عاقل اعمل معروف .. حتقطع عيشى من الحتة .. اعمل معروف ربنا يهديك .. (برجاء وقريبا منه) ترضى البلد تتبهدل أكتر من كده..حيضربوها

علقة سخنة .. أروح أستسمحهم بدخولك يا محمـد ؟ !

المصـــــرى : بطلنا نستسمح حد من زمـان يابو دراع .. لا عدنا حنكتب عرايض ولا نستسمح حد .. بالشرف لا يمكن حنسكت بعد النهارده !

لهلوبــــة : المفتاح يابو دراع .. المفتاح .. هات المفتاح أحسن لسه رايح للكشافة والعساكر .

المصـــــرى : حترصصوا الكشافة على الجنبين..وتلبسوهم أبيض فى أبيض .. وتوزعوا عليهم صـنادل حمرا .. وفانـلات بيضـه زى كل مـرة .. وتدهنوا الشجر .. يا ولاد !!

لهلوبــــة : (بعبط) ومجهزين أربع عجول للدبح كمان .. حنفرق البلد فى اللحمة والمرقة الليلادى ! .

المصـــــرى : عاوز منك كلمة يابو دراع .. كلمـة واحدة تطمنى !

ابـو دراع : ضـلعى مكسـور يا مصرى .. والله ضـلعى مكسور .. ودراعى عاجز !

المصـــــرى : نفسنا نفك الساقية يابو دراع .. من زمـان وانى أتحايل عليك ..

ابـو دراع : اللف راحة يا محمد .. ان ملفناش النهـارده حنلف بكره .. انت شايف البـلد عامله زى الحق المقفول أهه ...

المصـــــرى : طب شـوية همه منك واحنا نقدر نخرج من

الحق المخنوق ده ! شـــوية روح .. مفيش حاجة من غير روح ..

ابــو دراع : البركة فيك .. بس تبعد عنى .. متقربش ناحية المتحف أحسن تحصل كارثة والنبى .. حيسلسلونى فى الحديد (باستعطاف) ترضى اسلســـل فى الحــديد ؟ ! أنى قــلت كــلمتى وخــلاص ..

المصـــــــرى : أنى لوحدى ماقدرش أعمل حاجة يابو دراع.. أملنا البلد كلها تصحى .. روحها ترد فيها..

ابــو دراع : (بيأس) يا ريت يا محمد يا ريت .. من بقك لباب السماء .. ربنا ينفخ فى صورتها .. انما أنى روحى مــاتت من زمــان .. ما دورشى عليها .. ضاعت من بدرى (يغمغم) يا ريت ترد فيه الروح .. يا ريت .. يا ريت .. يا ريت (يتهاوى) .

ســـتار

المنظر الثـانى :

متحف للطيور والحيوانات ، تسوده الأضواء المتلألئة والبهجة الارستقراطية .. تتنوع به الألوان الناصعـة . يبرز لنا جـدار نرى عليه رؤوس الحيوانات المفترسـة ، وبعض الطيور النادرة ، والبنادق والآلات التى استخدمت فى الصيد . يرتفع السـتار عن مجموعة من الباشـوات يلتفون حول الأمير ، يضحكون ، ووراءه الحاكم مباشرة ، وعلى البعد يقف أبو دراع منحنيا . وعلى القرب منه بعض العساكر الذى يشكلون نصف دائرة .

الوقـــت : أصيل نفس اليوم .

الأمـــير : هه .. تفضلوا يا سادة ..

الباشـــوات : (يحنون الظهور) تفضـل أميرنـا العزيز .. تفضل أميرنا العزيز .

الأمـــير : اذن فلنبدأ .. (يقص الشريط الأحمر الموصل الى الجدار) .

أحد الباشوات : مرحبا بالأمير .. فى متحف الطيور ..

الجميــــع : مرحبـا بالأمـير .. فى متحف الطيـور .. مرحبا .. مرحبا .. مرحبا ..

الحـــاكم : أيها الســادة .. مســاء الخير .. (ينحنى اسمحوا لى أولا ان ارحب بأميرنا العزيز .. درة تاج الملك .. وزهرة الدنيـا جميعا .. الذى تاقت عيوننـا الى رؤيـاه طويـلا .. يا طالمـا بتنا نحـلم بهـذه اللقيـا الفريدة الرائعة .. ان لمدتنا الآن لتتحول الى حديقـة واسعة .. يفوح منها شذى العطر المضمخ .. والألوان الجميلة البهيجة .. أيها السادة : لا اريد ان اطيل عليكم .. فالحديث بجـوار اميرنا المحبوب يصبح سخيفا لا قيمة له .. فينبغى علينا أن نتجه اليه صامتا ومتحدثا.. ها هو (يشـير اليه) يشرفنـا اليـوم .. فيالسعادتنا وافراحنـا الكبيرة التى تعز عن الوصف .. واذ كنت استقبل اميرنا العزيـز بهـذه الروح ، فانى لا انكركم انى قضـيت بالأمس يوما غاية فى التعاسة .. التعاسة التى لا تعرف الحدود أبدا .. كنت فى غاية الضيق من هذه البلدة الملعونة .. أتعبتنى كثيرا .. ان ترويض الوحوش أسهل بكثير من ترويض هؤلاء الفلاحين المتأخرين .. بالأمس كانت فى حالة هياج شديد .. كالثور فى حلبة المصارعة الاسبانية .. هائجة جامحة عنيدة .. تريد تحطيم ما امامها .. فقدت اعصابها وعقلها ..

ففدت تهدد الأخضر واليابس .. واصبح من العسير السيطرة عليها وتوجيهها .. يا لها من ذكرى مشئومة .. لا ادرى كيف مرت الأزمة بسـلام .. وقانا الله وايـاكم شر المفاجـآت السيئة البغيضة .. وشكرا .. شكرا لأميرنا العزيز ان وطئت قدمـاه هـذه الأرض بعد طول فراق ..

الجميـــع : مرحبـا بالأمـير .. فى متحف الطيـور .. مرحبا .. مرحبا .. مرحبا .

الحـاكم : ويسرنى ان أقدم هدية متواضعة لأميرنا العزيز (يضحك) هدية تحفة بصحيح. نستطيع أن نطلق على هـذا المتحف بعد ان أقدمها له .. متحف الطيور والحيوانات .. (يصـمت) والانسان كمان .. سوف نقيم جناحا به .. نضع فيه بعض مجهوداتنا المتواضعة فى سبيل ترويضـه .. ربما يضـم بعض الجماجم .. والصيد الذى نصطاده خـلال رحلة حكمنـا هذه .. أو ملابس الفرماء وحاجياتهم الخاصة، كل ذلك ليكون عبرة للأجيـال القادمـة .. سوف يقولون .. وربما وضعوا نصبا تذكاريا بهذه المناسبة يكتبون عليه .. هنا فى عام .. لا احب أن أحدد العام .. ثارت هذه البلدة فى وجـه حكامها الفضـلاء .. المنزهين عن الغرض .. السـاعين الى كشف الغمـة عن مواطنيها .. فاستطاع حاكمهـا المحـلى أن

يخمد بذور الثورة فى مهدها .. لا بالحديد .. ولا بالنـــار .. وانما بالترويض .. بالتهديد والترغيب .. رحمـــه الله من حاكم .. كان حكيما حقا .. والآن أريد أن أفاجئكم بالهدية (يفتح صـــندوقا صـــغيرا بجانبـــه ليخـــرج الجمجمة) هذه هى الهدية أيها السادة ! .

احد الباشوات : (بدهشـــة) يا خبر ابيض .. جمجمـــة .. دا شيء رهيب ..

الحـــــاكم : آه جمجمة .. مالك اترعبت كده ليه ؟ !

الباشـــــا : مش معقول !

الحـــــاكم : مش معقول ؟ ! لا معقول ونص ! .

الباشـــــا : لأ .. يعنى .. انا بقول ..

الأمــــير : ارجـوكم .. بلاش سفســطه .. لا تضيعوا الوقت .

الحـــــاكم : فعلا .. بلاش سفسطه .. لا نريد أن نضيع وقت أميرنا العزيز .

الجميــــع : عاش الأمير .. فى متحف الطيور .. عاش .. عاش .. عاش .

الأمــــير : ليبدأ السيد (يشير الى الحاكم) فى الشرح..

الحـــــاكم : نعم .. نبدأ بالطيــور .. أم بالحيــوانات ؟ ! أو (يصمت) .

الأمــــير : (بابتسامة راضـــية) كما تريد .. المهم انـــا عاوز طريقة الشرح اللى بالك منها !

الحـــــاكم : آه .. (يضحك) اللى بتستمخ منها .. عارفها كويس جدا ..

الأمــــــير : ابدا ارجوك .. لا تضيع الوقت ..

الحـــــاكم : (يتقدم نحو الجدار مشيرا بعصا فى يده الى راس الأسد) طبعا كلكم عارفين حكايته ؟ !

الباشــــوات : لا .. لا .. لا .. مش عارفينها .

الأمــــــير : حكايته قديمة جدا.. سمعتها عشرات المرات.. لكن مع ذلك لا امل سماعها ابدا .. خاصــة من فم هذه العقدة . أبو راس كبيرة ..

الحـــــاكم : باختصار أيها السادة .. انها حكاية الفخ اللى احنــا واقعين فيه .. الحيوان المفترس نقدر نخليه طيب وأليف .. نقدر نستأنســه بشوية حيل صغيره أوى .. نضحك عليه . مهمــا كان متــوحش .. لكن المصــيبة صــحيح فى البنى آدم .. لئيم .. تجيــله من هنــا .. يجيلك من هنا .. تحاوره .. يحــاورك .. تضحك فى وشه .. يطلع لك لسانه . وكأنه بيقولك أنا كاشفك .. الصب غيرها .. عــاوز جهد كبير عشان تروضه .. لكن برضه الواحد ميياسى .. ادحنا بنحاول ..

احد الباشوات : خلينــا فى الأســد وحيــاة والدك .. بلاش فلسفة .. حكاية الأسد ..

الحـــــاكم : لا .. دى فزلكة بيولوجية وسيكولوجية لابد منها للشرح كله .. خلينى آخد براحى امال..

احنا بنشرح عملى خالص .. اصلنا لسه عايشين فى الحكاية .. بنروض فيهم .. وهمه بيروضوا فينا .. مصلبين معانا تمام .. واقفين على رجل عاوزين يرجعوا فى اى لحظة ..

الأمير : ايه .. حصل حاجة جديدة ؟ !

الحاكم : البلد منامتش امبارح .. كانت دايكه .. ما تعرفلهاش هى من دى .. ربنا يستر بقى .

(ابو دراع يتطلع الي الخارج بين الاونة والأخرى) .

الباشا : ارجوك .. قولنا حكاية الأسد !

الحاكم : طب صلوا على النبى .

مجموعةالباشوات : اللهم صلى عليه ..

الحاكم : كمان زيدوا النبى صلى .

المجموعة : اللهم صلى عليه ..

الحاكم : طب وحدوه ..

المجموعة : لا اله الا هوه .

الحاكم : كمان صلوا على النبى .

المجموعة : (تضحك) اللهم صلى عليه ..

الحاكم : كمان زيدوا النبى صلا ..

المجموعة : (تضحك) .. لا .. مش طريقة دى ..

الحـــاكم : طب آخر مرة بقى ، آخر مرة والله .. خلاص..
صلوا على النبى ..

المجموعـــة : اللهم صلى عليه ..

الحـــاكم : (مشيرا الى راس الأسد) بقى الأسد ده
حكايته غريبة صحيح .. اصطاده مولانا الأمير
(يتطلع اليه وهو ينحنى) وهو لسه صغير ..
كتكوت .. كان سنه احداشر سنة كده ..
(متطلعا اليه) مش كده برضه وللا ايه ؟ ! ..

الأمـــير : كده برضه . حوالى حداشر اتناشر ..
تلتاشر ..

احد الباشوات : اربعتاشر .. خمستاشر .. ستاشر ..

باشا آخر : ستاشر .. سبعتاشر .. تمنتاشر ..

الأمـــير : لا .. ظريفة دى ..

الحـــاكم : اول ما وصل البلد كنا حاطينه فى قفص حديد
ضخم عشان ما يتفلفص أبدا .. كان صوته
رعد .. لما يقول آى .. آى .. يجيب لآخر
البلد .. متأسف بره البلد بعشرين تلاتين
كيلو ..

احد الباشوات : (بمرح) ياخى قول اربعين .. خمسين ..
ستين ..

الحـــاكم : لا والله كده صحيح .. لو واحد هش قدامه
بايده .. كان يفتح حنكه زى البرميل .. عاوز
ياكله .. وحش كاسر بقى .. عاوز يكسر

الحديد ويهجم عليــه .. أمــال .. يفضــل
يعض فى الحديد .. نفسه يقضمه ويخرج ..
فى مرة هب فينا من جوه القفص .. زعق زعقه
خلتنا نرتعش قدامه .. نترتنا الزعقه بعيد عنه
يمكن بعشرين تلاتين متر .. آه والله كده ..

الباشــــا : ياخى قول .. خمسين .. ستين كده !

الحــــاكم : احترنا فيه .. لاحنا عارفين نطلعــه يتفسح
شويه .. ولا عارفين نقرب له .. قلنا نروضه
بقى .. أول حاجه ابتدينا نقلله فى الأكل حبه
بحبه .. من غير ما يحس .. بدل ما كنا نرمى
له ست سبع ارطال لحمة .. خليناهم رطلين
تلاته..وبعدين خليناهم رطل..وبعدين نص..
قعد يزعق .. ما طقش .. زى ما يكون ضايع
منه حاجه عمــال يدور عليها .. يزعق ..
يعوى .. آيــوى .. آيــوى .. آيــوى ..
ويخبط راسه فى الحديد ويزعق .. آيوى ..
عنها وجينا فى يوم ومنعنا عنه الأكل بتاتا ..
منعنا عنه اللحاة .. بصينا لقيناه هاج اكتر
واكتر .. قعد يجرى وسط القفص ويخبط
راسه من هنا لهنا .. دنه لمــا جرح نفسه ..
ضرب راسه فى الحديد .. فتعورت .. وفجاة
بصينا لقيناه همد مرة واحدة .. وقع من
طوله .. سكت خالص .. كان لمــا يحب يقوم
يشرب .. ما يقدرش .. يجرجر جسده ..
المهم .. صلوا بينا ع النبى ؟ !

المجموعة : اللهم صلى عليه .

الحاكم : المهم جينا فى يوم تانى بعد ما جاع كام يوم كده، ورمينا له فخذة لحمة كبيرة .. قام زى المجنون يأكل فيها .. وبعد ما كل اكرع فى أمانة الله .. اتسلطن تمام .. وخده النعاس .

احد العساكر : نسيت حاجة مهمة يا فندم .. ما قلنهاش .. قبل ما يخده النعاس .

الحاكم : ايه هيه دى يا عسكرى ؟ ..

العسكرى : شرب سيجاره ..

الأمير : (ضاحكا) ظريفة دى ..

العسكرى : (مصرا) والله شرب سيجارة قبل ما ينعس.. وانى مدهاله بايدى ! والله واخدها من ايدى .. (يضحك) يا عالم .. يا عالم .. حرام عليكو .. حتجننونا .. والله شرب سيجارة قبل ما ينعس ..

الحاكم : بس .. بعد شويه .. صحى مبسوط آخر بسطه .. قعد يزيط برضه .. ادينالة فخدة تانيه .. تالت يوم جوعناه .. استغربنا .. لقينا صوته وطى .. كان زى ما يكون بيوشوشنا ويتحايل علينا .. (بضعف) انى عاوز آكل .. واكلونى .. ليه تحرمونى من اللحمة .. انى عملت حاجة وحشه .. اذا كنت عملت حاجة وحشه تزعلكوا .. اضربونى .. مدونى على رجليه .. لكن ادونى

اللحمة .. (يصمت) مفيش فايده .. على مين بقى ؟ سبناه همدان .. تلات اربع تيام.. كان بينهج .. اتحوطناه .. وكتفناه .. وقلعنا له سنانه ..

احد الباشوات : (مندهشا) وبعدين ؟ !

الحـاكم : بس وبعدين دخلناه القفص .. كان غلبان .. عمال يطلع لكل واحد فينا يقوله .. ليه بس كده ليه .. انى عملت فيكو حاجة ؟ ! .. بطل زعيق .. بقى يهلوس فى الكلام .. كان فى الأول يهيج فينا .. يزعق .. انا الأسد ملك الغابة .. انا الأسد ملك الغابة .. تعرفوا بقى يقول ايه بعد كده ؟ !

احد الباشوات : ايـه ؟ !

الحـاكم : انا الأسـد الغلبان نفسى فى حتة لحمة طريه على ..

الباشـا : بقى ينطق السين شين يعنى ؟ !

الحـاكم : آه .. امال ؟ ! .. ما هـه مخلع سنانه .. بس قول عنها وقطعنا حته من ودنه كمـان عشـان نذله اكتر واكتر .. (يصمت بأسى زائف) وشرف النبى صعب علينا فى الآخر .. تعرفوا فى الليل كان بيعمل ايه ؟ !

احد الباشوات : ايـه ؟ !

الحـاكم : كان يفضل يعيط .. يعيط وفى الآخرة ينهنه

زى العيال الصغيرين .. عملنا له نظام بقى.. كان يصبح الصبح يبوس ايدى وايد الأمير.. والأميرات (يضحك) كل يوم كان بيلطع الكريمة .. وساعات ما كنشى فاضى .. أو يمكن لسه نايم..ابص الاقيه باس رجلى.. وقعد يشمشم فيها زى القطة الأليفه .. (يصمت) زهقت منه .. طلعته الفيط يشيله عليه سباخ .. تعب من الشغل .. خد روماتزم فى رجليه .. اتكسح الغلبان .. (يضحك) أصبح بيحبى زى النونو .. كل ما يقوم يقع .. خلاص ما بقتش قادر اشوفه قدامى .. صعب عليه أوى .. صبحت يوم الصبح وانى ناوى أضربه بالنار .. بصيت فى القفص .. لقيته متمدد قتيل .. وشه اصفر .. اصفر زى الكركم .. مات من نفسه .. قلت الحمد لله .. بس وبعدين جبت راسه علقتها هنا فى المتحف .

احد الباشوات : غريبة صحيح !

باشا آخر : قصة عبره أوى ..

الأمير : ضحكتنا والله يا شيخ .. انتو لميتو القمح ولا لأ !

الحاكم : (بانحناء) طبعا .. طبعا أميرنا العزيز ..

الأمير : والمطرودين .. حد دخل منهم ؟ !

الحاكم : كان منهم شوية على الكوبرى امبارح .. كانو!

عمالين يمأمأوا زى المعيز تحت رجليه ..
خلاص كنت حندخلهم لولا ..

الأمير : متخلش عليك المسكنه بتاعتهم .. دا يعملوا كده .. وتو ما دخلوا يتفرعنوا .. انا عارفهم كويس .. ياما طردتهم ودخلتهم .. تصور اللى بينطردوا اليومين دول .. كان آباهاتهم بينطردوا قبليهم .. واخدينها بالوراثة .. تمام زى ما ورثت التاج عن بابى .. همه برضه ورثوا الطرد .. تعرف انا فكرت قبليك فى ايه لما حطيت صوابعى فى الشق منهم .. خلاص قلت أضحى ببلد واحدة عشان كل البلاد تقعد ساكتة.. قلت اطلق عليهم خراطيم الزيت فى الليل .. فى ليلة ضلمة زى الكحل.. حيكونوا نايمين .. بيشخروا زى البقر .. اغرق البيوت والسكك بالزيت (يصمت) واولع عود كبريت واحد .. عود كبريت واحد بس يقدر يريحنى من الدوشة دى كلها (يتطلع الى الباشاوات حوله) والله فكرت فى كده صحيح .. اعمل ايه .. حطيت صوابعى فى الشق منهم !

احد الباشوات : (بدهشة نفاق) فكرة عبقرية صحيح عبقرية الى آخر حدود العبقرية ..

باشا آخر : امال .. اصل الأمير كان مع الراجل العظيم فى كل الحروب .. قريب منه جدا ..

باشا ثالث : آه .. انما دى فكرة لنج خالص ..

باشا آخر : لا والله اظن نابليون كان حيستخدمها فى الهجوم على روسيا .. على العموم .. هى العبقرية فى استخدامها هنا عندنا .. زى الأمير ما فكر فيها ..

الأمير : المهم .. عاوزين نقضى يوم لطيف .. متفكروناش بمتاعب ولاد ... دول

الحاكم : صحيح .. (يشير بالمؤشر فى يده) وده التمساح .. (يصمت برهة) حنرجع تانى للموضوع .. مفيش فايدة .. مش قادر .. شاغلينى .. مضيعين متعتى للآخر .. زى بعضه..التماسيح فظيعة .. (باحتدام) فظيعة .. فظيعة .. بتزحف صحيح .. طول عمرها بتزحف .. لكن فيها قوة غريبة .. غريبة .. كانوا بيزحفوا قدامى امبارح على الكوبرى .. بيلفوا حواليه .. بيزحفوا زى التماسيح تمام .. (يرتعش بشدة ، فاقدا اتزانه) .. ربوا لى الرعب .. ربوا لى الرعب .. انا خايف .. خايف .. (يبتعد عن التمساح) شايف فى عنيهم العند .. باين عليهم ناويين لى على نيه سوده .. امبارح كانوا ساكتين كلهم ما عدا المصرى .. بيتحايلوا عليه .. والنبى فى عرضك..احنا طنباتك.. بس انا حاسس ان قلوبهم معبيه من جوه.. بتغلى بالنار .. شايلين منى .. (متراجعا اكتر) انا خايف .. خايف .. خايف ..

(تضطرب مجموعـة الباشـاوات بعض الشيء ، ثم تتجمع حوله ، يخرج احدهم زجاجة كولونيا من جيبه ليدلق عليـه بعضها لينعشه ، يجرى ابو دراع اليهم حاملا كوزا به ماء ، فينظر اليه الجميع باستنكار) ...

احد الباشوات : ايه دى ميه .. لا .. لا ..

ابـو دراع : ميه من النيل .. دازلال .. حـلوة قوى .

الباشـــــا : لا يا حاج .. دى ملوثه .. (يهوى على الحاكم بجريدة فى يده) .

ابـو دراع : ميه من النيل ياخوانا .. خليه يشرب منهـا وهو ربنا يشفيه .. كلنا بنشرب منهـا ... ماحنا حديد أهه ....

(يبدأ الحـاكم يفيق من تلقاء نفسـه ، فينهض) .

الحـــاكم : أصـلى تعبت اليومين اللى فـاتوا دول .. ماكنتش بنـام فى الليل .. قلبوا دماغى .. محمد المصرى فى الجبل .. دا على الترعة .. دا جوه البلد .. دا لابد فى الترب .. الناس مايصدقوا يخش ويتلموا حواليه ..

الأمـــير : بسيطة .. ولايهمـك .. ديته اتنين عسـاكر يكتفوه بس .. وبعدين نرحله للسجن .

الحـــاكم : السجن مش حيحل الموضوع .. دا هوه لمـا

يكون جوه البلد بتهدا..اعصابها بتستريح.. انما لما يكون بره تحس انها .. (يشير الى ابو دراع أن يعود الى مكانه فى اقصى المسرح) .. روح بابو دراع اقف هناك .. تحس انها مجنونة ..

احد الباشوات : لا .. دانتو مكبرين الحكاية اوى .. ياما مر علينا اصناف كده كتير .. تعرفوا دا ديته ايه ؟ ! .. رصاصتين من بندقية ميزر .. ولا مين شاف ولا مين درى .. عملناها كتير ايام مولانا فؤاد ، ونقدر نعملها دلوقتى ايام مولانا فاروق . امال أصل دى خبره . مين يقدر يكلم ؟ ! .

باشـــــا : (ينهنه باصطنـاع) ... فكرتنى بأيام مولانا فؤاد ... كنت معاه ليل ونهار ... لما جه يموت كنت واقف على أوضته .. ماحـدش كان يدخل الا باذنى .. حتى الأميرات والأمراء (ينخرط فى البكاء) .

احد الباشوات : (يلتئمون حوله مواسـين) ... معلهشى ... معلهشى .. البركة فى مولانا فاروق .. كفاية احنا عايشين فى كنفه النهارده .. لولاه لكنا ضعنا .. كانوا الفلاحين خلاص ، ما حدش يقدر عليهم ...

الأمـــــير : (بفرح) صحيح والله .. والنيابـة عمرهـا ما خشت هنا ..

باشـا آخـر : ولا رصاصتين ولا حاجه يا جماعه..دا ينضرب قلمين وخلاص .. وان تلحم نهدده بالطور.. فيه عشرات زيه هناك .. انا نفسى باعت تلاته من شهرين ..

الأمـــير : (ببعض الضيق) .. وبعدين ؟ ! .. انا جاى اشم هوا ، واقضى وقت لطيف .. وللاجاى اتقريف ؟ ! .. أرجوكم !

(يسمع لغط بالخارج وشوشرة اصوات متداخلة) .

صـــوت : اوعى يا حسين سيبه ليه انت ..

صـــوت : لا .. لا .. اوعى انت سيبه لى بس ..

صـــوت : كتفه .. مش حينفع معاه الا التكتيف ..

صـــوت : حيبوظ الحفلة .. يا خراب أسود .. رحنا فى داهيه ..

(تهدأ الضجة قليلا) .

احد الباشوات : (مناديا على ابو دراع) ايه .. فيه ايه ؟ ! احنا سامعين دوشه بره !

أبـو دراع : (مضطربا) لا .. يا باشا .. مفيش حاجـه ابدا ..

الحـــاكم : انا قلبى حاسس .. عينى الشـمال بترف من الصبح .. خير اللهم اجعله خير .. اصلكم جايين زيارة وماشيين النهارده .. انما انـا اللى محبوس هنا ..

الأمـــــير : (يتطلع الى الجدار ناحيـة الصقر المحنط ، وبفرح) يا سلام هوه دا الصقر بتاع زمان .. دانا فاكره نهار ما اصطاده بابى .. (يقترب منه اكثر ، ثم متطلعا حوله) مش فاكرين ؟!

الباشـــوات : فاكرين يا أميرنا العزيز ..

الأمـــــير : حطيناله الحمامة فى الفخ ؟ !

الباشـــوات : فاكرين يا أميرنا العزيز ..

الأمـــــير : والفخ كان فى الصحرا ..

الباشـــوات : فاكرين يا أميرنا العزيز ..

الأمـــــير : (يضحك) والحمامة كانت بتفلفص .. عاوزة تفك من الشبك ..

احد الباشوات : (يقفز منافقـا الى مجموعة عصافير الجنـة المحنطة على الجدار) ودى عصـافير الجنـة اللى كانت فى جنـاح بابى الشـمال .. مش فاكرين ؟ !

الباشـــوات : طبعا فاكرين .. ازاى مش فاكرين ..

الباشـــا : (يشير الى احد الثعالب المحنطة) وده التعلب اللى كان فى جناح مامى اليمين .. (يصمت) مش فاكرين ؟ !

الباشـــوات : طبعا طبعا فاكرين !

الأمـــــير : بس .. بس .. مش عـاوز أكتر عليـكم ..

حاسألكم سؤال واحد وخلاص .. (يصمت)
بابى عمل كام رحلة صيد فى حياته ؟ !

باشــــا : كتـير .. كتـير .. ما يتعـدوش .. نظلمـه لوعدناهم ..

باشا آخـر : الف .. آلفين .. تلات تلاف ..

باشـا ثـالث : أنا لوحدى رحت معاه يمكن خمسميت رحلة.

باشــــا : وانا يطلع خمسمية برضه ..

باشــــا : وانا يطلع كده ..

الأمـــــير : (بدلع) مامى مارحتش معاه ولا رحلة ؟ !

باشــــا : رحلة واحدة يتيمه . وفرهدت منا فى السكة يطلع عشرين مرة .. كانت رقيقــة . .ترى جانتى !

الباشا الأديب : أيها السادة .. قرات مرة فى كتاب قديم للأدب قصــة مسلية للغاية .. يا للعجب .. انهــا تشبه قصتنا اليوم .. تقول القصة القديمة.. خرج احد الأمراء فى جمع من حاشيته ليزور احد قصــوره البعيدة ليقضــوا يوما ممتعا سعيدا ، يرفهون فيه عن أنفسهم . كان ذلك فى ربيع ما ، فى احـدى الســنوات القديمــة (بشير بأصابعه بأناقة) القديمة جدا .. وحين وصــل الأمير مع حاشيته الى القصر الكبير وبدءوا يتخففــون من مـلابس الســـفر .. ليستريحوا فى حديقــة القصر الواســعة ..

اذ بجلبـة عالية تصـلهم من وراء الجـدران المرتفعة (بنفس حركة أصابعه) الشـاهقـة الارتفـاع .. كانت الشـتـائم تنهـال عليهم كالحجارة من كل حدب .. وكلمات الاستنكار، البشعة (بأسى) السوقية المبتذلة ، الفظيعة تتطاول اليهم عبر الزهور والورود والرياحين الربيعيـة ، ذات الرائحـة العطريـة الحـلوة النفـاذة .. بالسخرية الأقدار . ويالبـلادة الحس الانسانى حينما يغمض جفونه عن كنوز المخلوقات البهيجة (يصمت) وما أشد تعاسة الجمال وحزنه الدفين فى بلد لا يعرف للجمال طعما ، لا يشم الزهور والورود والياسمين ، ولا يسـمع الموسـيقى (يرقص) الموسـيقى العالمية .. بيتهوفن .. موزار .. فاجنر .. بلد لم تكتحل عيناه برؤيـة الشـمس وهى تشرق (يشير بيديه الى الأفق الواسع وهو منتش) على الكائنات الأرضية كلها .. (يضم يده بحزن) ثم وهى تغرب رويدا رويدا .. كأنها ملكة جمال عظيمة .. عظيمة .. تتزايل عن عرشها ، حزينة ومكتئبة غضبى ..

احد الباشوات : (بخشونة) اللا .. اللا .. دانت اديب كبير اهه ومحدش عارف .. بس متشائم أوى ..

الأمــــير : هوه متفائل ومتشائم فى نفس الوقت ..

الباشا الأديب : لم يتعود قلبى ان يكذب على أو يخدعنى أبدا .

دائما كان الدليل الذى يهدينى الى الطريق السليم فى حياتى . ان القصة القديمة قد تتكرر فى يومنا هذا بأشد مما كانت وادهى.. وحينئذ نستطيع أن نقول .. ايها السادة ما أشبه الليلة بالبارحة .. ما أشبه الليلة بالبارحة !

(يسمع اللغط بالخارج)

صـــــوت : قلت لك سيبه يانبوى بس ..

صـــــوت : يا سلام .. لأ يا بدوى .. دا صحته زى البمب .. مش حنقدر نكتفه ..

صـــــوت : تضربنى على دراعى وعاوزنى اسكت يعنى .. والله لا يمكن أسكت .. لا يمكن أسكت ..

صـــــوت : العساكر حيضربوا فى المليان النهارده .. والنبى حيضربوا .. اركزوا يا رجاله ..

الباشا الأديب : سامعين ؟ ! .. والله يابيه هجوم .. هجوم الربيع ! (يضحك) .

الحـــــاكم : (بجدية صارمة) أرجوكم خلونا فى المتحف هنا .. دا شوية عيال مفيش حاجه .. (يشير بالمؤشر الى طائر صغير محنط) ودا ابو فصاده .

الباشا الأديب : عاوزين يشوهوا اللوحة الجميلة فى الحاضر زى ما شوهوها فى الماضى .

الحـــــاكم : (مايزال المؤشر على الطائر) أبو فصاده نوع

من أنواع العصـــافير .. انه أجملها وأرقهـا على الاطلاق .. كانت له عدة الوان .. منهـا الأزرق والأسمر والبنفسجى .. ثم انقرض.. أو اختفى حتى لا نتعـــرض للاصطـلاحات العلمية العويصة .. اختفى هــذا النوع .. وبقى النــوع الأخضر الخـالص الخضرة .. (ينقل المؤشر الى ثعبان محنط) .. طبعـا كلكم عارفينه .. يقترن فى اذهانكم بالسم .. السم القاتل الذى لا يرحم .. اذن فهو العدو القاتل .. أما أنا فأعده الصـديق اللدود كما يقولون .. منه اتعـلم .. وضـده أحـارب وأصـارع .. (فجأة يرتعش خائفـا) من فصيلة الزواحف برضه .. زى التماسيح.. بيزحف زيهم وهمــه برضـــه بيزحفوا .. (يتراجـع) بيزحفوا قـــدامى .. ناويين يعضونى .. (يصمت) كانوا بيزحفوا على الكوبرى امبارح .. بيبخوا السم حواليه .. كل ما امشى فى حتــه الاقيهم بيزحفـوا .. بيزحفوا .. عاوزين يعضونى .. يبخوا السم فى دمى (بحدة) انما لا يمكن .. لا يمكن .. (يجرى بعيدا مذعورا) .

الأمـــــــير : (يقترب منه بمودة) الظـــاهر ان الفـلاحين تعبينه . انا عارفهم .. شياطين .. بابى قبل ما يموت بلحظة قالى .. اوعى من اتنين فى الدنيا .. التعبان والفلاح .. الاتنين قرصتهم

بالدم .. أن ما كنتش تخلعلهم سنانهم أول بأول يؤذوك .. (يطبطب عليه) الظاهر تعبينه .. لازم يروح يغير هوا بره .. انشاء الله بعد ما يلم محصول السنة دى كله يطلع بره ..

الباشوات : عاش الأمير .. فى متحف الطيور .. عاش .. عاش .. عاش ..

الأمير : (ينحنى شاكرا ، ثم ناظرا فى ساعته) الوقت بيمر يا ساده .. يستحسن أن نخرج حتى نتجول قليلا فى حديقة الزهور أو حديقة النباتات الكستنائية .. عاوزين تروحوا هناك وللا تقضوا الوقت فى الحمام (بسذاجة) تستحموا وللا تركبوا خيل ؟ ! وللا تشمو الزهور ؟ !

باشا : نفسى اروح المنحل ..

الأمير : آه .. فكرة لطيفة .. دانت غاوى نحل من زمن .. عندك كام مكله دلوقتى ؟ ! (يضحك).

الباشا الأديب : نروح حديقة النباتات.. يا سلام على الشجر.. تمام زى الانسان ، الشجرة العبيطة الهايفة.. الطويلة .. والشجرة اللئيمة القصيرة .. الشجرة اللى بتضحك .. والشجرة اللى تكشر .. واللى لابسه شفتشى .. أحمر وأبيض وازرق .. واللى عريانه .. يادوب عورتها متغطية .. اللى متفشكلة .. جسمها بايظ ..

زى الكرنبه .. واللى ممشوقة القوام ، حلوة التقاطيع ، بسـامة الثغر .. (يقبل أطـراف أصابعه) فينوس ..

باشـا ثـالث : انا احب الخيل .. عالم الخيل جميل..نروح نركب خيل ! .

(تسمع الضجـة من جديد عاليـة هـذه المرة) .

صـــوت : انى اخش انى ..

صـــوت : لا انى اللى حاخش ..

صـــوت : لا انى .. انى .. انى ..

(يجرى ابو دراع مقتربـا من مجموعـة الباشاوات) .

ابـو دراع : (يجرى هاتفا ، يهزه الفرح المفاجىء ، المشوب بالخوف) الشعب .. الشعب .. الشعب عامل زيطه بره .

الحـــاكم : (مرعوبا) المصرى معاهم ؟ !

ابـو دراع : بيقولوا جاى بعد شويه .. أصله دخل البلد عن طريق الترعة فى الليل ..

الحـــاكم : هوه فين دلوقتى ؟ !

ابـو دراع : بيقولوا عند عربكش فى الغيط ..

أحد الباشوات : (متطلعا الى الحاكم) ايه .. فلاح مشاغب..

وذوه السجن .. مفيش غيره.. السجن تأديب وتهذيب واصلاح ..

الحـــــاكم : أيها الســـادة .. اسمحوا لى ان أقول كلمـة صغيرة .. ان كل واحـد منكم يتكلم حسـب هواه .. حسب الحلول التى تروقه هو .. نبعته للسجن .. سهل اوى .. لكن النتيجة ايه ؟ ! .. بلاش .. نكتفه ونرميه فى مخزن التبن .. او فى اوضة الجمـال .. برضـه النتيجة ايه ؟ !.. فيه ست تلاف حل وحل.. لكن احنا عاوزين الحـل المجدى المفيد .. اللى يخلصنا منه نهائى .. البلد متحـاصره صحيح .. مفيش حاجه بتطلع منها ولا حاجه بتخشلهـا .. والمطرودين بره .. بس انـا راخر متحـاصر هنـا .. عينى ما تغفلشى فى الليل .. بافضل صاحى بالساعات .. لغاية الفجر ، لمـا عينى تعسل فى الآخر شوية .. قلقان.. العساكر زى النمل حواليه صحيح.. لكن قلوبهم فين ؟ ! معرفشى .. معاى ؟ .. ضدى ؟ !: الله أعلم.. بيحبونى.. بيكرهونى.. (صمت) .. أطلع فى وشوشهم الاقيها زى الحجر .. لا ضحكة ولا بسمة ولا لمحة أمان.. أطلع أكتر واكتر فى عينيهم ابص الاقى الأرض حتقع بى .. مقدرش أعرف حاجه .. (يركن على الجدار) لامؤاخذة .. دايخ .. دايخ ..

الأمـــــير : (يومىء اليه) تروح بلد تانيه .. ونجيب واحد بدلك ..

الحـــــاكم : مش حـل برضـه ! .. ما هو فى كل حتـه بلاوى .. أنا تعبت من اللف فى البلاد بقى .. خلينى فى التشريفات أشم شوية هوا ..

الأمـــــير : (يتبادل الكلمـات مع الباشا المجاور) أوى أوى .. دى حاجه سهلة أوى .. بس شـد حيلك عشان الفلاحين ما يطمعوش فينا .. فوق ياخى فوق !

الحـــــاكم : (ببعض الأمل وبانحناء) انشاء الله انشاء الله .. شكرا لأميرنا العزيز .. حنـدبح كام عجـل النهـارده ؟ !

الأمـــــير : تلاته كفايه ؟ ! ..

الحـــــاكم : خليهم خمسة يمكن يسكتوا ..

(يزداد اللغط ، ثم يندفع محمد المصرى وحوله مجموعة من الفلاحين الهائجين ، يحل الصمت المفاجىء ، يتخذ الحـاكم سـمت الرزانة من جديد ، يخطو نحـو المجموعة ببطء ليفحصها) .

الباشا الأديب : الم أقـل لكم .. لقد تحققت نبوءتى . أيهـا السادة .. ما أشـبه الليـلة بالبارحـة .. ها نحـن نواجـه نفس الموقف بعـد آلاف السنين .. نحن نريد أن ندخل الفرح والمتعة الى قلوبنا ، ولو لساعات قليلة .. وهـؤلاء الفلاحون يريدوننا أن نفتم ونأسى ونحزن .. وكأن الحيـاة لابد أن تحمـل بين طياتهـا

المعنيين معا .. الفرح والحزن .. والسعادة والتعاسة .. الأبيض والأسود .. (يصمت) خذوهم باللين ربما انصرفوا .. وأراحوا أنفسهم وأراحونا .. فى الحق ان ضمائرنا لتتعذب فى بعض الأحيان من أجلهم .. ولكن ينبغى عليهم أن يدركوا قيمة المعروف الذى نسديه اليهم .. قوم همج .. متأخرون .. نحاول انتشالهم من وهدة العدم الى دنيا جديدة .. دنيا الحضارة الحديثة والعالم الجديد .. ولكن لا فائدة .. لا فائدة ..

المصرى : كلام فارغ .. انتو عاوزين تنهبونا بس .. تمصونا زى القصب وترمونا تفل .. أظن فاكرينا حنفرح لما تحطوا لنا صندوق بوسطة وللا راديو على الشجرة ؟ ! ..

أبو دراع : بطل يا محمد ..

الحاكم : (شادا من قامته) ولا أنا عارف نهارك مش فايت .. حتعك على دماغك ودماغ البلد من أولها لآخرها فى النهاية .. حتودى نفسك فى الحديد .. وتحرم الناس من اللحمة ..

اصوات من الخارج : اللحمة .. اللحمة .. اللحمة .. عاوزين لحمة ..

اصوات اخرى : مش عاوزين .. مش عاوزين .. مش عاوزين.

الأمير : (الى الحاكم) ادبحوا عشر عجول ، كفاية ؟ !

الأصوات : اللحمة .. اللحمة .. اللحمة ..

اصوات اخرى : بوسطه اونطه .. راديو اونطـه .. كشـافه أونطه .. هاتوا بهايمنا ..

الحـــــاكم : آل عاوزين بهايمهم آل .. والله ماهم واخدين اللضا .. (بجدية) عساكر .. يا عساكر .. فرقة .. جمع .. (تتحلق مجموعة العساكر بالمصرى) .

ابـو دراع : انى قايله .. والله قايله ..

احد الباشوات : قايله ايه ؟ !

ابـو دراع : هو عارف .

الباشـــــا : طب متحـاول تهبطه شـويه احسن دا غليان حيسلسل فى الحديد ..

ابـو دراع : (بمسكنة) غلبت فيه والله .. عاوز يشـقلب الملكوت .. يجيب اللى فوق تحت .. واللى تحت فوق .. اطلب منكو السماح .. السماح لربما ينهدى .. السماح النهـارده بس .. (يتهدج) .

الحـــــاكم : سامحنـا كتير .. عمالين نهدهد فيه بقالنـا زمن .. مقوم البلد على رجل .. كل يوم زى الخـازوق يطـلع لى فى حتـــه .. مرة على الكوبرى .. ومرة فوق الجبـل .. ومرة فى الترب ..

الأمــــــير : (برقـة) تعبـان .. شـكله زى التعابين .. (يتراجع) ما ادرش ابص له اكتر من دقيقة.. يا بابى دا نفسه ياكلنى ..

الباشا الأديب : ليسترح أميرنا العزيز .. (يقدم اليه مقعدا) هذه ملهاة مؤلمـة كتب علينا ان نعيشها .. لو كنا عارفين كده .. كنا رحنا حمام الجوهرة .. أو قصر السحاب ..

الحـــــاكم : (يقترب من المصرى) حاجه غريبـة .. تقدر تفهمنى انت ناقصك ايه ؟..آكل .. شارب.. نايم .. سـلطان زمـانك .. لا حـد قـرب ناحيتك ، ولا قالك تلت التلاته كام ؟ ! لكن برضه متفرعن .. نداديك السكات .. نتحايل علىك .. وانت سايق فيها .. (بحدة) على العموم لازم نحلق لك شـعرك وشنبك الأول (يصفق بيديه) انده المزين يابو دراع ..

(يهرول أبو دراع الى الخارج مترددا).

احد الباشوات : يعنى حتعملوه مسخـة قدامنا .. احسن .. عشان غيره ياخد عبره ..

الحـــــاكم : (يضحك) ابدا .. دا ولاد حرام كلهم..ملناش شغلانه الا الحلاقة كل يوم .. عمالين نجز فيهم زى الغنم .. بيهربوا منا فى الغيطان .

أبـو دراع : (يعـود ، ثم بخبث) مش لاقى المـزين .. بيقولوا راح يطحن ..

الحـــــاكم : وده وقت الطحين المغفل ده .. هو مش عارف ان فيه حالة طوارىء على طول !

أبـو دراع : ماهو كان سهران طول الليل على الكلوبات .. حيعمل ايه .. غلبان !

الحـــــاكم : خلص كام راس ؟ !

ابــو دراع : (بسخرية) ما تعــدش .. ميه .. متين .. تلتميه .. اصله بيفوت بالمــاكينة على راس النفر من الأول ألآخر (يقلد من يحــلق وهو يضحك) كده .. وبعدين يسيبه .. ربنــا يسهله بقى .. هو حر عاوز يحلق يحلق .. مش عاوز يبه شكله انتيكا .

احد الباشوات : دا يكون منظرهم لطيف أوى .. كنــا عاوزين نشوف واحد منهم ..

ابــو دراع : يا سيدى .. اهم مترميين فى كل حته .. اطلع بره بس ..

الأصــــوات : اللحمــة .. اللحمــة .. عاش الأمير .. فى متحف الطيور .. عاش .. عاش .. عاش .

الحــــاكم : (الى المصرى) ســامع اياك تحس بقى وتقفل بوزك .. انى حطيت صــوابعى فى الشــق منك .. تقدر تقولى انت عاوز ايه بالظبط ؟!

المصـــــرى : ابو دراع قالها من حبتين .. كلمــة حكمــة صحيح ..

الحــــاكم : قلت ايه يابو دراع ؟ !

ابــو دراع : مش فاكر .. يعنى هوه بيسمع كلامى .. لمــا حفتكر قلت ايه !

الحـــــاكم : (الى المصرى بحـدة) بقـول لك عـاوز ايـه بالضبط ؟ !

المصـــــرى : ما قالها أبو دراع .. اسـأله كده .. اهـه قدامـك ..

الحـــــاكم : (بضيق الى ابو دراع) ما تتكلم بلاش وجـع دمـاغ ..

ابـو دراع : (يتذكر ، واصبعه على جانب راسه) آه .. افتكرت .. عـاوز يشقلب الملكوت .. البلد يعني يجيب اللى فوق تحت .. واللى تحت فوق .. مش كده برضه ؟ ! ..

المصـــــرى : (بصلابة) كده تمام ..

الحـــــاكم : (باستغراب) مش فاهم .. دى خترفه دى!.

المصـــــرى : مش خترفـه ولا حاجـه .. لازم الدنيـا تتعدل .. أصلها مقلوبة دلوقتى .. لابد نعدلها عشـان كل واحـد يستريح .. يعيش حـر فيهـا ..

الحـــــاكم : (يضرب كفا بكف) لا حول ولا قوة الا بالله .. هو انا اتقطعت لك خلاص .. ماليش شغلانه غيرك .. (يتطلع الى الأمير) عـذرا أميرنـا العزيز عذرا ..

الأمـــــير : اسمه ايه دا ؟ !

الحـــــاكم : اسمه محمد المصرى عبد الرسول ..

الأمـــــير : آه .. دا بابى كان بيحذرنى منه ..

الباشا الأديب : (مقتربا منه ، ثم بميوعة) تعبان .. ياى .. هكذا كانت معظم الحيوانات والزواحف قديما .. تفترس الانسان وتحاول التهامه . فلما أطعمها انست به .. وانس بها .. فعاشت فى كنفه راضية مرضية .. هذا الفلاح يحتاج أيضا الى ترويض .. عملية استئناس صعبة .. هل جربتم معه ؟ !

الحاكم : (بضيق) ياخرابى .. هوه انا خليت معاه حيله الا لما استعملتها ..

احد الباشوات : فيه حل واحد .. مفيش غيره ..

الحاكم : (يتطلع الى الأمير) اذا أمر أميرنا العزيز ..

الأمير : (يشير بيده علامة الموافقة) معنديش مانع .. معنديش مانع .. دا تعبان ..

المصرى : (يكتم غيظه) انى تعبان برضه .. (يصمت) طيب ! .

الحاكم : (يضرب بقدمه الأرض) مش حينفع الكلام ده .. فرقة .. جمع .. (تعود الفرقة نحو المصرى قريبة منه) .. امسكوه .. (ينقضون عليه ، ولكنه يهتف فيهم ثانية) وللا اسمعوا.. سيبوه .. كتفه انت يابو دراع ..

ابو دراع : (مضطربا) .. بس يعنى .. بس ..

الحاكم : كتفه يابو دراع بقولك ..

ابو دراع : (متقدما وفى يده الحبال) انى قايلك يا محمد

انى مش قابلك من بادرى .. ليه تحكم عليــه اكتفك ليه ؟ !

المصـــــــرى : (مقاوما) لايمكن .. والله لايمكن حد يكتفنى.. اوعى كده .. اوعى .. (يتقدم منه مجموعــة العساكر بسرعة يساعدون أبو دراع ، ثم أثناء عمليــة التكتيف) تكتفنى يابو دراع .. كده برضه تكتفنى يابو دراع .. دى آخرة العشرة الطويلة .. (بأسى) معلشى يابـو دراع .. مســيرك ترجــع لعقلك برضـــه .. ترد فيك الروح .. أنى وانت والزمن طويل ..

الحـــــاكم : خدوه .. بره .. بره ..

(يحملونــه وهو يرغى ويزبد ، ثم يبدا الستار فى النزول ، بينما يسمع صــوته وهــو يكرر ، وتهــون عليــك العشرة يابو دراع .. تهون عليك العشرة) .

ســـتار

الفصـــل الثــالث

المنظـــر الأول :

المكان زنزانة فى احد السجون ، تشع كآبة وقتامة . مجموعة من المحجوزين يفترشون الأرض . العجوز ضاربة الودع ، وعربكش والمصرى ، والشحات صاحب الجمجمة .

الوقت : فى الصــباح ، والضــوء يتســلل من بعض الكوى الصغيرة ، يظهر المصرى فى المقدمة مع عربكش .

المصـــــرى : معاكشى ســجاير يا عربكش .. يا أخى أنى مقريف قوى .

عــــربكش : لا والنبى .. كان فيه ربع من ليلة امبــارح اظن .. (يفتش جيوبه) .

المصـــــرى : هاته يا أخى .. مش تعمل حسابك من هنــا ورايح .. انت بتقسمها كام ؟ !

عــــربكش : تلاته .. أربعه .. حسب النصيب ..

المصـــــرى : يا سيدى اقسمها خمسه ..

عـــــربكش : تبه الحته نفس واحد بقى .. مش معقول ! .

المصـــــرى : (يضحك) يعنى .. اهى حاجة تسلك المزاج وخـلاص ..

عـــــربكش : (مايزال يفتش فى جيوبه) مش لاقيهـا .. راحت فين بنت الكلب ؟ !

المصـــــرى : تلاقيك شربتهـا ونسيت .. (متطلعـا الى الشحات) ما معكشى .. (يشير بأصبعه الى فمه) .. هيه دنيا..زى مابيقول أبو دراع..

عـــــربكش : فكرتنا بأبو دراع ..

المصـــــرى : هوه اللى كتفنى قصـــادهم ! لو خمســين عســكرى كتفونى انى مازعلشى .. شــغلهم كده .. مأمورين .. انما صاحبى .. اللى كلت معـاه عيش وملح .. وعاشرتـه على الحـلوة والمرة .. (يصـمت ووجهــه الى الأرض) يكتفنى .. صعبة قوى على النفس .. صعبة قوى يا عربكش ..

عـــــربكش : أبو دراع كان فاهم انه لمـا يروح يحـارب حيعملوله تمثال .. ماهه آلاف الناس بتروح تحارب .. وميات بتموت .. ولا حد بيســمع بيهم ..

المصـــــرى : صعبان عليه مع كل اللى عمله فيه ياعربكش.. لو شفتـه زمـان ماكنتش تصـدق أنه هوه ابو دراع اللى قدامك النهارده .. دا ياما وقف

ضد حكام وظلمه .. عرض نفسه للسجن والتشريد برضه .. وقعد على البرش زى ماحنا قاعدين دلوقتى .. بس جه فى الآخر وخاف .. متعرفشى ايه اللى شحنه بالخوف ده .. (يصمت) هيه .. مسكين .. الدنيا ضربته كام ضربه قويه نام فى الخط .. سلم سلاحه ليها .. عزيمته انشلت تمام !

عربكش : دا دوخنى وانت بره .. ياما تحايلت عليه يقف معاى .. مفيش فايدة .. أقوله طور .. يقول احلبوه ..

المصرى : هوه كده دماغه صلب .. لكن عقله كبير .. لو قدرنا نرجعه لأصله يبه عال العال .. دا كهين قوى ..

عربكش : واحنا حناخد من عقله ايه ؟ ! مادام هوه نفسه مش معانا ..

المصرى : يا سيدى .. بكره ربنا يهديه ومينساش ايام زمان .

عربكش : على الله .. لكن دانت قلبك طيب قوى يا مصرى ..

المصرى : يابنى الدنيا تعب .. صعبه .. أدى احنا بنكاحر فيها صحيح .. بس تعبانين .. هوه اللى شفته وللا اللى شافه ابو دراع قليل .. شوف لى واحدة فى اى حته .. خبط على الجيران يمكن تلاقى عندهم .. (يضحك) .

عــــــربكش : يعنى انت عندك امــل فى ابو دراع بعد اللى حصــل ؟ !

المصـــــــرى : الواحد مضيعشى الأمل ابدا .. مش بعيد ترد فيه الروح ..

عــــــربكش : (بفرح) لاقيت ربع اهه .. خد (يقدم اليه ربع سيجارة) .

(يدخل احد العســاكر قبل ان يكمــل المصرى بقية السيجارة) .

العســـــكرى : صباح الخير يا شعب .. انتوا لسه نايمين .. اصحوا بقى عشـــان طابور الصبح .. قومى يا كركوبه .. شدى حيلك ..

ام الغيـــــط : (زاحفة تجاهه) طابور أيه ياخوى..مقدرشى اقف .. بخــاف اقف .. كل ما بقف أقع .. دانى ركبى مخلعه ..

العســـــكرى : ايه ؟ .. بقف أقع .. يعنى ايه ياقرمه ؟ !

ام الغيـــــط : يعنى كل ما آجى اقف أقع ..

العســـــكرى : آه .. ولو برضه .. كلكم حتقفوا وتجروا .. وتعملوا محلك سر .. والى الأمــام انظر .. ومعتدل مارش .. وتنطوا الحبل كمــان .. (يضحك) .

ام الغيـــــط : (برجاء) والنبى سامحنى .. انى زى والدتك برضـــه ! .

العســـــكرى : بس يامره بلاش هلوسه .. والدتى مين ..

قطـــع لســـــانك .. ياللا يا عربـكش ..
ياللا يا مصرى .. قوم يا خوى معــاى مش
ورانا فاضي .. (بيــده) هــه .. هب ..
هب ..

(ينهض الجميع بغضاضة وفتور) .

العســكرى : كله قدامى هنا .. (يفرد ذراعه الى النهاية)
حذا هنا قدام دراعى .. حذا يا شـعب ..
اســمعوا الكـلام كويس .. النهــاردة فيــه
تفتيش .. يعنى اللى يلعب بديله كدهوللا كده
انتو عارفين ؟ !

المصــــــرى : تفتيش عليكو .. مش علينــا .. اللى عاوز
يفتش يفتش على نفسه ..

العســـكرى : علينا وعليكو .. ماحنا اداره واحدة دلوقتى..
مش انتو بتوع حادثة المتحف ؟ !

المصــــــرى : آه .. هيه بقت حادثة ؟ ! .

العســـكرى : امال .. مش اعتداء على الأمير والحاشــية ..
حذا .. كل واحد يحاذى على اللى قدامه ..
حقول محلك سر .. عاوز كل واحد مطرحه..
مايتنقلشي سنتى واحد .. (بصــوت مرتفع)
محلاـك .. لأ .. حاذى كويس قبل ما تعمل
محلك سر .. حاذى .. حاذى .. (محذرا)
وبعدين ؟ ! (يصمت) هــه .. محلا ـ ك ..
سر .. آيوه .. حلو .. واحد .. اتنين ..
واحد .. اتنين .. تمام .. واحد اتنين ..

على طول .. ياللا .. (ثم بكفيه متابعا) هه .. هب .. هب .. هب ..

المصـــــرى : (بعد مدة وبظرف) رجلينا وجعتنا يا شاويش .. ايه الاستكراد ده .. (يضحك، ثم يكف عن الحركة) .

العســـكرى : لأ .. مش كده بقى ! استمر .. دى رياضة حلوة على الصبح ..

المصـــــرى : رياضة بالعافيه دى .. (يستمر فى الحركة من جديد) .. واحد .. اتنين .. واحد اتنين ..

العســـكرى : اللا .. اللا .. انتو حتمشوا على كيفكم ؟ !.. مجموعة .. قف .. فين الشحات بتاع الجمجمة ؟ ! .

الشحــــات : (بخطوات متعثرة) انى يا شاويش .. والله لاقيها فى السكة .. لاقيها والله ..

العســـكرى : حد داس لك على طرف .. ومالك مهكع كده ليه ؟ !

الشحــــات : والله لاقيها يا شاويش .. لاقيها ..

العســـكرى : لاقيها مش لاقيها .. ايه اللى خلاك تخش البلد (يهوشه بيده ، فيتراجع) قرب هنا .. خد .. احنا حنفضل نقرد فيكم ياولاد الرفضى .. مش كفاية الواحد قايم على الريق محطش لقمه فى حنكه .. والله طول الليل

حاطط على سدرى كابوس زى الغمه . ارجعوا مكانكم بسرعة ..

(يعودود وهم يلهثون) .

عـــــربكش : كل يوم نقوم من نفسينا بقى نعمل الرياضـــة دى ..

المصـــــــرى : لأ .. أهـــه أنت طبه فى الحتة دى .. دانى لعبت النهارده بس عشان أشوف الجو ..

عـــــربكش : طب واذا ضربونا ؟ ! .

المصـــــــرى : نتحمل .. امال رجاله ازاى ؟ !

أم الغيـــــط : (مذعورة) عملتوا الطابور ياخوى .. قـــال عاوزين أقوم قال ..

عـــــربكش : المصرى اهـــه يا أم الغيط .. كنت بتقولى حيدخل البلد فى شبريه .. زى العروسه .. اهه دخل أهه ..

ام الغيـــــط : يادى الحوسه .. وانى ايه اللى كان حشرنى الحشره الهباب دى .. وللا لو كنت أعرف كده ما كنت عتبت ناحية الملقا ..

عـــــربكش : معاك الودع ؟ ! .

ام الغيـــــط : (مقتربة منه بخوف) أيوه .. أمال .. وانى اقدر اروح فى حته من غيره .

عـــــربكش : طب ياللا ورينا البخت خلينا نسلى ..

ام الغيـــــط : (تضـــع منديلها أمامهـــا ثم تخرج الودعة ،

افتعطيها للمصرى) خد يا ضناى وشوش الدكر ..

المصرى : (يضحك) أوشوش !

ام الغيط : (تنظر فى الرمل مبحلقة) طلعت الشوكة يا نضرى .. بطلوا جرى وراك .. سكتوا أهم .. فيه طريق مفتوح لك .. واحد بتحبه وهو بيحبك .. بس فيه ناس غاويينه ..

المصرى : أول حرف من اسمه إيه ؟ !

ام الغيط : الف ياخوى .. ألف ..

المصرى : ابو دراع .. مش كده .. (يضحك) .. يا قرشانه الكلب .. بطلى بقى .. ورقك انكشف ..

ام الغيط : (بلهفة مصطنعة) والنبى السكك متفتحه قدامك .. الناس كلها مشغوله عليك ..

المصرى : كتر خيرك .. انشاء الله حتقعدى معانا سنتين تلاته .. ما أنت بقيت تبع المطرودين خلاص..

ام الغيط : سنتين تلاته .. ياخرابى .. (تلطم وجهها نادبة) يا خراب بيتك يا أم الغيط .. يا خراب بيتك يا أم الغيط .. هوه أنى عملت ايه ؟ !

المصرى : كنت فى الملقا مع عربكش وأبو دراع ..

ام الغيط : وايه يعنى .. دانى كنت باكوش شوية حطب اولع بيهم ..

المصـــــرى : أهه .. اعتبروك ضمن الهوجه .. حظك كده بقى ! .

الشحـــات : وانى عملت ايه انى راخر .. دانى (صمت) راجل على باب الله .. سواح من بلد لبلد ..

عـــربكش : (مقلدا اياه) طالب من الله .. ولا يكتر على الله رغيفين عيش طرى ، ومترد لبن حليب ، وخمسة صاغ .. وواحد يلمهم لى (يضحك) سجنكو أنس انشاء .. خير اللهم اجعله خير ..

(يدخل رجـلان مطأطئى الرؤوس وراء بعضهما) .

الرجل الأول : انتو بتوع المتحف ؟ ! .

عـــربكش : أيوه .. ضيوف جداد ..

الرجل الثانى : لقطونا من الجرن .. ملنـاش دعوه بحاجـه والنبى ..

الرجل الأول : ضربونا لمـا عدمونا ..

الرجل الثانى : (يتهالك) حيظلمونا لمـا يحبسونا ..

(يتقدمان تجـاه المجموعـة ، وكأنهمـا يؤديان أحد التراتيل الدينية) .

ضربونا .. عدمونا .. ظلمونا .. حبسونا ..
ضربونا .. عدمونا .. ظلمونا .. حبسونا ..

عـــربكش : اقعدوا اقعدوا .. أهه قعده وآخرتها الفرج..

المصـــــرى : آه لو ترد فيه الروح ! ..

عـــــربكش : ابو دراع برضه ؟ !

المصـــــــرى : هو فيه غيره ؟ !

عـــــربكش : مفيش فايده منه .. والله ما فيه فايده ..

المصـــــــرى : يتهيألك يا عربكش .. دانى مجربه .. تلاقيه مخزن من جواه دلوقتى .. مايبانشى عليــه صــحيح .. لكن قلبــه مزحوم .. دا عشرة العمر كله يا عربكش ، صعبان عليه عشرة العمر كله .. الأيام اللى قضيناها سوا على الخير والشر .. دا أول سجن يفارقنى فيه ..

عـــــربكش : احنا فى البلد كلها يا مصرى .. مش فى ابو دراع بس ...

المصـــــــرى : ما هى البلد حله وأبو دراع مغرفتهــا .. له دلال عليها (بضيق) آه لو ترد فيه الروح زى ما قال ..

عـــــربكش : كل شيء بأوان .. لا بربما .. المهم عــاوزين نشــوف نفسينا هنــا الأول .. المدة باينها حطول .. والواحد قرب يزهق ..

المصـــــــرى : ولا يهمــك .. اللى تصتصعبه النهــارده ، تستسهله بكره .. احنا نقدر نطاطى لكن كنا حنتعب أكتر وأكتر .. انت فاكر ان ابو دراع مرتــاح ؟ !

عـــــربكش : ابو دراع تانى ؟ !

المصـــــــرى : بكلم جد .. انت بتشــوفه لمض كده .. انما

أبدا .. دا متعذب من جواه .. أكل العيش مكتفه .. مش قادر يتلحلح ...

(تسمع أصوات استغاثة قريبا منهما تدل على أن هناك اناسا يتعذبون) ..

أم الفيط : (منتفضة) ايه ده يا نضرى..ناس بيضربوا.. الهى يتكسحوا اللى بيضربوهم .. هم ما عندهمش قلب ؟ ! .

الشحات : (مندفعا باستعباط نحو الخارج) .. طلعونى .. طلعونى .. أنى ما عملتش حاجه.. يا أسيادنا حرام عليكم .. حرام عليكم والله!..

العسكرى : (معترضا طريقه بضحك) لا يا شيخ .. فاكر انك خوفتنا .. بتهزر .. بس يا خوى .. بس .. ارجع مطرحك .. ارجع .. معدناش بناكل من الهث ده .. لو عاوزين يمدوك كانوا مدوك من زمان ..

الشحات : (باستعطاف حقيقى) سيبنى يا شاويش والنبى .. والنبى تسيبنى .. أنى ما عملتش حاجه مطلقا .. أنى راجل على الله .. ينوبكم ثواب تعتقونى .. (تزداد أصوات التعذيب ، فيزداد الشحات فى طلب الرحمة والمغفرة والتوبة) فى عرضك يا شاويش .. فى عرض عرضك .. هوه انت مش بنى آدم (يقترب منه الى أن يلتصق به ، تحت جناحه ، يطلب حمايته) .. دا الحجر بيلين .. طالب

السماح .. أنى كنت غلطان مش عارف ؟ !
يمكن غلطان ومش عارف ؟ !

المصرى : ما طلعوه .. مقعدينه معانا ليه ؟ ! .. دا مش من البلد .. بيدور على حسنة من هنا وللا من هنا ..

أم الغيط : طلعوه يا خوى .. طلعوه .. نطلع أنى وهوه والنبى ..

العسكرى : (بغيظ) بس .. ما تطلعوا .. وللا انشالله ما عنكو طلعتوا .. خوتونا .. انى عبد المأمور ..

عربكش : (بمرح)انت عبد وللا المأمور ..

العسكرى : عبد المأمور .. عبد المأمور يا بجم .. انى باكلم باللاوندى !

عربكش : باين عليك المأمور عبد .

العسكرى : احنا حنجحش أهه .. قوم ياد قوم .. قوم خد الجردل اللى هناك ده املاه وتعالى .. (مقتربا منه) رهوان ..

عربكش : أنى حقوم .. بس قولى قبله .. انت عبد المأمور .. وللا مأمور العبد ..

العسكرى : قوم قامك هفة ..

(يهرول عربكش الى الخارج وفى يده الجردل) .

المصـــــرى : على مهلك حبه يا شـاويش .. متستعجلشى أمال .. دستور منين ؟ !

العســكرى : ليه..انت حتناسبنى .. حتفتح لى محضر.. معرفه وللا معرفه ؟ !

المصـــــرى : يا اخى وماله .. مش كل الناس اخوات ..

العســكرى : من العدوه شرق تبع مركز الهويس ..

المصـــــرى : اللا ما انت تبه من أجوارنا بقى .. أمال مالك عامل حمش علينـا كده ليه ؟ ! . أنى عشت فى العدوه سنتين..وفى العدوه شرق سنتين.. تعرف محمد ابو قوره ؟

العســكرى : أيـوه ..

المصـــــرى : وعوده النبتيتى ؟

العســكرى : أيـوه ..

المصـــــرى : ايه رايك فيهم ؟ !

العســكرى : عين الكمال .. ميعرفوش العيبه ..

المصـــــرى : تعـرف أبو الفتوح أبو اليزيـد .. وزمزم أبو محمود الطواحينى ..

العســكرى : عين الكمال برضه .. دانت عارف البلد كليتها اهـه ..

المصـــــرى : مش بقولك ان انت من أجوارنا .. تعالى قرب على يا شيخ سلم على .. سلم على .. (يقترب

منه يسلمان ، بينمـا يدخل عربكش بالجردل مملواء) .

عـــــربكش : (مندهشا) ايه الموضوع ؟ ! طلعتوا أصحاب وللا ايه ؟ !

المصـــــــرى : بلديات يا عربكش .. بلديات ..

عـــــربكش : طب خليه يجيب لنا الشاى والسجاير بقى.. الواحد خرمان آخر تخريمه ..

المصـــــــرى : صبرك يا أخى .. انت.ملحوق على ايه ؟ !

العســـكرى : (بجدية ويده على جانب راسه) لأ..البلديات حاجه والظبط والربط حاجه تانيه .. آه .. اجرى يابنى كمل شغلك .. رش الحوش اللى الناحية دى ..

(يشير اليه بيده الى اليمين)

المصـــــــرى : صحيح يا عربكش ! البلديات حاجه .. والظبط والربط حاجه تانيه .. اجرى خلص شـــغلك الأول ..

العســـكرى : آه .. بعد ما يرش الجردل ده ، يروح يملاه تــانى .. ويرش .. ويمــلى .. ويرش .. ويمــلى .. ويرش .. لغايــة ما يخلص على الحوش كــله .. وانت بعــده .. (يصـــمت بسذاجة) .. آه .. البلديات حاجه والظبط والربط حاجه تانيه ..

(فجاة يدخل ضابط صغير السن) ..

الضـــــابط : فيه واحـد هنـــا اســـمه محمـد المصرى عبد الرسول ؟ !

المصـــــرى : (منتفضا) أنى .. أنى اهه ..

الضـــابط : تعا معاى .. وللا اسمع خليك .. لك زيارة.. بس تخلصها بسرعـة .. تاخد منه أكل زى ما أنت عاوز .. لكن أوعى العدد والآلات .. والأمواس والسكاكين والمطـاوى .. فاهم .. خد بالك يا عسكرى ..

العســـكرى : (يضرب تعظيم ســلام مع حركة قدميه) .. حاضر يافندم ..

الرجـــلان : (فى نفس واحد) .

ضربونا .. عدمونا .. ضربونا .. عدمونا

ضربونا .. عدمونا .. ضربونا .. عدمونا

الضـــابط : (عائـدا) الزاير اهـه .. زى ما قـلت لك يا عسكرى ..

المصـــرى : (بهدوء وهو يتأمل الزائر) .. أبو دراع ؟ ! .

أبـو دراع : (بأسى) أبو دراع يا محمد .

المصـــرى : طله عجيبه دى ..

ابـو دراع : لا عجيبـه ولا حاجه .. احنـا حنجدد على بعضنا ..

المصـــــرى : تكتفنى يابو دراع ؟ !

ابــو دراع : ماتفكرنيش يا محمد ! .

العســـكرى : (يقعد على أحد المقاعد ليستريح) هه وآدى قعده .. الله يخرب بيته كابوس .. مخلنيش اعرف انام ..

ابــو دراع : اخوك وكتفك يا محمد ..

المصـــــرى : اخويــا يستحيــل يكتفنى قــدام النـــاس يابو دراع ! .

ابــو دراع : تعبتنى يا محمــد .. اعمــل ايه ؟ ! .. قلت يمكن تعقل ..

المصـــــرى : يعنى الناس كلها مجانين وانت اللى عاقل ؟ !

ابــو دراع : بلاش تجيب سيرة الناس احسن .

المصـــــرى : ايه يعنى .. كلوا اللحمة ؟ !

ابــو دراع : آه .. وفتوا فى المرقة ..

المصـــــرى : وماله .. بيفرقوا عليهم كل سنة .. يأكلوهــا من هنا .. ويرجعوا زى ما كانوا من هنا ..

العســـكرى : (وهو يجاهد النعاس) ياللا بقى ياخوانا أحسن الزيارة قربت تخلص ..

المصـــــرى : اطمن .. استريح أنت بس ..

ابـو دراع : (يشير اليه) الراجل تعبان .. أول ما حط راسه نعس .

المصـــرى : دا بلدياتنا ..

ابـو دراع : منين ؟

المصـــرى : من العدوة شرق .

ابـو دراع : طب احنا فين والعدوة فين ؟ ! .. طول عمرك غاوى معـارف كده .. تشبك العالم كله فى بعضـه ..

المصـــرى : يا سيدى .. البلاد كلها نافده على بعضيها .. اصـله حيساعدنا عشـان (يشـير بيده الى الخـارج) .

ابـو دراع : (مأخوذا) انت ناوى تعملها برضه ؟ !

المصـــرى : امال ! يعنى استنى لغاية مانعدم هنا ! .

ابـو دراع : المرادى ان مسكوك حتبه داهيه سوده ..

المصـــرى : ولا يهمك .. ربنا معانا ..

ابـو دراع : والنـاس دول ؟ .. همـه اللى حيـاكلوا العلقـة ..

المصـــرى : يا سيدى .. يحلها الحـلال .. حد عـارف بكره حيحصل ايه ؟ !

ابـو دراع : حيحصل ايه يعنى ؟ .. كل حاجه زى ماهى.. وانى عديت الكوبرى بالعافيه .

المصــــــرى : امال واحد غيرك كان يعمل ايه ؟ !

ابــو دراع : انى عارف يا اخى ؟ !

المصــــــرى : (بالحاح) تكتفنى برضه يا ابو دراع ؟

العســـــكرى : (وهو يشخر) الزيــارة خلصت ياخوانا .. يااللا بقى ..

المصــــــرى : اطمن بس .. خليك مستريح ..

ابــو دراع : نفسى ربنا يهديك يا محمد ..

المصــــــرى : والنبى انت عبيط يابو دراع هو انى عيــل صغير .. دا حرب يابو دراع بينا وبينهم .. طار بايت بقاله الف الف ســـنة .. من عهد جدود جدود جدودنا .. لا أنى أول واحــد ولا آخر واحد دخلت الحرب دى .

ابــو دراع : بس الناس ساكتين يا محمد ..

المصــــــرى : معــذورين يابو دراع .. كلهم متكتفين زى ما كتفتنى انت ! .. خلى واحد بس يتربس فى الخط .. يقول لأ ..

ابــو دراع : حينطرد من النجمه طبعا ..

المصــــــرى : ولمــا واحد تانى يعصلج ..

ابــو دراع : ينطرد برضه ..

المصــــــرى : وواحد تالت ؟ !

ابــو دراع : على طول بره ..

المصـــــرى : (بحـدة) حيطردوا عشرة عشرين تلاتين .. لكن لا يمكن يطردوا الناس كلهم يابو دراع .. البلد حتصفصف على روسـهم بقى .. يعنى حيقعدوا يقشروا بصل فيها ..

عـــربكش : (يدخل متعبا) نفسى ارتاح شـويه .. ايديه بقبشت من شـيل الجـردل (يتطـلع فـيرى أبو دراع) مش معقول ؟ ! .. جبنا سيرة القط جـه ينط .. (يسـلم عليـه)وللا زمـان يابو دراع ..

ابـو دراع : وللا زمان يا عربكش ..

عـــربكش : أم الغيط أهه .. شفتها (يسير اليها) ..

ابـو دراع : شايفهـا .. حـاشره بوزها فى اللى ملهـاش فيه .. تكديه .. جايبا لنفسها الغم .. فين الودع يا أم الغيط ؟ ! .

ام الغيـط : معـاى يا خوى .. معاى .. طلع الشوكه من رجـله ، بس لسـه بيجروا وراه .. وهـوه بيجرى قدامهم .. همه بيجروا وهوه بيجرى.

ابـو دراع : دا قاعد أهه .. لا بيجرى ولا حاجه ! .

ام الغيـط : انى باكلم على اللى شـفته .. ماليش دعـوه بحـد .. الودع ما يكـدبش أبدا ياخـوى .. مجرباه .. والنبى مجرباه !

المصـــرى : وللا كلامها فيه البركة .. عاوزين نتخلص من الشوك والمطبات اللى فى سكتنا ..

العسكرى : (وهو ما يزال يشخر) الزيارة خلصت يا خوانا .. خلصت ..

المصرى : عاوزك تشد حيلك شويه معاى يابو دراع ؟ ! .

أبو دراع : قولى اى حاجة معقوله بس.. وانى متأخرش..

المصرى : (بجدية وحدة) تسيب الخفر ..

أبو دراع : وآكل عيشى منين ؟ !

المصرى : حتلاقى ستين حته تأكل فيها عيش .. خد ارضى ازرع فيها زى ما انت عاوز .. خد أرض عربكش ..

أبو دراع : بس انى زعلان من البلد من زمان ..

المصرى : ما هى البلد زعلانه منك رخره ..

أبو دراع : وانى عملتلها ايه ؟ !

المصرى : سايبها لايصه .. ورايح تحرس حتة متحف لا طلع ولا نزل !

أبو دراع : وانى حعمل ايه انى لوحدى ؟ !

المصرى : انت وانى وعربكش وكل الناس روح البلد يابو دراع .. لو ترد فينا الروح .. حترد فيها برضه ..

أبو دراع : امبارح حلقوا لأربع عزب ..

المصرى : ولو .. حاسب على راسك انت .. الشعر اللى بينقص بيطول تانى ..

ابـو دراع : هوا كل المحاصيل من الأرض .

المصـــــرى : معلهش .. فيه محاصيل كتير جايه ..

ابـو دراع : موقفين نقطة على كل مفرق من مفارق البلد !

المصـــــرى : العساكر غلابا.. كل واحد عاوز يرجع لبلده.

ابـو دراع : رحلوا خمستاشر امبـــارح فى غمضـــة عين ..

المصـــــرى : يرحلوا .. مســـير كل حى يرجع لوطنـــه ..

ابـو دراع : الناس خايفين من السجن .

المصـــــرى : حيدنهم خايفين ، قلبهم بيدق ، يدق ، لغاية ما يتمسكوا .. يبه خلاص .. يستريحوا آخر راحه .. يصبحوا زى المتوقين..يمكن احرار اكتر منهم ..

ابـو دراع : الحاكم معلق الجمجمة فى الملقا .. عند الدكاكين. عشان اللى رايح واللى جاى يشوفها ..

المصـــــرى : متخافشى .. همه خايفين أكتر منا .. الظالم بيخاف أكتر من المظلوم ..

العســـكرى : (وهو يشخر) الزيـــارة .. الزيـــارة خلصت ياخوانا .. ياللا بقى .. (يتململ) .

ابـو دراع : جايبين كلوب معلقينه جنب الجمجمة عشـــان تنور فى الليل ..

المصـــــرى : مش حنخلص بالطريقة دى يابو دراع .. المهم دلوقتى قبل بلدياتنـــا ما يصحى انى عـــاوزك تسيب الخفر ..

ابــو دراع : واكل العيش يا محمد ؟ !

المصـــــرى : مش حتموت من الجوع .

ابــو دراع : أما أشوف .. ربنا يصلح الأحوال .. بس مش عاوزك تزعل منى اكمنى كتفتك !

المصـــــرى : توكل على الله ..

(ينهض ابــو دراع بعد أن يترك منــديلا مكانــه) .

ابــو دراع : مع السلامه يا محمد .. شد حيلك ..

المصـــــرى : مع السلامه يابو دراع .. الشده على الله ..

(يحتضنان بعضهما بحنان) .

ابــو دراع : مش هاين على أسيبك يا محمد !

المصـــــرى : اتوكل على الله دلوقتى يابو دراع !

ابــو دراع : مش هاين على ..

المصـــــرى : (مشيحا بوجهه وهو يحبس دموعه) اتوكل على الله .. مش وقته ..

ابــو دراع : صعبــه على نفسى قوى .. (يمســك ذراعــه فجأة الجرح بينقح على .. آى .. آى ..

عـــــربكش : هه .. دلوقتى يقول البلد ما يتمرشى فيهــا المعروف .. مش كده ؟ !

ابــو دراع : انت لســه صغير يا عربكش .. بطل هبل .. احسن عيب لمــا تغلط فى .. انى بتوجع واقول

كده من ضيقتى .. انت حتحب البلد أكتر منى .. دا مفيش خطوة أمشيها الا لما يجى على خاطرى حاجه حصلت زمان (يكتم دموعه) بحبها من قلبى .. بس ساعات أفضل أناقر فيها .. وهى تناقر فيه .. زى ما يكون واحد ميت فى دباديب واحدة .. بس يفضلوا يناقروا فى بعض طول النهار ...

عربكش : يعنى حتبطل مناقرة معاها من هنا ورايح !

ابو دراع : يابنى انت لسه ورور .. مستوتش ..

المصرى : بطل زن بقى يا عربكش .. سيبه فى حاله ..

عربكش : يعنى معانا وللا معاهم .. اصلى حدخل البلد قريب ...

المصرى : بس يا عربكش .. خليك عاقل ...

ابو دراع : لا معاكو ولا معاهم .. احنا بنلعب استغمايه.. انى مع نفسى ..

المصرى : مع السلامة يابو دراع .. (مغالبا تهالكه) نطمن عليك على طول ..

(يحتضنان بعضهما مرة ثانية ، يخرج ابو دراع ووجهه لا يفارق المصرى الى ان يختفى بهدوء) .

المصرى : خبريه يا عربكش .. جرالك ايه ؟ !

عربكش : انى عملت حاجه ..

المصـــــرى : الخلاصه .. متعطلنيش .. الحوش اللى جنبنا ده طالع على فين ؟ .

عـــــريكش : (بيقظة) .. طالع على بره ليه ؟ !

المصـــــرى : طيب انى حاخد الجردل أعمـل نفسى برش وافلت من فوقه ..

عـــــربكش : دا مدروز عساكر ..

المصـــــرى : متخافش .. كلهم بلدياتنـا .. (يضحك ، مشيرا الى العسكرى النائم) .

العســـكرى : (يتململ قليلا) الزيارة خلصت ياخوانا ... (ينعس ثانية) .

عـــــربكش : طب ما نهرب سوا ونخلص ؟ .

المصـــــرى : لا ... خليك انت .. أحسن ننكشف ..

عـــــربكش : طب حتروح فين بعد ما تهرب ؟ !

المصـــــرى : على البلد .. هو فيه حته غيرها ؟ !

عـــــربكش : حيمسكوك تانى ! .

المصـــــرى : مش حروح على طول .. حفيب سنتين تلاته بره .. وبعـدين أفاجئهم .. وانت برضـه لو هربت أو طلعت ضرورى تعمل كده !

(ينهض وفى يده الجردل المملوء ، متجها الى الخارج) .

هيـلا .. هب ..

عبـــربكش : (متطلعا الى المنديل الذى تركه ابو دراع).. خد .. استنى .. شوف ابو دراع جايب لك زيـارة .

المصـــــرى : (يعود ليفتح المنديل) والله فيه الخير..جايب عيش وجبنه قديمه .. (ينفض المنديل) ايه وعلبة سجاير كمان .. عال .. عال .

عبـــربكش : (قافـزا اليه) سجـاير ؟ ! .. لايمنى على واحده لايم .. الله اكبر .

المصـــرى : هس .. أحسن البلديات نعسان ! ..

عبـــربكش : (بهمس) طيب .. معاك كبريت ؟

المصـــرى : ايه ولع على مهلك بقى .. سبتك بعافيه ..

عبـــربكش : انشاء الله وراك .. ضرورى ادخل البلد انى راخر .. دا بلدنا ومنقدرشى نبعد عنها ..

ام الغيـــبط : (وكأنهـا تحلم) روح الهى يجعل فى وشـك جوهرة وفى حنكك سكره .. ويكتب لك فى كل خطوة سلامة ..

عبـــربكش : يســمع منك ربنـا يا أم الغيط .. تاخـدى سيجاره بقى ؟ .

ام الغيـــط : (زاحفـة اليه) آه والنبى يابنى .. يبه كتر خيرك ..

العســكرى : (يستيقظ فجأة) الزيارة خلصت .. خلصت من بدرى .. (ينظر حواليه) راحوا فين ؟!.. بيرش بره .. (ينحرف الى نهايـة المسرح)

المصرى راح فين .. راح فين يا عربكش ؟ !
يانهار اسود (يذرع المسرح ذهابا وايابا فى حالة عصبية ، ثم يدخل الضابط صغير السن ومعه بعض العساكر) .

الضابط : المسجون هرب يا عسكرى وانت قاعد نايم .. نهارك نيله .. حتتقدم لمجلس تأديب ..

العسكرى : هرب .. يا خراب اسود ياولاد .. (يجوب المسرح) يا عربكش .. يا أم الغيط يا شحات الكلب .. راح فين المصرى ؟ ! راح فين؟ ! .. راح فين البلديات اللى ضحك عليه .. اللى ضحك عليه ؟ ! (بانتقام وتشنج) طب قوم يا شعب .. قوم .. أنى حكفر أيمانك النهارده (ينهض الجميع اليه) .. حذا .. كله يحاذى على يمينى هنا .. محلاك .. سر .

(يبدءون فى الحركة ، بينما تقفل الستار عليهم) .

ستار

المنظر الثانى :

نفس المنظر الثانى من الفصل الأول . لكن يلاحظ أن عدد المطرودين قد ازداد ، وان منصة الحاكم قد قصرت ، وان العساكر والموظف والخفير قد ركزوا على المطرودين أكثر من تركيزهم على الخارجين . والوقت وقت غروب من احد أيام الشتاء بعد سنوات من هرب المصرى ، وقد بانت عليه بعض معالم الشيخوخة ، وصوته قد ضعف شيئا ما . العساكر يتافقون من البرد . تسمع أصوات الريح والزوابع ، وترى البروق .

احد العساكر : (بضيق) تخشوا تخشوا . ! قرفتونا يا خلق .. كله يجمع هنا .. كل المطرودين يجمعوا هنا .. ياللا يا شعب .. عبد الوهاب أفندى حينده على الأسامى .. اللى يسمع اسمه يقول أفندم ويرجع من غير مطرود .. بسكات .

الموظف : (يمسك فى يده كشف المطرودين) .. معاى

عشرين اسم جداد اهم .. والمطرودين القدام همه همه .. مش جنده أساميهم طبعا .. جنده أسامى الجداد بس ..

(تزمجر المجموعة فى سخط علامة الضجر والضيق) .

الموظف : اسماعيل محمد مشرف .

المطرود : افندم ...

الموظف : زكى محمد قتايه ...

المطرود : افندم ...

الموظف : عبد العظيم عبد الفتاح الحو ..

المطرود : افندم ...

الموظف : (يقترب من الطابور) انى مش فاضى عشان انبح فى صوتى .. كل واحد يقول اسمه .. (يشير الى المطرودين واحدا وراء الآخر الذين يقولون اسماءهم) لا انت ترجع .. وانت رآخر .. ترجع .. وانت ترجع .. وانت .. وانت ..

المطرودين : (فى نفس واحد) يعنى كلنا نرجع ؟ ! يا خبر مش فايت ! ..

الحاكم : آه ترجعوا .. لا انتو أول الراجعين .. ولا آخر الراجعين .. فكركم ايه أمال ؟ !

المصرى : تغربنا كتير قوى .. مش قادرين نستحمل اكتر من كده ..

الحـــــاكم : كان فى ايدك من زمان ما تتغربشى .. انت اللى جايب الشقا لنفسك .. وجبته للناس معاك !

المصـــرى : محدش نفسه يعيش فى الشقا ..

الحـــــاكم : طب دخلت البلد أيام زيارة الأمير والباشاوات ليـه ؟ !

المصـــرى : عشان أعرفكوا انى أقدر أخش من اى طريق.. لكن لابد المطرودين كلهم يخشوا ..

الحـــــاكم : وهربت من السجن كمان ؟ !

المصـــرى : عشان تعرفوا برضه انى أقدر أخرج من اى سجن تحطونى فيه ..

الحـــــاكم : يعنى لابس طاقية الاخفـا ياخى .. أنا وانت والزمن طويل .. دا حتى العجز بان عليك ..

المصـــرى : بان على العجز صحيح .. لكن البـلد ابتدت تلقط نفسها .. رجعت تحبل من جديد ، كل سنة بتولد رجاله ، عندك .. (يشير الى طابور المطرودين) اسماعيل أبو مشرف وعبد العظيم الحو والزناتى أبو حسين .. البركة فيهم .. حتى أبو دراع اللى كنا نافضين ايدينا منه .. قلنا خلاص روحه ماتت .. صحى تانى .. ردت فيه الروح ..

الحـــــاكم : (بعناد) مفيش فايده يعنى .. راســك زلطه برضــه ؟ ! .

المصـــرى : مش راسى انى بس .. دا البلد كلهـا راسها

زلطه .. صعب انكم تكسروها بعد النهارده.. ابتدت تدوحر وتناقر .. مش حتخلصوا منها أبدا ..

الحـــــاكم : اللى يدوحر حنكسر نافوخه ...

المصـــــرى : كان غيركم أشطر .. معدناش بننهت من الكلام ده . شبعنا منه خلاص ..

الحـــــاكم : اعقل يا مصرى ..

المصـــــرى : أكتر من كده عقل مفيش ! .

الحـــــاكم : المرادى آخر مرة ...

المصـــــرى : قلت لك كل سنة بتولد رجاله زى الشهد .. جدعـان .. ان قدر الله ومت دلوقتى أموت وانى مطمن عليها .. حطيت فى بطنى بطيخـه صيفى .. (يشـير الى مجموعـة المطرودين بجواره) ياللا يا رجاله .. (تندفع المجموعة مباشرة الى الأمـام عند البوابة) هيـلا .. هب .. هيلا .. هب (١) .. (تلتحم معهـا مجموعة العساكر معترضين اياهم بصـدورهم وبنادقهم) .

احد العساكر : اوعى يا جدع انت وهو..اوعى بلاش جنان.. حضروا نفسـيكو .. انتو هبـل .. اوعـوا كـده ..

---

(١) يستحسن هنا التعبير الرمزى بالموسيقى أو الحركة التشكيلية حتى لا يضيع الأثر فى المشهد الواقعى المباشر .

عسكرى آخر : (رافعا بندقيته) حنضرب أهه .. حنضرب..

عسكرى ثالث : والنبى النهاردة ما هو فايت على خير يا ابدات ...

الحاكم : (نازلا من المنصة ، ومقتربا من المجموعة) .. بس .. محدش يضرب .. سيبوهم شويه يمكن يهدوا .. (ناظرا فى وجوههم بغل) زعلانين ليه ؟ ! كلكم حتدخلوا .. بس لسه ما آنشى الأوان .. كل حاجة بأوان .. مش كده برضه وللا ايه ؟ ! .. وللا انى غلطان ؟!.. (يضحك بخبث) .

المجموعة : (فى نفس واحد) آه غلطان .. ألف مرة غلطان ...

الحاكم : يا ناس .. بطلوا شغل البكش ده..مستعجلين على ايه ؟ !

المجموعة : عاوزين نخش بلدنا ...

الحاكم : طب ومالكو محموقين كده ؟ !

المجموعة : عشان نزرع أراضينا ...

الحاكم : (ناظرا فى عيونهم المحتدمة) طب مهلا .. مهلا .. لسه بدرى ...

المجموعة : ونروى الأرض العطشانه ..

الحاكم : اللا .. اللا .. دانتو النهارده معصلجين اوى .. (يأمر العساكر)بعدوهم حبتين عن البوابه ! عشان أعرف أتفاهم معاهم ...

(يدفعهم صف العساكر الى الخلف قليلا) .

لهلوبة : (بكاريكاتيرية) ارجع ورا انت وهوه .. ارجع ورا .. فوضى هيه وللا فوضى ..

الحاكم : (الى المصرى) ما شبعتش سجن يا مصرى ؟ !

المصرى : (بسخرية) ماه كل الناس مسجونين .. يطلعوا من سجن يخشوا سجن .. كل واحد يجى يعمل اهم سجن على كيفه .. ضرورى تنفتح بيبان السجون كلها ..

الحاكم : طول عمرك لمض كده .. ماناخدش منك غير لماضه ..

المصرى : دى مش لماضه .. دى الحقيقة ! .

الحاكم : (بحدة) الحقيقة انك تسكت .. تنكتم خالص ..

المصرى : (متطلعا حوله) شايفين .. أهه .. عاوز يسجنى .. مش عاوز يخلينى اكلم ابحبح عن نفسى .. عاوز يقطع لسانى عشان اتخرس . ويكلم هوه .. يكلم اللى على كيفه .. (باستغاثة عميقة) ضرورى تفكوا سجن الناس كلهم تفكوا أيديهم ورجليهم وقلوبهم وعقولهم ولسنتهم ..

الحاكم : مش حتعدى يعنى مش حتعدى .. سرسع من هنا للصبح ..

احد العساكر : (متأففا مرتعشا ، اسنانه تصطك) البرد .. البرد يا عالم .. شوفلنا حته نداری فیها.. رکبنا اتخلعت خلاص ...

لهلوبـــــة : أمال أنى أعمل ايه ؟ ! (يمسك جلبابه) لابس الجلابيه على اللحم ..

(يدخل أبو دراع مهرولا) .

ابـو دراع : (رافعا يده الى أعلى فرحا وكأنه تخلص من حمل ثقيل كان يضنيه) خلاص يا محمد .. خلاص..سبت الخفر .. بقيت حر نفسی.. محـدش له مذلة عليـــه .. طالعلك بره .. يستحيل أفضل فى البلد لوحدى .. (مخترقا الكوبرى الى الجهة المقابلة) طالعلك يا مصرى.. طالعـلك .. لنخش سـوا .. لنفضـل بره سوا .. زهقت أنى راخر .. كنت كاتم فى نفسى .. قعدت اكتم واكتم لغاية ما طهقت.. (يرمى بنفسه بين أحضانه) ما تزعلشى منى اكمنى كتفتك يا محمد .. أنى مكتفتكشى .. دا غصب عنى .. والله غصب عنى .. غصب عنى .. (يتهالك) .

(يسود الصمت قليلا) .

الحـــــاكم : (مقتربا من أبو دراع) ايه يابو دراع .. حصل ايــه ؟ !

ابـو دراع : ما حصلشى حاجة أبدا .. ردت فيه الروح بس رجعت لأصــلى .. لأيام زمــان .. مع المصرى ..

الحـــــاكم : حد زعلك يابو دراع ؟ ! .

ابـو دراع : انتو فـاكريني كنت مبسـوط .. اني كنت مطحلب للآخر .. بس كنت ساكت .. مش قـادر أتنفس .. دلـوقتي خـلاص .. الحمد لله .. أرجع لأصلي .. (بفرح) لأيام زمان مع المصري .. مع الناس كلهم ..

الحـــــاكم : ترجع لأصلك ازاى يعني .. مش فاهم ؟ ! .

ابـو دراع : (مشيرا للمصري) فهمـه يا محمد .. هوه فاهمني خفير زي كل الخفـرا الهفـق اللي الواحد منهم بنكله .. فهمه ..

المصـــــري : خلاص يابو دراع مش وقته بقى ..

ابـو دراع : لا .. قله .. قله عن أيامنـا اللي فاتت مع بعض ..

الحـــــاكم : (مستدركا) آه .. كنت من الحزب بقى ... ومداري في الخفر واني مش عارف ...

ابـو دراع : آه كنت من الحـزب .. أمـال .. فاكرنـا عبط .. داحنا اتلطمنا في الدنيا آخر تلطيم .. قلعنا سنانا من الغلب !

لهلوبـــة : بس يا راجل انت بس .. لسـانك طويل كده ليه .. لسانك حصانك ان صنته صانك ..

ابـو دراع : اسكت يا معيبط بلاش هبل ..

لهلوبـــة : اني مش معيبط يابو دراع ..

ابـو دراع : طب بس يابو عقل مخرفش ..

لهلوبـــة : (يجرى وسط المسرح) شايفين .. شايفين بيشتمنى ازاى ؟ !

ابـو دراع : (يتتبعه بعينيه) لا يا شيخ .. انت حتقعـد تجرى زى الفـار قدامنا .. بالله العظيم ان ما سكت لأمسكك من ودانك وارميك فى الميه يا جحش ..

الحـــاكم : المهم .. وديت مفتاح المتحف فين يابو دراع ؟! هاته بقى .

ابـو دراع : (ساخرا) خده منهم .. معاهم هناك ..

الحـــاكم : مع مين ؟ !

ابـو دراع : مع الفلاحين ...

الحـــاكم : ايه الكلام الفارغ ده .. كأنك كنت زى خيال المـآته هناك .. خدوه منك ازاى ؟ !

ابـو دراع : هجموا على بالنبابيت ...

الحـــاكم : والعسكرى اللى كان واقف معاك .. مضربشى فى الهوا ليه عشـان يطفشهم .. مش معـاه بندقية ؟ ! .

ابـو دراع : (يضحك) كان بيعمل زى الناس .. .

الحـــاكم : ما طلبتش قوة ليه .. كنا بعتنالك هوا .

ابو دراع : (بحدة وجدية) واطلب ليه .. انى كنت ناوى اسيب الخفر من زمان .. كنت ساكت على

نار .. قلت بركـه يا جـامع .. اللى جت منـك .. مجتش منى .. أول ما سـمعت الزيطة رحت فاتح الباب عن آخره .. قلت لهم اتفضلوا .. متحفكو وانتو حرين فيه ..

الحـــاكم : والمفاتيح ؟ ! .

ابـو دراع : مفاتيح ايه بقى ما دام دخلوا ..

الحـــاكم : (بعصبية ، مشيرا الى العساكر) امسكوه .. كتفوه . عاوز يودينا فى داهية ..

(يسرع العســاكر الى تكتيفـه لكن مجموعة المطرودين تتقدم لتصد عنه) .

ابـو دراع : مخلاص بقى .. انتو رحتو فى داهية .. البلد فيها هوجة جامدة جوه .. العساكر سابوها وهربوا .. والشعب كسر راس الأسد والبومة والغربان المتحنطة .. المتحف بقى خراب فى خراب .. عربكش داير طعفشه فى الكشافـة ولم الناس ..

الحـــاكم : كتفوه .. كتفوه ..

(تسمع اصوات بعيدة من الخارج) .

الحـــاكم : هس .. هس .. أنا سامع دبكه من بعيد .. **(يســود الصمت ، فتصــل الأصــوات عن بعد)**

الأصــوات : المصرى .. المصرى .. المصرى ..

ابـو دراع : البلد حتجنن لمـا سمعت ان المصرى والمطرودين على الكوبرى ..

الحـــاكم : يعنى فجرت .. محـدش قادر يحكمهـا .. دانا أخنق رقبتها بالحبل .. ماخليهاش تقول بم .. هيه فاكره أيه .. (يتطلع حواليه) .. أمال اللى كانوا بيزحفوا فين ؟ !

ابـو دراع : كلنا كنا بنزحف زمان..لكن دلوقتى خلاص.. الهوجـه لمـا بتيجى بتاخـد اللى ورا واللى قدام .. حتى اللى نفسه يزحف .. بينكسف على دمه ..

ام الغيـط : آه والنبى ياخوى يا ريتنى أقـدر أمشى على رجليه .. طول عمرى متكسحه كده (تحاول النهوض بصعوبة ، فيسندها المصري ، فتقف نصف وقفة) يا حلولى .. دانى وقفت أهه.. عمري ما وقفت .. اللهم صلى على النبى .. (بفرح) وقفت أهه .. وقفت يا حلولى ..

الحـــاكم : والله لازم اكسحكوا كلكم يا مناكيد .. مش حخلى واحد يمشى على رجليه .. صبركو عليه شوية بس (يتجه الى المنصـة ليتحدث فى التليفون) آلو .. آلو .. المديريه .. ادينى المـدير .. أيوه .. اهـلا اهـلا اهـلا .. الفراولة .. لأ..الفراولة بتطلع فى الصيف.. حنبعت برتقان .. برتقان بصرة زى الورد.. آه .. اى خدمـة .. لا .. العفو .. ديـك

رومى .. بس .. ديكين عشان خاطرك .. حاجات بسيطة .. آه .. ارجوك والله ياحضرة المدير تبعت لى فرقة عساكر لنج .. بالسلاح. البلد بنت الرفضى عامله هوجه.. فجرت .. فجرت فى وشى .. آه والله تعبت معاها خالص .. تعبت فعلا .. آه لولا الراس الكبيرة .. والله ما حد حيودينا فى داهية غير الراس الكبيرة دى ..

(تقترب الأصوات ، فتختلط بحديثه).

سامع .. سامع الدوشه .. حالا ارجوك .. ديكين .. ديكين انشاء الله .. بس حالا ارجوك .. (مقتربا من العساكر) رجعوهم لورا شويه .. رجعوهم ...

المصرى : محدش يرجع يا رجاله .. (يدفعهم العساكر، لكنهم يرجعون كما كانوا قريبا من البوابة) محدش يرجع يا رجاله .. والله لو متنا كلنا هنا يستحيل نرجع خطوة لورا بعد كده .. عشر سنين وحنا متغربين .. وكل يوم يطردوا ناس جداد .. (بصوت مرتفع) العزم .. العزم يا رجاله .. (يقتربون من البوابة واكتافهم وايديهم عليها) العزم..يا رجاله.. هيلا ..هوب .. هيلا .. هو ..و .. و .. و .. ب .

الحاكم : ابعد يا مصرى .. ابعدوا ابعدوا .. اضرب فى المليان يا عسكرى .. اضرب ..

احد العساكر : اضرب ازاى ؟ ! .. انت عاوز تودينــا فى داهية .. استنى لما أشوف لايحة ضرب النار بتقول ايه ؟ ! (يده حول راسه) بتقول ايه يا مدبولى .. بتقول ايه .. (يصمت ، ثم فجأة) آه .. اذا كنت أمام لص .. افلا تضرب فى المليان .. بل اضرب فى الهوا .. بعيدا عن الأسلاك التليفونية والكهربائية والبرق .. (الى الحاكم) انت عاوز تودينا فى داهيه ؟ ! دول أول هام مطرودين .. مش حرامية .. آه .. مش لصوص .. انى مش حاضرب .. لا ممكن حاضرب .. دول مش حرامية ..

الحاكم : اضرب يا عسكرى .. اضرب .. اعتبر نفسك فى معركة .. (يجرى الى التليفون مرة ثانية) .. آلو .. آلو .. يا حضرة المدير .. فين المدد اللى طلبته .. أرجوك يا حضرة المدير .. ايوه يا أخى تلاته .. أربعه .. خمسه .. بس ابعت مدد العساكر .. (وهو يعود الى مكانه) آل ديوك آل .. وده وقت الديوك الرومى ؟ ! . لا حول ولا قوة الا بالله ..

العسكرى : (مفكرا ويده بجانب راسه) اذا كنت أمام لص .. فلا تضرب فى الميان .. اللا .. اللا .. لكين دول مش لصوص .. دول مطرودين .. اضربهم ازاى ؟ ! .. ازاى يعنى ازاى ؟ .. كلام ما يخششى المخ ! ؟

(تسمع الأصوات تقترب اكثر) .

الأصـــوات : المصرى .. المصرى .. المصرى .. عاش .. عـاش .. عـاش .

الحـــاكم : (هائجـا) آل جـايين يزوروا المتحف آل .. يتفسحوا ويمشوا .. وانا اللى انعك فيهـا هنا .. اشيل الزفت على دماغى .. والله ضرورى أكلمهم .. اقلق منامهم الليـلادى . (يجرى الى التليفون) آلو .. آلوه .. ادينى مصر يابنى .. آه .. الأمير .. آه .. آه .. فى القصر .. (يعود مسرعـا) .. أحسـن لمـا تدردك من فوق بدل مانا محزوق فيهـا هنا لوحدى . (يتطلع فى الناس حواليه) بأه تخـلى راسى فى الأرض كـده يا بلد ؟ ! (يصـمت) انا عمرى ما راسى نزلت الأرض ابدا .. طول عمرى راسى لفوق .. لفوق .. فوق .. (يرفع رأسه أكثر فأكثر ، ثم مشيرا بيديه وهو فى شبه حلم) .. الكرباج فى ايدى اليمين .. واللقمة فى ايدى الشمال .. وكله بيزحف قـدامى .. بيزحف زى النمل .. امشوا يمشوا .. اقفوا يقفوا .. ناموا على ضـهركو ينـاموا .. على بطنـكو .. هـوا ما يصدقوا .. زى القرود تمام .. كل واحد عارف لعبته ..

ابـو دراع : مفيش فايدة .. كنت فاكر انهم حيفضـلوا يزحفوا برضـه .. بصـيت لقيتهم بيزحفوا

لغاية ما يتملكوا .. ومتى ما تملكوا قول عليه
العوض .. دى بلد عفيه .. تصبر على القهر
سنين وسنين تخزن زى الجمل .. وبعدين
هب تروح قايمه مرة واحدة قالها المصرى قبل
كده .. بلدنا لا يمكن تموت زى ما انتو فاكرين
كده .. مرات كتيرة نقول خلاص ماتت ..
طلع منها السر الالهى .. نشاهد عليها ..
نسبل لها عينيهـا .. ونحط لها الميـه من
الفنجـان ندعه .. ندعه .. نبص نلاقيهـا
تقولنا .. انتو هنا ..مش عيب لمـا تسيبونى
وتدوروا تصرمحوا من هنا لهنا .. نقولهـا
احنا جنبك أهه يامه .. جنبك أهه .. تملس
علينا .. وتقعد تبوس فينـا .. وتحضنـا
كلنا .. نقرب ودانا من قلبها نحس بالنبض
ضعيف .. ضعيف .. تفضـل تنـازع ..
تنازع .. نحط لها الميه ونبوس فيهـا ..
وتبوس فينـا ونعيط .. نبص نلاقيهـا
سـكتت .. بطلت منازعـة .. تقولنـا ..
متخافوش عليـه ، طول ما فيكو الروح انى
فيه الروح .. لا يمكن أموت .. نقرب ودانا
من قلبها تانى .. نسمع الصـوت عالى ..
عالى .. النبض عالى .. عالى . .عالى ..
دب .. دب .. زى ضربة الفاس العفية ..

مجموعـة المطـرودين : (وكأنهم يزرعـون الأرض) دب .. دب ..
دب .. دب ..

(يسمع جرس التليفون ، يجرى الحاكم اليـه) .

الحـــاكم : آلو .. آلو .. نعم .. اميرنا العزيز ..

الأمـــير : (يسمع صـوته من بين أصـوات وضحكات نسائيـة) تقلقنى ليه .. أنـا فى الحمـام دلوقتى .. لسه داخل من « اين منيت .. صـــواجانتى » .. تقطـع لذتى ليـه « صواجانتى » ..

الحـــاكم : البـلد قـربت تفـلت من ايـدى .. انفـلت عيارها .. فجرت خـلاص .. هجمـوا على المتحـف .. وكسروا روس الحيوانـات المتحنطة .. وزاحفين على الكوبرى أهم ...

الأمـــير : (بجدية) بتقول ايه ؟ هجموا على المتحف ؟ !

الحـــاكم : أيوه .. هجموا على المتحف وكسروه.. وطالعين على الكوبرى .

الأمـــير : اطلب عساكر من المديرية ..

الحـــاكم : طلبت من بدرى .. محدش سأل عنى .

الأمـــير : (من بين الأصـوات النسائية والضحكات) يعنى البـلد دى هى اللى معكننـا مزاجنـا باسـتمرار .. مانا قلت أولـع فيهـا بالزيت وخلاص ؟ ! همه نفسهم يعملوا ايه ؟ !

الحـــاكم : عاوزين يفتحوا الكـوبرى للمطرودين عشـان يخشـوا ..

الأمير : طيب متتفاهم معاهم ..

الحاكم : مش قادر خلاص ..

الأمير : بس دول حيتعبونا أوى لو دخلوا .. والطور قفلوا باب الترحيل له من بدرى ..

الحاكم : همه لسه حيتعبونا .. ما هم تاعبنا بقالهم سنين وسنين أهه .. الحكاية خسرانه خسرانه .. السجن معدشى بيحوق فيهم .. ولا الضرب ولا الطرد .. مستبيعين آخر استبياع ..

الأمير : بابى قال كده من زمان .. الفلاح زى التعبان ..

الحاكم : احنا فى بابى دلوقتى .. وللا فى الحالة الزفت اللى احنا موجودين فيها .. الشوطة قامت خلاص ! سبحان المسلم ..

الأمير : سايسهم بقى وأمرك الله عبال متجيلك القوة !

الحاكم : طول عمرى باسايس فيهم !

الأمير : سايس فيهم كمان ! .

الحاكم : أسايس .. بس القوة تيجى حالا ..

الأمير : ادبح لهم عشر عجول (يسمع أصوات النساء وضحكاتهن) .

الحاكم : رافضين يأكلوا حاجة من ايدى !

الأمير : تحب ننقلك بلد تانية ؟ !

الحـــــاكم : ياريت !

الأمـــــير : طب ادينى فرصة نفكر فيها بس .

الحـــــاكم : أنا عاوز القوة حالا ..

الأمـــــير : جيالك حالا .. بس شد حيلك ..

(يضع الحاكم السماعة عائدا الى تجمع المطرودين) .

الحـــــاكم : هه .. ليلتكو غبرا انشاء الله .. مش كفاية مقارفة بقى ؟ !

المصـــــرى : (بحدة وضيق) عاوزين نخش بلدنا ..

الحـــــاكم : حتخشوا .. بس مش عاوز شغب ..

عـــــربكش : احنا مش مشاغبين .. لا سرقنا ولا نهبنا ..

الحـــــاكم : الناس بيشفوكو بيهيجوا ..

المصـــــرى : بينا هايجين .. من غيرنا هايجين ..

الحـــــاكم : لما سمعوا انك على الكوبرى بس .. بقالهم اربع سنين فى أمانة الله .. كل واحد فى غيطه عال عال .. لا له ولا عليه .

ابـو دراع : (بسخرية) .. لا .. دا عليه كتير قوى .. (يصمت) عليه يزرع الأرض .. ويديكو المحصول عن داير حبة .. ما يطلعش بره ولا أكل عصفور .. وان اتأخر بهيمته عارفة السكة من نفسيها .. وهوه برضه يجهز هدمته ويتوكل على الله ، عشان يعدى

الكوبرى .. وان لتلامض يجزولوا راســه
زى الغنم .. وان سكت أهه يفضل داير كمثل
البهيم الفلبان .. (يبدأ يدور حول نفسه)
وراه الفرقله .. عا يا بتاعة اللئيمة .. حى
يا منكوده .. عايا بتاعة اللئيمة .. حى
يا منكوده .. عا .. حى .. عا .. حى ..
(بحدة فى وجه الحاكم) امال انى هربت من
شويه .. ما هو من القهر ده كله .. كنت انى
اللى بقول للناس لازم تدوروا .. تدنكو
تدوروا عشان العجلة ما تقفش .. تفضل
تلف .. ما تتعطلش .. لكن عجلتى انى اللى
وقفت .. عصلجت منى مرة واحدة .. بصيت
لقيت نفسى بضرب فراملّ غصب عنى .. كانت
حتودينى فى توكر.. تقتلنى بدون ما حس !..

الأصـــــواب : (مقتربة) المصرى .. المصرى .. عـاش ..
عاش .. عاش ..

(تتقدم مجموعة المطرودين الى البوابة
مرة اخرى) .

المجموعـــة : هيلا .. هب .. هيلا .. هب ..

لهلويـــة : (مضطربا) بس .. بس يا شـعب .. جرالك
ايه .. ما تسبت بقى ..

(يلف حولهم خائفا)

الحـــاكم : (ببعض الاستسلام) انتو عاوزين تخشوا ؟ !

المجموعـــة : آه عاوزين ..

الحـــاكم : طب حلمكو عليه .. اصبروا شويه !

المجموعـــة : صبرنا سنين وسنين ..

الحـــاكم : حلمكو .. حقول كلمة واحدة !

المجموعـــة : قـول ؟ ! .

الحـــاكم : بسى ما تزعلوش ؟ !

المجموعـــة : قول .. قول ! .

الحـــاكم : حندخل نصكو الليـلادى .. والنص التـانى بكـره !

المجموعـــة : العب غيرها .. مش عاوزين .. مش عاوزين..

الحـــاكم : ما تنشفوش راسكم ؟ !

المجموعـــة : مش عاوزين .. مش عاوزين ...

لهلوبـــة : (كالصدى) نصكو الليلادى .. والنص التانى بكـره !

المجموعـــة : اسكت يا عبيط .. اسكت يا عبيط !

الحـــاكم : سكتهم يا مصرى عيب !

المصـــرى : وانى قيم عليهم ؟ !

الحـــاكم : انت اللى مجمعهم هنا .

المصـــرى : خض الله ما جمعت حد ..

الحـــاكم : يا مصرى عيب .. ما تستلأمش عليه ؟ ! .

المصــــرى : واستلأم عليك ليه ؟ !

الحـــاكم : عيب يا مصرى .. حتخلى وشى فى الأرض .

المصــــرى : ماحنا طول عمرنا وشنا فى الأرض !

الحـــاكم : حضحك على الخلق !

المصــــرى : ياما الناس ضحكوا علينا .

الحـــاكم : القوة جايه دلوقتى حالا .

المصــــرى (بضيق) جايه جايه .. خليها تعك مرة واحدة وتخلص .. عشان نروق بقى ..

الحـــاكم : انى اقدر اكلمهم ما يبعتوهاش .

المصــــرى : يبعتوها .. ما يبعتوهاش .. الحكاية قربت تنتهى ..

الحـــاكم : مش عاوز اصور قتيل هنا ..

المصــــرى : طول عمركو تصوروا قتله .. لاهوه اول قتيل ولا آخر قتيل .. بالقوة مقتولين .. من غير القوة مقتولين ..

الحـــاكم : حدخل كل المطرودين الليلادى طيب .. بس انت تصبر عليه لبكره ..

المجموعــة : العب غيرها .. مش عاوزين .. مش عاوزين ..

الحـــاكم : (مقتربا منهم) يا شــعب افهمنى .. ارجــع لورا شويه ..

المجموعة : مش راجعين .. مش راجعين ..

الحاكم : يا شعب متخلنيش اتحايل عليك .. خلى عندك ذوق ؟ !

المجموعة : مش راجعين .. مش راجعين ..

الحاكم : (بعصبية) يا ألطاف الله الخفية .. أعملها مجزره بعنى ؟ ! حتفكرونى بالذى مضى ؟ !

(يدور هائجا وسط المسرح)

المجموعة : اعمل اللى نفسك فيه .. اعمل اللى نفسك فيه ..

الحاكم : نسيتو حكاية الأسد ؟ ! .

أبو دراع : ما خلاص كسروا راسه قدامى قبل ماسيب المتحف .

الحاكم : كان بيبوس رجلى كل يوم الصبح ! .

أبو دراع : دشدشوه قدامى .. والنبى دغدغوا راسه قدام عينى ...

لهلوبة : مش فاكرين لما شعبان كل جزمة الحاج ملوخية .. دا واكلها قدامى ؟ !

أبو دراع : بس ياد وانت عامل زى العروسة كده .. لحسن أرميك فى الترعه واللى خلق الخلق ..

لهلوبة : ماحنا كنا مع بعض سوا ـ سوا (يشير بأصابعه علامة الوفاق) .. ايه اللى حصل؟!.

ابو دراع : (وراءه) امشي .. مشيت اليــه فى زورك .. قليل الحيا ..

(تقترب الأصــوات)

الأصـــــوات : المصرى .. المصرى .. المصرى .. عــاش .. عاش .. عاش ..

الحـــــاكم : (وهو يجاهد الضعف) طب والحل .. يعنى أنى محــزوق فى الوســط .. لا منى طلعت فوق .. ولا منى نزلت تحت ..

المصـــــرى : خليك زى مانت .. لا تطلع ولا تنزل .. ياما طلعت .. دانيتـــك تطـلع .. تطـــلع .. لمــا كتافنا وجعتنا .. وضهورنا انقسمت .. لسه عاوز تطلع بعد كده ؟ ! .. وجايلك نفس تقول انزل كمـــان .. خليـك زى مانت .. اتســمر مطرحــك .. مش حتلحق تعمـل معرضك..(بعد صمت وتفكير) قبل ما تعمله نكون احنا عملنا معرضنا .. مفهوش جماجم ولا كرابيج ولا حبال ولا عدد للتعذيب .. فيه زرع أخضر يفرح العين .. وميه حلوة طعمها زى السكر .. تروى العطشان .. وعصافير جنه .. طايره .. مسقسقه فى الســما .. مش مضروبــه بالنــار .. ولا متحنطــه .. (بتمن) هيه..قلبى مشتاق لحاجات كتير.. ومحدش عارف الزمن مخبى ايه ؟ ! (بأسى) ياما انقرصنا منه .. ما ورناش يوم عدل ..

كل يوم يعدى نقول يمكن اللى بعده يطلع أحسن منه .. يجى ازفت .. تطلع شوية شمس يجى الغمام يضلم عليها .. ساعة ما نعوز الميه ، تشح الميه .. وساعات ما نعوزهاش ، نبص نلاقيها نزلت علينا سيل (يخبط كفيه ببعضهما) نحس .. طول عمرها نحس البلد دى ـ (مشيرا الى المجموعة) ياللا يا جماعة .. ياللا بينا .. دا آخر امل لينا يا رجاله .. يمكن ربنا يصلح الأحوال .

(تعود المجموعة الى وضعها الأول امام البوابة) ..

المجموعة : هيلا .. هوب .. هيلا .. هو ... و ... و ... ... و ... ب .

ام الغيط : (تحاول النهوض) خدونى معاكو يا خوى يمكن أقدر أقوم .. خدونى ..

الحاكم : اسمعنى يا شعب .. كلمة واحدة .

المصرى : لا كلمة ولا نص .. طول عمرك تتكلم .. ياللا يا رجاله .. (مع المجموعة) هيلا .. هو .. و .. ب .. هيلا .. هو .. و .. ب .

الحاكم : يا شعب اسمعنى ارجوك ؟ !

المصرى : ما عدشى فيها رجا .. الحكاية لا قاتل .. لا مقتول ..

الحـــــاكم : (باستغاثة) يا شعب .. اسمعنى أرجوك ؟ !

المصـــــرى : ياللا يا رجاله .. ياللا .. دا آخر أمل لينا..
هيــلا .. هو .. و .. و .. و .. ب .

الحـــــاكم : (وكأنه يجدف) يا شعب ؟ .. يا شعب ! ..

(يتهــالك مع بداية تزايل البوابــة على أكتافهم وأيديهم ، لكن يلاحظ أن انهيار البوابة ليس انهيــارا كليا ، وانمــا هو فتح لطريق الأمل أمامهم فحسب) ..

(ســـتار)

الفهـــرس

رقم الإيداع ١٩٩٤/٧٨٧١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 -- 01 — 4066 — X

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعد الفلاح المصرى من أكثر الشخصيات ظهورا فى أدب فاروق منيب.. وتمثل القرية المصرية أرض ميعاد الروح بالنسبة للكاتب.. حتى أننا لنستطيع أن نقرر بصدق أن معظم انتاج الكاتب يستمد صوره من الحقول الممتدة على مدى البصر فى الريف المصرى وقضاياه من حياة الفلاح ومن نضاله الذى استغرق آلاف السنين.

وفى الأعمال الأولى للكاتب اختار الواقعية أسلوباً للتعبير، فصور حياة الكادحين والفئات المهضومة من الطبقة الوسطى. وعلى الرغم من الحياة الجافة القاسية والنضال اليومى المرير الذى كان على بطل قصصه أن يخوضه، إلا أنه كان بطلا متفائلا قويا صلبا. ثم أخذ الكاتب يمزج الواقعية بالرمزية فكتب مجموعته القصصية «زائر الصباح» ثم «أحزان الربيع».. ورأينا الحلم يختلط عنده بالواقع وأصبح البطل أكثر ميلا للتأمل الحزين.. وواصل تقديم صوره المعبرة ولكن ملفوفة فى غلالة من الأسى الرقيق.

مطابع الهيئة المصرية العا

٥٢٥ قرشاً